قابَ عينين أو.. أُدنى!

سمر حمد الحماد

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

KALEMAT

طبعة الثالثة عشر

قابَ عينين.. أو أدنى!

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

• قابَ عينين .. أو أدنى!
• سمر حمد الحمّاد
• دار كلمات للنشر والتوزيع
• الطبعة الثالثة عشر ٢٠١٥
دولة الكويت / محافظة العاصمة
تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤
٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٨٦
تويتر : @Dar_kalemat
إنستجرام : Dar_kalemat
Dar_Kalemat@hotmail.com

للتواصل مع المؤلفة :
s.alhammad-77@hotmail.com
Twitter: @Samar_77
Instagram: Samar_77

لوحة الغلاف : سارة الشهري
Instagram: Sara_alshehri2
تصميم الغلاف : روان فهد
Rawan.fahad.s@gmail.com

• **جميع الحقوق محفوظة للناشر** : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناشر .

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

رقم الإيداع : ٢٠١٥/٨٨٤٢/٠٣٤١

ردمك : ISBN: 978-603-01-6389-2

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

قابَ عينين.. أو أدنى!

رواية

سمر حمد الحمّاد

٢٠١٥

تدقيق

محمد العتيق

Twitter: @iwameq

KALEMAT

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

إهداء

إلى السيدة التي كانت تفترش الأرض في سوق «حجاب» ولم تعد كذلك منذ مدّة، أعتذر لك بالنيابة عن هذا العالم، هذه الصفحات لكِ.

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١-

بكيت حينما سحب مني سيف عُلبة العصير وركض هاربا خوفا من العم عوض . . ويجري وراءه أصدقاؤه متضاحكين ، فيما استنجدت بأخي متباكية في الوقت ذاته ، لكنه هرب مع الصبيان خوفاً من أن ينبذوه ، كان الأجدر بي ألا أبكي بكائي كان ولم يزل غير مجد لسيف خاصة . . ولا أحد يكترث به على وجه العموم! سيفٌ ، كان ابناً للشارع . . ملتصقا على أرصفة الحارة الفقيرة . . تربى بين بيوتها الشعبية المتجاورة ، وعاش بين جنبات المحلات العشوائية الغير نظامية ، يشابه حاله حال غالبية أبناء الحارة . . بيد أنه كان الأميز بينهم بحكم أنه الأقوى شعبية في المدرسة القريبة من أطراف الحي .

كان حيُنا متواضع جداً . . وبلفظ أقل تهذيبًا حي فقير بالمعنى العام ، مليئًا بالبيوت المزدحمة والمتجاورة ذات الألوان المختلفة البالية القديمة ، تفيض البيوت بأشخاص كُثر . . حيث يتواجد في البيت الصغير الواحد ما يتجاوز العشرة أشخاص كما هو الحال مع بيتنا . . وعلى جنبات الحارة تتواجد دكاكين صغيرة متنوعة ، وأصوات الباعة المختلطة المتصيدة للمارين تتعالى . . كلٌ ليكسب رزقه ويجتمع شباب الحي غالباً خارج دكان العم عوض . . نظراً لموقعه الاستراتيجي القابع في زاوية الحارة أمام الشارع الفسيح الذي يملؤه صوت الصبيان وهم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يتناولون كرة قديمة يلعبون بها حفاة الأقدام وعلى زاوية الشارع كان مكان تجمع الفتيات الصغيرات تحمل كل واحدة منهن ألعابها ليكُنَّ بعيداً عن مكان لعب الصبيان . . ويلعبن على مرأى المارين هناك .

رجال حيُنا يتواجدون بعد كل صلاة عصر في دكة المسجد دون أن يكون لأبي محل بينهم . . يعرف كل أخبار الآخرين دون أن يكون بحاجة للسؤال عنهم . . يتبادلون أخبار الحارة ومصدر الاشاعات الموثوقة تُصدر من خلال أحد رجالها ، أما نساء الحارة . . غالبيتهن لسن على وفاق تام مثل رجالها . . كل واحدة منهن تتوق بأن تفوق الأخرى تميزاً ، الغيرة لديهن تتوفر بكثرة ولا سيما التفاخر أيضاً . . أمي لم تكن مثلهن كما تمنيت دوماً ، كانت بعيدة عن ذلك أشد البعد .

قد نكون بالأصل متشابهين في معنى الحياة المطلق . . فجميعنا نحيى بأي شكل من الأشكال . . المهم أننا نتعايش في هذه الحياة دون أن نخوض في تفصيل معنى الحياة ذاتها بيد أننا نختلف في الظروف التي نحيى بها . . ونتعايش مع أمور قد فُرضت علينا باختلاف أنواعها السيء منها والجيد . . لكننا في الأصل نشترك في معنى واحد . . ألا وهو الحياة! قد تبدو الحياة معنى جيداً في الحقيقة . . لكنه في الواقع لا يشكل أي اهتمام لدى كثير من الفئات التي تحاول أن تقضي الحياة أياً كانت ، كَهم يُحمل على الأكتاف بثقل يحملونه بانتظار الموت لإلقاء ذلك الهم الواهم من على الأكتاف! نحن حين نعيش نعتمد كلياً على الموت في جميع مسارات حياتنا . . مع أننا في الأصل

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

نفر هاربين من فكرة الموت ذاتها ونستبق الوقت قبل أن يسبقنا الموت ، معظم الأخطاء تقع في الوقت الذي نحاول آن نفعل الأمور بسرعة خشية الموت أن يأتي مبكراً ويتوقف عقرب الساعة عندها ، دون أن نكون قد فعلنا شيئاً . . شيئاً ما . . لا نعلم ما هو بالأصل . . المهم أن نفعل شيئاً ما قبل الموت ولا ندرك معنى كل الأشياء إلا حين نموت!

لم أكن افهم معنى الحياة أصلاً وتفصيلا . . لكني علمت في الوقت المبكر جداً معنى الموت على قيد الحياة دون ان أعي ذلك ، كوني ولدت في أسرة ميؤوس حالها . . يسبقني أربعة إخوة بؤساء . . وأخت كبرى تعيسة . . ويتبعني ثلاثة صبية أدركوا معي أنهم ولدوا ببؤس أيضاً دون تخطيط مسبق ، مجيئنا جميعاً إلى هذه الدنيا كان باسم التكاثر فقط . . دون أن يعي والدنا أنه ملزوم بنا جميعاً ، كانت مهمة والدي هي فقط إحضارنا لهذه الحياة بنية الاستمتاع المسبق دون التفكير بما بعد تلك المتعة التي حضي بها لبضع لحظات . . أما الباقي تركه على والدتي حتى أسماؤنا تركها للوقت أو يلقي عاتق التسمية على أمي وأخواتها الأربعة . . وقد حظيت باسم أسمتني إياه أختي على صديقتها في المدرسة . . اسمها لمى! من حسن حظي أن صديقة أختي كانت مسماة بـ لمى . . فلو كان اسمها «طماطة» مثلاً لكان اسمي الآن طماطة ايضاً . . ولا أحد يكترث ، أسماؤنا هي وسم نحظى به في هذه الحياة ليعرفنا العالم بها ، والأجدر أن يُختار بعناية لأنه الشيء الوحيد الذي سيكون لنا منذ الولادة إلى ما بعد الموت ، حين تذكر اسماؤنا

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

يتبعها دعاء وطلب الرحمة ، هو الهوية التي يزرعها الزمنُ مع تقدمه فينا ، «لكلٍّ من اسمه نصيب» ما زلتُ أذكر صقر كيف كان يمثّل حينما كنّا صغارًا أنّه صقر! وسيف صديقه أنه كذلك ، تبني هذه الأسماء شخصياتنا من حيث لا ندري . . لكن والديّ جاهلان ، لم يكترثا لا باسم ولا بغيره . . كان المهم لديهم أن نعيش . . أمم أعتقد ذلك .

منذ أن عرفت أمي . . أشهدها دائمًا بسفع ترتديه تفوح منه رائحة الحناء مختلطاً بدهن العود الرخيص . . يتدلى منه مفتاح صغير يخص باب منزلنا ، لم تكن أمي كباقي نساء الحي! كانت ضعيفة جداً هزيلة ذات عينين عسليتين شاحبة . . لديها لسان سليط وصوت مرتفع جدا حين تبدا بالصراخ لكنها ضعيفة . . تحاول لملمتنا أحياناً في حضنها حينما كُنا صغارا إذا ما جاء والدي غاضباً كالعادة . . كانت تحاول بجدارة أن تحظى بحبنا . . لكن نفوسنا جشعة جداً ولدت مهمشة جداً في بيئة قاسية وقلوبنا غلف ، كُنت أحب أمي في المنزل فقط! لكنني أنكر ذلك خارج بيتنا! ولست أنكر حبها فحسب . . بل أنكر أنها من أنجبتني أساسًا لسبب لستُ أجهله! أتجاهله كثيرًا فقط .

تزيد قيمة الأشياء قبل امتلاكها ، لذلك كل الأشياء لدى الفقراء قيّمة ، لأنهم لم يمتلكوا شيئاً ، الفقر داء مزمن والمبتغى الحلم هو الشفاء منه! وقناعة أهله هو كنزهم الثمين! الفقر ليس سيئا جداً طالما كنت منذ أتيت للدنيا فقيراً تعيش ببيئة معادلة لمستوى معيشتك . . البيوت المتراصة ذاتها والثياب الرثة . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

والطعام المتكرر على مدى الدوام . . الخبز والماء من أعز ما يُملك! الأحلام المختبئة في الصدور الطامحة جداً . . والأمل اليائس في التغيير ، ذاك الفقير النائم فوق فراش أكل الدهر عليه وشرب يملك أقوى الأحلام الطامحة داخل قلبه العاني . . ويغلق عليها بإحكام بين حنايا صدره . . يرتل حلمه برجاء في كل سجدة يسجدها لله بشكل دعاء علّ الله يستجيب حُلماً مكث في قلبه عمراً لا يُحصى . . ويخلد للنوم أملاً أن يستيقظ ويستيقظ معه حلمه النائم ، في كل مرة قبل أن ينام يؤمن أن حلمه ذو الغيبوبة شبه المتوفي . . سيتيقظ معه ذات صباح . . حتى صار حلمه أن يستيقظ حلمه النائم .

الرجل ذو الثوب الأزرق.. ذاك أبي!

لم ينفك يوماً عن عقد حاجبيه . . ورائحة الدخان تلتصق به التصاقا! على كتفيه غترة بيضاء تُغسل يوميا . . ويمسك بيده عقاله حتى إذا ما سمحت له الفرصة بضرب أحدهم كان عقاله أقرب إليه ، ملامحه ملامح غاضب . . ناقم على الحياة بأجمعها يظن أنه يستحق أن تعطيه الدنيا أكثر مما يعيشه الآن .

أبي الذي يظن هذا بعد أن عاش شباباً حافلاً ومزهرًا! تحفه من حوله النساء لوسامته في الصبا . . حتى شاب ولم يعد حوله سوى أمي ولسانها السليط لم اكن أرى أبي إلا لماما . . ولا أتذكر أني يوما تجرأت ولمسته! لم اكن أُلقي لغيابه بالاً . . لأن وجوده لم يكن مرغوب لدينا جميعاً . . يضرب هذا ويشتم ذاك ويسخط من الجميع . . ودخان السجائر الصادر منه تخنق

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أخي الصغير «فهد» فكان لا ينفك عن السعال والتنفس بشكل شهيق طويل وزفير أطول . . يخبئ وجهه الصغير بين ذراعي لعلي أحاول إنقاذه من الاختناق مثل كل مرة . . أمسك يده الصغيرة ونهرب للشارع متراكضين حفاة الأقدام . . متخذة مرض فهد بالربو عذراً كافيا للهرب من المنزل . . ورائحة السجائر دوافعاً فعالة للانطلاق خارج البيت المليء بالصراخ .

في الماضي كانت قطعة الحلوى المهداة من العم عوض كفيلة بإسعادي! بل كفيلة بأن تجعلني أترنح فرحاً فوق أرصفة الحارة أغني طرباً وأنتشي سعادة وأستطعم الحلوى بتلذذ طفلة كانت تظن أن نطاق السعادة ينحصر في قطع الحلوى فقط! حتى علمت أن السعادات في هذا الكون تختلف بالنوع والشكل وتتساوى بالمقدار والكمية كلٌ بحسب بيئته . . كمثل طفلة بعمر الخامسة تتراكض في شوارع فقيرة فرحاً بقطعة حلوى . . كانت هنالك في الفيلا البعيدة طفلة تشبهها عمراً تفتح علب الهدايا الكثيرة حولها . . بنفس مستوى سعادة الطفلة الأولى! السعادة ليست نوعاً واحداً بل منسوب كمي يرتفع وينخفض بحسب الأشياء المستدعية لذلك . . إحدى خالاتي حين كانت تحاول جاهدة الطبطبة لحال أمي الفقير كانت تردد عليها « العيال وراحة البال . . أزين من الذهب والمال » فيما لم تحظى أمي المسكينة سوى بالعيال اللذين أعدموا عليها وجود الذهب والمال وراحة البال ، وحين أذكر جانب المال جانب مفهوم السعادة . . يعني ذلك أني وعائلتي على إيمان جازمٍ ومطلق وتام بأن لو كنّا ذوي مالٍ لقضي الأمر

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وانتهت تعاستنا الأبدية! لكني كفرت بإيماني بالوقت المتأخر جدا وعلمت أن «راحة البال» التي رددتها خالتي كثيراً هي أقرب ما يكون إلى مفهوم السعادة . . لعل خالتي لم تدرك ذلك أيضاً لكنها رددته على سبيل الطبطبة!

الصبية الفاتنة . . ذات الشكل المهمل ، تُرضع طفلها الصغير وتمسك أخته الكبرى وتصرخ على ابنها الأكبر حين ضرب أخاه الأصغر منه . . وحولها طفلة أخرى تبكي! تلك هي أختي «مريم» ذات التسعة والتسعين طفلاً . . وبلفظ أقل مبالغة أم لخمسة أطفال لا يفرق أعمارهم عن بعضهم سوى سنة كحدٍّ أقصى! خُلقت أختي لتكون أماً ، منذ أن وعت على الدنيا وهي تمارس الأمومة بشتى أنواعها مع إخوتي ومعي تحديداً بكوني الأنثى الوحيدة بين مجموعة من الذكور . . كانت ذات صوت جميل جداً حين تغني لي في وقت تمشط فيه شعري وتزينه بشريطة بيضاء قبل الذهاب سوياً للمدرسة الماكثة في أطراف الحي . . لم يدم غناؤها لي طويلاً . . حتى أتمت الـ 16 خريفا زوّجها والدي قسراً برجل لم تعهده قبلاً . . واستلم منه مهراً كافيا أن يسرفه على ذاته بطمع . . باعها والدي لرجل عنيف جداً في سنتينِ أنجبت منه طفلين! جمالها الأخاذ الذي كان يتغنى به شبابُ الحارة . . أصبح ملكاً لرجل قروي جشع من مدينة بعيدة لا يرغب إلا بسرير وزوجة ، ويقضي باقي وقته خارج أراضي وطنه كانت مهمله الشكل محطمة القلب وصوتها قد بحّ من أثر الصراخ المستمر على أطفالها المشاغبين الخمسة . . ومنذ أن تزوجت . . ما عهدتها غنت قط!

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٢-

في هذه المدينة الرمادية الكل يعيش بالطريقة التي يعيشها باختلاف البيئات والظروف! سكانها تعودوا على هوائها المحمل بالأتربة . . ويعيشون حياة طبيعية كما لو كان الجو صحواً يخرجون إلى التنزه بعدما يشقون طريقاً ملؤه الغبار . . يتسوقون ، المطاعم تفيض أناسا . . والحياة لا تتوقف عند غبار أو مطر مستمرون في العيش بالطريقة التي كانت مهما كانت هذه المدينة كعجوز بكماء وعاقر! الازدحام على مدى الدوام . . ودرجة الحرارة هنا تتجاوز 55 صيفًا! جوها في الشتاء قاسٍ جاف وأغبر . . ولا أحد يستطيع منعهم من العيش بالشكلٍ الذي يحبونه . . أو الذي يقدرون عليه . . كأن هذه المدينة قد أصيبت بلعنة ما جعلتها تتصف بالكآبة ، يخيل إليك أنها رمادية اللون شاحبة . . وأظن تسميتها بالرياض كان مجرد سخرية! فهي صحراوية وجافة جداً ولست أجد فيها روضاً واحداً لتستحق اسمها المتناقض . . لنقل بشكل إيجابي أنها سميت بالرياض كأمل بالتغيير يوماً لتصبح مليئة بالرياض فعلاً ، بالأصل كانت الرياضُ تسمى قديماً (رياض العارض) نسبة لجبال العارض التي تحدها من الشمال والشرق . . مدينة الرياض هذه ليست سيئة كما يتصورها من لا يسكنها فلو رأوا حب سكانها لها وما يحملونه تجاه هذه المدينة من انتماء لانزاحت أفكار البغض

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

عنهم . . هي فقط حكمتها الظروف جغرافياً ان تقع تماما فوق هضبة نجد الصحراوية الحارة . . وظروف أخرى لا تكاد تذكر ، كان بيتنا يشبه الرياض تقريبًا لكن بشكل أقل وأحقر قليلاً . . فمهما كانت أجواء المنزل متوترة على مدى الدوام وخاصة بحضور أبي . . إلا أن ساكني هذا المنزل مستمرين على العيش كل يعيش بالطريقة التي يفضلها . . كأخي الأكبر سلمان مثلاً . . مع أنه يذهب مع والدي يومياً لحراج السيارات لأداء وظيفته كـ «شريطي سيارات» ويعود متعباً بعدما أخذ من والدي كل ما يستدعي للهرب . . إلا أنه يضحك! وليس ذلك فحسب بل أنه يضحكنا كثيراً في غياب والدي ، يعودُ للبيت متأخرًا أحيانًا رغمَ تعبه لكنه يحاول أن يصنع ابتسامةً على وجه فهد الصغير ، ويلاطف أمّي حين يخبرها مازحًا أنّه باع اليوم سيارات بملايين كثيرة ، ما تملك إلاّ أن تضحك له وعلى أحاديثه التي علمُ يقينًا أنه يكذب فيها ، تبادره «الله يرزقك يا وليدي» . . كان نحيلاً جداً وفي وجهه الشاحب ابتسامة لا تنطفئ! لكنه لم يكن ليجلس في البيت كثيراً نظراً لأنه طول الوقت مع والدي في وظيفته . . عندما يعود للبيت يفر هارباً من أبي كونه قضى معه وقتاً لا يحتمله غيره! لذلك كان يلجأ لأصحابه ولا يعود إلا قبيل الفجر لينام ليستيقظ صبحاً ويجره والدي خلفه نحو الحراج وهو يمشي على مضض ، كون سلمان ترك دراسته في المتوسطة . . فوظيفة شريطي سيارات جيده جداً لمؤهلاته!

وغير المبتسم سلمان . . كان أخي ناصر رغم كتفيه

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

العريضين ، وهيئته ذات العضلات الكبيرة إلا أنه يحمل قلباً صغيراً جداً ، أذكر كثيراً أنه كثير البكاء في الماضي مع أن فارق العمر شاسعٌ بيني وبينه إلا أنه ظل محتفظاً على عادة البكاء طويلاً . . حتى كبر فحوّل عادته البكائية إلى خوف وارتعاب إذا ما سمع صوت والدي يضرب أحدهم أو بدأ بشجاره المعتادً مع أمي . . مع أن ناصر كان مفترضًا به أن يعتاد على ذلك الوضع وأسلوب والدي وتعامله . . إلا أنه لم يكن ليتحمل ذلك! كان ناصر هو أمل بنات خالاتي الأربع . . لوسامته بحد نظرهم! إلا ان ناصر جبان بالفطرة لم يتجرأ ويتشجع يوماً أن يهمس لإحداهن ببنس شفه ، مؤخراً ناصر توظف كسكرتير خاص في أحد الشركات التجارية الخاصة . . وذلك ما رفع طموحات بنات خالاتي اللاتي يأملنه كحبيب أو زوج بالمعنى الفعلي .

كنت مرسال الغرام في طفولتي! حين كانت «شهلاء» ابنة خالتي «زينه» تأخذني في بيت جدتي القديم . . وتضع في يدي رسالة معطرة مع قطعة حلوى صغيرة «أعطيها ناصر ، لكن لا تخبري أحدا . . هذا سرنا الصغير بين الصديقات . . ألسنا أنا وأنت صديقات؟» أومئ رأسي بشكل إيجابي ببلاهة ، أمسك بحلواي بقوة وتعلو شفتاي ابتسامة! ابتسامة للحلوى وابتسامة للصداقة الجديدة بيني وبين شهلاء! تتضاحك وتخرج وانا أخبئ سر صديقتي شهلاء في جيب فستاني هاربةً للخارج خوفاً من أن تُسرق حلاوتي! أخرج في بالي ككل الأطفال كيف آكل حلواي مع إغاضة الجميع بها ، أريدهم أن يعرفوا أنّي دونهم آكل الحلوى ، أنّي أجملُ وأوفرُ حظًّا منهم

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

جميعًا ، لحظ شهلاء الأغبر . . أعطيت رسالتها لأخي . . ياسر! لم أكن لأنتبه إن قالت ناصر أم ياسر المهم أن حلاوتي قد اكلتها! وأني صديقتها . . ولست أذكر تماماً هل قالت ياسر أم ناصر فكانت رسالة الغرام من حظ ياسر الذي لم يكن ليصدق ذلك حتى أخذني خارج من المنزل ليسألني للمرة الألف من كان كاتب الرسالة؟ حتى اذا ما جاوبت شهلاء قبلني ثم احتضن الورقة بهيام شاب لم يفكر يوماً أن فتاة ما ستقع بغرامه . . كيف لو كانت تلك الفتاة هي شهلاء؟ في الأسبوع الذي يليه . . كان ياسر قد كتب رسالة طويلة وضعها في ظرف وملأها بعطر ذو رائحة مقرفة . . وأوصاني أن أعطيها شهلاء . . ركضت لصديقتي أسلمها الرسالة . . فرحت كما لم تفرح من قبل ، قبلتني بشدة وأفرغت في يدي حلوى وفيرة وركضت لأحد دورات المياه تختلس قراءة رسالة عشيقها المُعتقد ، كنتُ أرى في عيونها السعادة التي أشعرُ بها ، كانت تبتسمُ كأنّ الدنيا حِيزت لها! توالت الرسائل بعد ذلك وما زالت شهلاء تجهل بأنه ليس بحبيبها كما خيل لها . . وما زال ياسر يظن أنها اختارته فضلاً عن جميع الشباب! أما أنا؟ كنت المحظوظة في هذه القصة البئيسة فكنت أنهل الحلوى من ياسر وشهلاء بشكل مستمر وأحافظ على عملي كساعيةِ بريد صغيرة . . ما زلت أذكر كيف كان ياسر يدخل غرفتي ليسألني عنها بشكل دقيق مستفز! ولا أجيبه إلا بلعبة يلعبها معي أو حلوى يعطيها لي . . أو يرسم لي فراشة على كراستي! كنت الأوفر حظاً بينهم والوحيدة التي كسبت من كل تلك القصة شيئاً

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

إيجابياً . . بينما هم كسبوا خيبة ظن كبيرة حينما عرفوا الحقيقة! يومها كانوا قد اتفقوا أن يهربوا خلف منزل جدتي للقاء الأولي . . كانت خيبة الظن كبيرة حين وقعت على قلب شهلاء يوم رأت ابتسامة ياسر يأتي راكضاً . . بينما ياسر لم يكن ليبرر عبوسها سوى بالخوف من هذه المغامرة :

– ياسر !!! ما الذي أتى بك؟ أين ناصر لم أنت هنا؟

كان ياسر أكثر ألما من شهلاء فهو لم يكسب شيئا بينما هي على الأقل كسبت حب ياسر وعشقه لها! صدمتهم لم تكن لتوسعهم . . فيما بكت شهلاء بحرقة ولم يكن ياسر قادر على الهروب بينما يرى حبيبته تبكي بقهر ، خالتي نورة ولولت وهولت وصرخت حينما رأت شهلاء تبكي وبجانبها ياسراً متأملاً بحسرة! حتى اجتمعت جدتي وبناتها وحفيدتها على ذلك المشهد وكلٌّ فسّره بحسب نيته . . واتفق الجميع على التفسير الخطأ! مع أنهما لم يتزوجا المرحلة الثانوية وقتها إلا أن جدتي أصرت أن يرتبطا لتصليح الخطأ المعتقد ولترقيع الشرف الذي مزقه ياسر وشهلاء بزعمها وأيدها الجميع عدى خالتي زينه التي حرق قلبها قهرا وأمي التي ما استطاعت أن تبكي من هول الصدمة والخزي . . ولم يكن لتبرير شهلاء أو ياسر أي معنى لدى الجميع! تلك الليلة . . عزم الجميع على تزويجهما حتى لو أنهما قُصّر . . وأكل كلٌ من شهلاء وياسر ضرباً مبرحاً أجبرهم على الموافقة . . ومن يومها وأنا منبوذة من عند شهلاء ، ولم يعد ياسر يدخل غرفتي للسؤال أو اللعب! وأنا وشهلاء لم نعد صديقتين أبداً .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٣-

لكل شيء إذا ما تم نقصان! كل الأشياء الناقصة غير مؤدية للكمال . . وكل ما لم يكمل بأي شكل من الأشكال عديم القيمة . . وكل عديم للقيمة عديم للنفع في الوقت ذاته .

معادلة النقصان تكتمل إذا قلنا أن النقص على وجه العموم عديم للمنفعة والكمال هو الشيء الوحيد المطلوب والمرجو لكل نقص كان ، فلسفة الحياة كاملة لا تبحث الا عن مكتمل عديم النقص! هكذا كانت ترى خالتي زينة . . عقدة النقص التي كانت تعاني منها أزلاً ستذهب قريباً حينما جاء الفرج على قلب شهلاء وأمها وذويها . . حين خطبها «مساعد آل عاصم» قبل أن يتم تزويجها إجبارًا بياسر «ابن أم سلوم» . . كان مساعد ابنة لعائلة ثرية ، مُطلق ويبحث عن صبية جميلة ترى الحياة قد تكتمل بمبلغ زهيد بحد نظره بعدما أرهقته طليقته الأولى طمعاً بكل شيء فكان نصيبها الطلاق وجاء يبحث عن ميسورة الحال ذات حسن وجمال ، هذه صفات شهلاء كما يعرفها أهل الحي . . غضن البان ذات السيقان النحيلة البيضاء ، شهلاء التي ما زالت نساء الحيّ منذ بلغت من العمرِ جمالاً يتغنّين بابتسامتها وحسن تربيتها ، كنّ يقسن بناتهنّ علَيها ، حتّى أصبحت شهلاء دون أن تريد أو تعلم محطّ كرهٍ من فتيات «أم مهنّد» ، كانت الغيرة تأكل قلوبهنّ

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

منها ، كان الحظ حليف شهلاء التي بكت دماً رفضاً لزواجها من ياسر .

قبل وقت وجيز من زواجها أتاها الحظ على شكل خاطب ، وليس أي خاطب . . مساعد ابن لعائلة آل عاصم ذات الصيت المشهور بالتجارة والمال ، جاءها ليكمل عقدة النقص التي عانت منها خالتي وأهلها منذ عمر طويل! وتمشي خالتي زهواً بخطيب ابنتها وفخراً به . . والغيرة قد أكلت ما أُكل من قلوب الفتيات الأخريات من حظ شهلاء الذي يكسر الصخر ، أما ياسر نجى من تزويجه المجبر . . لكن لم يتعافى قلبه من الذي أصابه ، كان شريد الذهن سارح البال . . حتى حولته الأيام هادئاً جداً جراء صمته الطويل ، غيّرت هذه الخيبة قلبه وتعامله وروحه التي كانت تطيرُ لغرفتي في كلّ لحظة أدلفها! .

في كل مرة نرى شخصاً جديدًا فإننا نحكم عليه غالباً من خلال شكله العام والظاهر لنا . . وإن تعمقنا بالحكم فإننا بالتأكيد سنحكم من خلال أسلوبه أو تعابير وجهه حكماً إيجابياً كان أم سلبياً ، المهم أننا سنصدر حكما ما في جميع الأحوال . . قد لا نعترف به لكننا نفكر به حتى لو لم نبح بما قد حكمنا به سرا! الحكم على المظهر العام شيءٌ لا نستطيع التحكم به حتى وإن أصاب حكمنا أو خاب ولكثير من خيبات الأمل التي تصيبنا جراء مظهر خداع قد حكمنا به للمرة الأولى لنا . . والأشياء غير المتوقعة بتاتا ونقف عندها ذهولاً لمجرد أننا آمنّا بحكمنا من خلال ظاهره لنا ، ولأن المظاهر خداعة . . كان منسوبو مدرستي في الابتدائية من مدرسات

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وطالبات . . لم يخطر ببالهن يوماً أني ابنة الفراشة المدرسة الكبيرة بالسن . . ولم يفكرن مجرد تفكير أن «ام سلوم» قد تنجب ابنة مثلي! كوني تميزت بملامح ملفتة تسر الناظرين لفرط جمالها . . عدى ذلك كانت هيئتي بشكل عام لا تدل أبداً على شح حالنا أو تظهره . . أنا من كنت أنكر أن أم سلوم تلك القابعة في غرفة صغيرة وسط الساحة مفترشة حصيراً يابساً . . تكنس الأرض وتمسح الكراسي وأبواب الفصول . . تلك تكون أمي! ومظهري الخداع سمح لهم بتصديق كذبتي الحقيرة ، لعلّ الزي الموحد لجميع طالبات المدرسة أسعفني في إخفاء تواضع حالنا . . فكنتُ أبدو أمام الجميع أنيقةً أكثر مما تطيقه فتاةٌ بأبٍ لا يملك دخلاً ثابتًا! علمت أمي أني قد تبرأت منها علناً أمام المدرسة بأجمعها خزياً وخجلاً بالاعتراف بها . . لذلك كانت تذهب للمدرسة يومياً قبل بداية وقت الدوام الرسمي! أما أنا . . فقد كان باص المدرسة الأصفر العتيق يمرني حين أقفُ صيفًا وتحرقني الشمس وشتاءً ويتعبني البرد من أول الحارة . . أول الطالبات تصعد إليه صباحاً وآخر الطالبات تنزل منه ظهراً . . كل ذلك كي لا يرى أحد وضعي البئيس ويشفق على حالي . . وأنا التي أقود المدرسة عرضاً وطولاً مزهوة بجمالي الذي جعل نصف صديقاتي يصاحبنني من أجله!

أذكر كيف كنا نلعب متراكضين في المدرسة وحان دوري لأغمض عيني متكئة على جدار الساحة أعد الارقام ببطء وخلفي صديقاتي يتراكضن يبحثن عن أماكن يختبئن بها قبل أن أصل لرقم العشرة :

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

سبعة ثمانية تسعة ع ش ر ة

أبدأ بالانطلاق بالبحث عن صديقاتي اللاتي اخترن أماكن نموذجية للاختباء بالرغم من ازدحام الساحة من طالبات كلٌ منهن يلعبن بطريقة أو بأخرى . . حين رأيت صديقتي جوهرة تركض انطلقت ركضاً خلفها وهي تحاول الاختباء بين الطالبات الباقيات متضاحكة حتى اختفت من أمام ناظري . . وعلي الآن تخمين مخبأها لأن الساحة انتهت! ولم يكن هنالك سوى دورات المياه وغرفة «أم سلوم الصغيرة» سمعت صوتها تتضاحك داخل الغرفة فركضت تجاهها أفتح الباب بقوتي وأصرخ

- أمسكتتتك!

كانت أمي تنظر إلي وقد تهللت تعابير وجهها حين فاجأتها بدخولي غرفتها لأول مرة ، وخلفها كانت تختبئ جوهرة . . لفرط حماستي في اللعب قلت :

- «يممه امسكيها يممه امسكيها لا تروح»

تجاوبت أمي وأمسكتها قبل الهرب وانتهى دوري في اللحاق بهم . . ونحن نمشي متجهين نحو باقي الصديقات لنخبرهم أن دور العد واللحاق من نصيب جوهرة الآن . . نظرت إلي باستغراب :

- أم سلوم أمك؟

«تغير لون وجهي حينها . . كيف علمت جوهرة أنها أمي؟ كيف أدركت ذلك نحن لا نتشابه . . هل من المعقول أن أمي اخبرتها حين دخلت عليها جوهرة؟»

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- أمي؟؟

- نعم أمك . . سمعتك تنادينها «يمه»

«أطلقت تنهيدة من صدري تعبر عن ارتياحي واخترعت كذبة سريعة لأنقذ موقفي المحرج بحد نظري»

- لا يا مجنونه اقصد بـ«يمه» الاحترام . . ألم تسمعي ما اخبرتنا به معلمة القرآن أن ننادي كبيرات السن بخالة أو يمه؟ وأم سلوم امرأة كبيرة والأجدر أن نسميها بـ«يمه»

- لا ما سمعت . . جد قالت؟

- نعم قالت . . . «الدوور على جوهرة» . . عدي لين عشرة مع أن أخي الأكبر يسمى بسلمان . . والأحرى أن تُنادى أمي بـ أم سلمان . . لكن أم سلوم كان أكثر تحقيراً وتصغيراً وذلك ما كان يليق بأمي باعتقادهم أن المرأة النحيلة الفقيرة ذات القميص المشجر ، لا يليق عليها إلا أم سلوم! وذلك ما عُرفت وسميت به بين خالاتي ونساء الحارة ومنسوبات المدرسة . . وأبي ايضاً كان إذا أراد تحقيرها نادها بأم سلوم . . وإن كان يريد مالاً ناداها باسمها . . «منيرة او منور» وهذا ما يحدث نادراً!

ما زال شكل أبي عالقًا في ذهني وهو يجلس أمام التلفاز الصغير في صالة بيتنا ذات الجدران السماوية . . تحمل يده فنجان شاي أحمر . . ويحمل فمه سيجارة رخيصة تحترق! رائحة الدخان تعانق المكان . . ويصطف إخوتي حوله مشدوهين جميعهم نحو شاشة التلفاز التي تعرض فلماً لست أذكره جيداً . . كُنت وقتها ألون على كراسة بيضاء ، خرجت أمي من

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

حجرتها تعقد حاجبيها وتضع يدها على أنفها تعبيراً عن الاختناق من رائحة الدخان . . وقفت أمام التلفاز غاضبة تصرخ :

- «خنقتنا» . . أطفئ سيجارتك ، ابناؤك يلتفون حولك ألا تخجل من نفسك؟

- ابتعدي !

- لن أبتعد حتى تطفئ ما في فمك من حريق ، «عساك تحترق في جهنم»

كانت ردة فعل والدي ليست مستغربة حينما رمى فنجان الشاي الساخن بوجه أمي . . يتبع ذلك شتائم لا تعد ولا تحصى وأدعية كثيرة تخص جانب اللعن! حينها احترق وجه أمي جزئياً بشكل مؤقتٍ جراء الشاي الساخن . . حين بدأ الشجار حملني أحد إخوتي من فوق الكراسة وفروا جميعًا هاربين نحو مكان آمن بعيداً عن عين والدي إلا مريم . . أخذت تصرخ وتستنجد وهي تمسك والدتي نحو المطبخ لوضع كيس من الثلج على ما حرقه والدي من وجهها! لم أبكِ حينها ، فقط أخبئ جسمي الصغير خلف جسد سلمان وهو يتحسر شبه مرعوب . . وصوت التلفاز يعلو . . ليكمل أبي مشاهدة الفلم وحده . . بقيت أمي بوجه يلفه شاش ابيض لمدة يومٍ كامل! حتى إذا ما رآها والدي استضحك ساخراً!

- «أم سلوم . . تدعين علي احترق في جهنم؟ انردت دعوتك عليك وانحرقت بالدنيا كيف بالآخرة ههههه»

لا أستطيع القول أن أبي قاسي القلب . . لأني لست

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

متأكدة بعد إن كان يملك قلب حقًا لأرى مدى قساوته . . فكل أفعاله تدل أنه خال من القلب تماما . . كما يخلو من المشاعر أيضاً كانت هي مرةً واحدة تلمست فيٍ أبي بضع أمل أن يكون يحمل ولو بالخطأ شعوراً واحداً جميلاً . . يومها كنت أقف في الشارع يتكئ ظهري على جدار منزلنا بجانب الباب . . ويداي خلف ظهري ، ورأسي للأعلى . . عيناي معلقتان نحو السماء وأغني مبتسمة ، حين خرج اختفت ابتسامتي وانقطع صوت غنائي . . نظر إلي طويلاً . . خفت حينها وأيقنت أن هذه المرة سيكون دوري في الضرب أو الشتائم والصراخ فاستعددت لذلك حين مد يده نحوي وأغمضت عيني . . وقتها لم يكن ليضربني . . مسح على رأسي بهدوء ومسك ذقني ليرفع وجهي نحوه . . ظل متأملاً وعيناي متعلقة نحو عيناه العسلية الفاتحة وابتسم لي ابتسامة غريبة وورحل يجر خطاه وهو يضع غترته على كتفه بثوبه الأزرق!

كنت مستعدة لأي شيء منه . . إلا أني لم أكن أتوقع أنه سيكون لطيفاً جداً لدرجة أنه سيمسح على رأسي . . مع أنه لم يؤذني حينها . . إلا أن قلبي كان يضرب بقوة لأني لا أضمن ردات أفعاله أبداً ، لأن المفاجأة تقع حين لا تتوقع الشيء الحاصل أمامك . . هي الشيء الوحيد الذي نادراً ما نستطيع التحكم بتعابيره حين تحدث مفاجأة ما . . كاندهاش تام في تعابير الوجه أو الصراخ الحاد أو حتى نبضات القلب التي تندفع متسارعة جداً . كمثل ما حصل لي مع سيف في السابق ، كنت ألهو بعروسة صغيرة صنعتها لي أمي . . كنت أطلق اسم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

«لولو» لأن عينيها كانتا مركبتين بخرزتين كبيرتين تشبهان اللؤلؤ ، يومها كنت أجلس على عتبة باب منزلنا . . وإخوتي الصغار يتراكضون أمامي . . حينها جاء سيف وقف فوق رأسي ينظر إلي لبضع ثوان :

– أم عيون . . اذهبي لمناداة أخيك صقر

– «مو اسمي ام عيون»

– أم عيون . . اذهبي لمناداة أخيك صقر

– «قلت لك مو اسمي أم عيون . . اسمي لمى»

جلس على قدميه حانيا ظهره نحوي حتى يقترب إلى أكثر :

– أم عيون . . اذهب . . .

أجبته مقاطعة وأنا أدفع به ليسقط

– «ما تفهم يا غبي اسمي لمى لممى»

غضب سيف حين انهزت هيبته عندما سقط أمام إخوتي الصغار وأصحابهم . . سحب من يدي «لولو» وقطع عيناها بيده وأسقطها أرضا ودعسها بقدميه وانتشلها من الأرض ويحمل بيده التراب وألقاها على وجهي والتراب يملؤني . . أطلقت صرخة بكاء حارقة . . على لولو التي لم تعد لولو . . وعلى التراب الذي دخل فيٍ عيني . . وقلبي من دهشته ينبض بشكل لم أعهده يوماً . . كانت فاجعة لي حين قطع عينيّ ابنتي وأبكاني أكثر أن صقراً خرج ليراني بهيئتي . . ليمسكه سيف ويهربان مبتعدين عني وبقيت على حالتي أبكي أنفض التراب عني . . أحاول جاهدة البحث عن عيني لولو بين

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

الأتربة . . وقلبي لم يصدق ما حدث ، تلك كانت هي الفاجعة الأولى لي!

بعـد تلك اللحظة أعلنت الغـضب على سـيف . . والكره المؤبد ، والشتائم التي تلاحقه في كل مرة يحمل حجراً صغيراً ويضربه على نافذتنا ويصرخ منادياً على صقر . . الإمعة! سيف كان يفضل تواجد صقر معه في أغلب حالته . . نظراً أن صقراً كان منذ الصغر عظيم البنية ذو قبضة قوية . . حيث إذا ما احتد العراك أنهى كل شي صقر بقبضة من بيده وبشكل أخص . . كان صقر خادم سيف المطيع! يأمر فيطيع ويؤيده بكل شيء ولأن سيفاً كان الأكثر شهرة في الحي . . ولديه أتباع كثار . . وصقراً ذو شخصية ضعيفة أحب وجود أصدقاء له بعدما كان منبوذاً جداً بين زملائه في المدرسة . . كل منهم يشبع حاجة الآخر للشيء الذي ينقصه . . سيف يحتاج لقوة البنية . . وصقر للأصدقاء ومستعدٌ للتنازل عن كل شيء مقابل أن تبقى مكانته عالية ومهمة عند سيف بالتحديد . .

وكنت من أهدد مكانته عند سيف لأني كثيرة الشجار والعراك . . كل التهم ملقاة على عاتق سيف . . التهم الصادقة منها والكاذبة! بداية من الملابس المتسخة بالطين . . نهاية بالبكاء عند دخولي المنزل كلها تقع على رأس سيف! ولم يكن أحدٌ كناصر ينصرني ويشفي غليلي منه يوم يتقاطر الطين من فستاني الأحمر الجديد . . خفت من أن تضربني أمي حيث أنها منعتني من ارتدائه قبل الخروج وأصررت على ذلك بدافع التباهي . . وحذرتي مراراً ألا يقع عليه شيء لكنني نسيت كل

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

التهديد والوعيد الذي أطلقته أمي لي بشكل صراخ قبل الخروج . . حين رأيت فتيات الحي يلعبن مرحبات بي كضيفه جديدة . . فكرت بتبريرات كثيرة قبل الدخول وأي كذبة ستصدقها أمي لتمنع عني الضرب والتوبيخ! لم يكن أحدٌ سوى سيف سيحمل هذه المهمة! تباكيت حتى بكيت . . ودخلت المنزل دموعي على وجنتي وأتصنع الخوف . . كان ناصر كعادته في المنزل

- وش فيك ليه تبكين؟

تعالى صوت بكائي لأجيد كذبتي المختارة بعناية

- «سيف ولد ابو متعب . . طقني وخرب فستاني»

غضب ناصر بحمق :

- ما بال ابن أبي متعب؟ لم يفعل بك هذا؟

رفعت كتفي للأعلى تعبيراً عن جهل الأسباب . . نظرت أمي إلى من داخل المطبخ

- أخبرتك قبلا يا «بنت ابليس مالك الا رايك» كفي عن البكاء واذهبي لتغتسلي . . .

بكائي كان كافيًا لأمي أن تمنعني عن العقاب . . لأنها بكل الحالات حين تعاقبني سنصل سوياً لمرحلة البكاء فتتركني! وضرب سيف بحد زعمي . . كافيٌ أن يعاقبني حين لم أسمع أوامرها بتغيير ملابسي قبل الخروج ، حين ذهبت لغرفتي منتشيةً بالنصر الذي يلوح في عيني سروراً . . تنفست الصعداء . . وضرب الحجر الصغير أحد نوافذ المنزل . . ليتعالى صوت سيف المتهم ظلماً :

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

- صقر يا صقر . . صقر

خرج له ناصر ليعاقبه على فعلته الشنيعة بي ، وأسقطه أرضاً!

كنت أنظر للمشهد بعينين من حب تشعان انتصاراً وانتقاما . . ولّى سيف هرباَ وتلحقه شتائم ناصر وتهديده ووعيده وتحذيره إذا ما حاول يوماً أذيتي . . وذلك كان انتقامي الأول .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٤-

قيل أن في مرحلة ما قبل الموت «الاحتضار» . . تفرغ الذاكرة كل ما احتفظت به طيلة سنين العيش السابقة بشكل شريط ذكريات يمر أمام ناظري المُحتضر بشكل سريع منذ بداية عمر الطفولة حتى وقت الاحتضار ذاته! لوقت وجيز لا يتعدا نصف الدقيقة أتسائل إن كنت يوماً قد أقدمت على ما قبل الموت ومر شريط حياتي التعيسة أمام ناظري وأنا أنازع الموت قبل أن يأخذني! ما الذي سأتمنى من كل ذلك العمر أن يعود لحظة لأقوم بتغير فعل ما عملته أو ما حصل لي؟ أي ذكرى سأختار!

بداية من طفولتي . . إلى أن أتممت ٢٣ عاماً اليوم؟ هل كنت سأختار يوم يهدر الذئب كرامتي . . وينشر أمام الجميع خزيي وخجلي؟ يوم تُسمع ضحكات وغناء بصوت أطفال . . ينشدون متجمعين أمام باب منزلنا بصوت أقرب إلى الصراخ «أنا الذيب بأكلكم» كنت يومها أقف مصطفة وحماستي لا تكاد تاسعني أسمع صوت من كان يمثل شخصية الذئب وهو يردد الألوان . . خوفاً أن يمر على باله لون «الشفاف» فينطقه وأكون ضحية للذئب! كانت اللعبة تمثل أن يقف ذئبٌ ينادي بالألوان . . ونحن نقف أمامه تتقدمنا أمٌّ تحمينا . . وكل من يقف خلف الأم يختار لوناً دون أن يخبر الذئب لونه المُختار ، إذا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

اختاره الذئب سيكون عليه لزاماً أن يفر هرباً ويلحقه . . حتى إذا انقض عليه كان ضحية للذئب ، ويجب على الذئب هنا أن يختار اللون بعناية لأنه إذا لم يجد اللون المختار . . سيكون جوابه «هرب مع الدريشة» ، اختياري لذلك اللون يمثل كوني أتمنى لو أني كائنٌ شفاف هلاميٌ . . لا يُشعر بوجوده . . نظراً لطفلة صغيره لم تتجاوز الثامنة كانت أساليب مقاومتها للحياة البائسة لا تتعدى الأحلام والأماني فقط . . كان يصرخ محسن ابن العم عوض صاحب البقالة الصغيرة «آنا الذيب بآكلكم» وترد عليه ليلى التي اختارت دور أن تكون أم ابناء الحي اللذين يقفون خلفها «وآنا الام بحميهم» ،

وتبدأ اللعبة :

- عطوني المدلل
- خل المدلل لأمه
- اذبحه وأشرب دمه
- ما نعطيك إلا جلدة
- أختار اللون . . . الأزرق

كان سعد أخي الذي يتبعني بسنة ضحية اللون الأزرق ؛ حين بدأ الركض ليلحقه الذئب خفت أن يأكله الذئب فعلاً . . أغمضت عيني بيدي خوفاً أن أرى سعد حين ينقض عليه محسن الذئب! سمعت صوت الأقدام تهرب ؛ لكنها لم تكن أقدام سعد ومحسن وحدهما فحين أزلت يدي من على وجهي الصغير . . كان الكل قد هرب ، وسعد متعلقاً بين يدي أبي الذئب الحقيقي! ويصرخ باسمي منادياً والأطفال يتراكضون

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

خـوفـاً من «ابو سلوم» القـادم من داخل المنزل ، ذهبت إليـه بانصيـاع . . وأطلق عـقـاله بضـربي أنا وسـعـد أمـام الأطفـال جميعهم الذين قد وقفوا مندهشين مستمعين لصراخنا ولصوت شتائم والدي الذي كان يلقي شتائم مختاره ولعائن وسباب .

ويلتفت على الأطفال صارخاً «يا ويلكم لو أشوفكم قدام باب بيتي مرة ثانية» فيولوا هرباً منتشرين تاركين المكان . . لي ولسعد ولأبي وعقاله ، كنَّا بين يديه عصافيرًا تخافُ من الموت لكنهـا راضـخـةٌ له ، لا ندري مـتى يكـتـفي من ضـربنا ، ولا ننصرف حين يتوقف . . حتّى يأذن لنا!

هذا الموقف ، هز كرامتي . . وزعزع ثقتي بنفسي ، أصبحت الفتاة الخجولة أو بالأحرى عديمة الثقة! وهذا الموقف ذاته تبعه مواقف عديدة تشابهه . . باختلاف المكان والزمان والأعمار مع توافق الشخصيات ، قد أنزع هذه الذكرى من ذاكرتي قبل أن يمرّ عليّ شريط حياتي قبل الإقبال على الموت . . فلست بحاجة لذكرى تعيسة تبعتها ذكريات أتعس تشابهها وأنا سأحتضن الأرض وسيلفني التراب وذاكرتي تمتلئ بمثل هذه التعاسات! لكني لا أفكر أبداً أن أنزع شيئاً ما حدث في طفولتي . . لأن مرحلة الطفولة وحدها من كنت فيها أخلق الأشياء السعيدة من العدم . . وأعالج فيها لوعة البؤس التي تشرخ فؤادي . . كحلوى صغيرة يطعمني إياها العم عوض تعالج ندباً بان أثره في جسدي . . فيختفي ألمه تماماً حين أمضغ حلواي . . كلعبتي لولو أيضًا ، كانت تحضنني بحنان حين أبكي خوفاً من الظلام وحدي في غرفتي الصغيرة وتنزع مني رهبة الظلام وأنام

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

مطمئنة . . ضحكات إخوتي كانت تطفئ نار الحسرة في قلبي ، وترسم على شفتي ابتسامة جميلة . . كانت الأشياء البسيطة المخلوقة من اللاشيء تشكل سعادة عظيمة لدي . . حتى إذا ما كبرت لم أعد أرى للأشياء قيمة . . الأشياء الجيد منها والسيئ كمثل أن تأتيني صفعة من قبل أمي مثلاً وأنا في عمر الخامسة عشرة . . أقابلها ببرود تام وأتبع صفعتها بطريقة مشي باردة نحو المطبخ الصغير لأعد لنفسي شطيرة تسد جوعي دون أن ألتفت لأمي وهي تشتمني ، وغير مبالية بألم الصفعة التي احمرّ خدي الأبيض منها . . بآخذ شطيرتي للصالة التي تقف بها أمي غاضبة أمام التلفاز دون أن يكون لصفعة أمي أي اعتبار!

حين جاوزت عمر الطفولة . . وأصبح علي لزاماً ارتداء عباءة سوداء تغطي مفاتن جسدي الصغير . . ومُنعت من اللعب في الخارج مع إخوتي سعد وعمر وفهد . . بل وأيضاً حُرم علي الذهاب وحدي إلى العم عوض! لم أكن أعي كيف أنه لم يعد يُسمح لي الذهاب إلى دكان العم عوض وحدي . . وإن كان للذهاب ضرورة فعلى أحد إخوتي مرافقتي للدكان وصاحبه الذي كان أرحم عليّ من قلب أبي . . للعم عوض في قلبي مكانة لا يعتليها أحد كان لسانه لا يكف عن ترديد ذكر الله . . والصلاة على رسوله . . يفتح دكانه الشعبي الصغير منذ بزوغ الفجر! ويجلس على مكتب قديم يحاسب للزبائن . . أو لنقل يسجل الدين على الزبائن . . فدكان صغير يقع في حارة فقيرة لا يجب عليه أن يحسب حساب التجارة والرزق طالما زبائنه لا يملكون قرشاً . . منذ صغري أتخذ العم عوض أباً

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بديلاً . . كونه كان عطوفًا جداً وودودًا أيضاً بيده السمراء يمسح على رأسي مبتسماً حين أتكئ على مكتبه متبسمة ابتسامة يعرف مبتغاها . . ليسحب حلوى من أحد الكراتين المصفوفة على المكتب ويفتحها ويمدها لي . . نفس اليد السمراء أيضاً كانت تضرب وتطرد من تسبب في بكائي . . وأشتكيه والدمع في عيني يجري عما جرى لي فيقف فازعاً يبحث عن المتهم الذي عكر مزاج الطفلة . . العم عوض كان له من اسمه نصيب ، حينما اختاره الله من خلقه عوضاً عن ضيم يرقد داخل قلبي أحيانا . . وبؤس يظهر من عينيَ يأسا ، كنت أجلس فوق مكتبه أساعده في وضع الأغراض داخل الأكياس . . ويناديني مداعباً «الكياسة» . . كون أهلي لا يكترثون إن كنت في المنزل أم ألعب في الخارج . . وظيفتي كـ «كياسة» دامت طويلاً . . منها توطدت علاقتي مع العم عوض وأصبحنا أصدقاء .

حين كان سيف وأصدقاؤه من بينهم أخي –يقف متفرجاً– يلحقون بي ويغنون أغنية شهيرة . . كلمات وألحان . . سيف! ويصفق هذا ويرقص ذاك كنت أبتلع عبرة بكائي حتى أوفر دموعي أمام العم عوض ليقوم بإخراج مكنسة قديمة ويضرب بها من يستطع إمساكه ويجعله عبرة لغيرة . . بيد أن سيف لا يعتبر أبداً مهما كان الضرب مبرحاً . . لأن إغاظتي بنظره تستحق المخاطرة!

«أم عيون يا أم عيون
اخذها واحد مجنون

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

اخذها برا الحارة
على ظهر حماره
والحمارة تبكي تبكي
من ثقلها تشتكي !
ام عيون الهبلة
دمعتها كانت سهله»
. . . إلى آخر الأغنية

من هنا أُطلق علي لقب أم عـــيـــون! كنت أرى هاتين الكلمتين تختصران جميع كلمات السباب والشتم! كون أن سيف من اختار تسميتي بهذا اللقب المقيت . . وكبرت وما زلت أُعرف بأم عيون واغنيتي اصبحت من عادات وتقاليد حارتنا .

حتى كبرت قليلاً ووعيت أن أم عيون لم يؤخذ من فراغ . . أكثر ما يلفت الانتباه بي عيناي! ليستا كبيرتين جداً لكن لونهما العسلي الفاتح يجعل من عيناي شيئاً شاذاً عن أعين الأطفال في حارتنا . . ورثت أنا وأخي فهد لون عيون أمي وأعتقد أني لم أرث لون عيناها فحسب ، بل ورثت منها قلة الحظ أيضاً . . كانت أمي قليلة الحظ فعلاً . . منذ أن خدعها الحظ ليجعلها تظن أنها تزوجت رجلاً كان عشيق الفتيات ، فإذا به مختلٌ مغرورٌ ذو طبع قاسٍ وأحمق . . في البداية حاولت أمي تعليقه بها . . . لكن عيني والدي لم تكن لتملأها أمي . . كان مزهواً بنفسه حد القرف! سيئ الطباع حاد المزاج عكر الجو ولسانه قذر . . فكرت أمي أن وجود أطفال يحملون دمه واسمه

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

داخل رحمها سيفيد معه وينبت له قلباً يخرج من العدم . . لعل إحساس الأبوة يجعل منه رجلاً آخر لم تعتده . . فإذا بسلمان يكون الضحية الأولى للحياة البئيسة ، وتبع سلمان ثمانية ضحايا آخرون . . لا أحد منهم كان من نصيبه اعتدال والدي! تؤلمني فكرة أن تحمل امرأة بكائن حي ينبض بداخلها . . دون استعداد له ، تلده ليُضحّى به كقربان لطلب شفاعة من الظروف والأقدار . . دون أن تكون هي ومن معها مهيئين لتحمل تربية روح خُلقت من نسليهما ، إضافة كائن جديد إلى الحياة لمجرد إحضاره فقط . . ظلم في حقه ، وبهتانٌ في حق العالم . . حياة أخرى نُسبت لروح صغيرة تستحق أن تعيش مستقبلاً زاهراً لا مفاجأً بالأحكام والظروف! لكن أمي لديها مبدأ آخر تردده على أختي مريم في كل مرة ينتفخ رحم مريم بكائن قادم إلى الحياة «كل مولود يجي معه رزقه» ومر على مريم خمسة مواليد . . ولم ترَ رزقاً واحداً يقنعنها بمبادئ أمي .

حين حملت مريم بشيطانها الصغير «محمد» . . اطمئن صدر أمي لمجرد أنها حملت . . أمي لا تزال على قناعة تامة أن الحمل بالأطفال من رجل لا يأبه لأحد . . كفيل باعتداله! ولست أرى أن كائنًا صغيرًا يخرج من مكان أظلم سيكون كفيلاً بقلب رجل كبير من الأسوأ إلى الأحسن . . لمجرد أنه صار ابنه! منذ البداية وهو لم يأبه لا بزوجة ولا بغيرها . . ما الفرق أن أضيف شيئا إلى قائمة الأشياء الشاقة بحد نظر أبي ، طفل صغير كثير البكاء والعويل ، وبحاجة للمال أيضا ، القلوب لا تولد من العدم!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أعقب محمد أربعة شياطين صغار لا يهدؤون ولا يستريحون . . ولا أجد لذاتي متنفساً إلا حين أراهم نياماً مترامين على جنبات البيت الصغير . . حين يهد نشاطهم تماماً وكأنما قد رشوا بمبيد حشري أنهى حركتهم المستمرة طول النهار! في غالبية الصباحات تكون مريم متكئة على كنب الصالة القديم . . ممددة قدميها على الطاولة الصغيرة . . تحمل في يدها كوب شاي أحمر . . وتقوم بصنع شطائر جبن مالح كثيرة ، بينما أمي تخيط ثياب فهد وعمر المتمزقة على عجل أو تحاول إلباس أحد الصغار وهي تصرخ طالبة الاستعجال . . والأطفال يتراكضون من بينهم إخوتي استعداداً للذهاب إلى المدرسة . . أقبع في غرفتي الصغيرة كالعادة أطل من النافذة المطلة على الحارة الصغيرة . . أسرح شعري ، وصوت أم كلثوم يصدح بأغنية «الأطلال» من مذياع والدي الذي سرقته خلسة . . وانا ادندن معها بصوت هادئ

«أعطني حرّيتي أطلق يديَّا
إنني أعطيت ما استبقيت شيئا
آه من قيدك أدمى معصمي
لِمَ أبقيه وما أبقى عليَّا»

كانت أفكاري مستلهمة جداً مع صوت أم كلثوم ، ناظري معلقٌ بالسماء ويدي تعبث بشعري والأخرى أتوكأ عليها . . أطلق من صدري تنهيدة بشكل زفير طويل ، أسمع صوت سيارة صقر تحاول أن تستيقظ من الموت الذي يصيبها كل يوم . . فتسعل بشكل قوي علها تستعيد حياتها . . وبعد

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

محاولات عدة ينجح صقر في إحياء تلك الخردة وهو يلعنها ست آلاف لعنة . . أغلق النافذة بسرعة ، يتبع ذلك المذياع . . ألملم شعري على عجل أنتعل حذائي الرياضي البالي ، وأحمل حقيبة الكتفين المتوارثة عبر الأجيال أنطلق خارجة من غرفتي أحمل بيميني عباءتي الحرير . . تسبقني أمي إلى خردة الحديد البيضاء وهي تمسك أحدهم بيديها تجره جراً . . نتزاحم جميعًا في السيارة الصغيرة . . أمي في الأمام أنا وباقي المشاغبين الصغار نتكور لأجل أن ينغلق باب السيارة فنصبح كأننا سردين في علبة ، علبة سردين منتهية الصلاحية طبعاً . . يبدأ مشوار التذمر الصباحي من جميع الركاب سواي أظل صامتة وأشتمهم سرا ، تنزل أمي لمدرسة الابتدائية . . وينزل سعد وراءها ليجلس في المرتبة الأمامية . . لدى صقر وإخوته مبدأ قوي يؤمنون به! فهم يستعيبون فعلاً أن تجلس أنثى كاملة بجانبهم بينما يقبع في الوراء بضع ذكر! الأحق بذلك مني سعد ذو الشارب الأخضر! حتى إن كنت أكبره سناً وعقلا . . المهم ألا يخون مبدأه الأبله ويجعلني أتقدم ذكراً ما ، بعد ممارسة صقر لدور باص المدرسة العجيب على هيئة سيارة من نوع «كراسيدا» بالية . . يحين دوري لأن يقلني والتذمر مستمرٌ . . أنزل على عجل دائم كي لا يغضب . . بطبيعة الحال متأخرة جداً وهذا ما أفضله طبعاً . . على أن أحضر مبكرة فأُلزم بحضور الطابور الصباحي . . وذلك يوترني نوعاً ما . . أمشي مسرعة خوفاً من أن تلتقطني عينا المراقبة «سهى» فأكون حينها من المعاقبات وقوفاً حتى وقت الفسحة ، لا سيما أن الوقوف يكون

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

على مرأى الطالبات جميعهن . . وذلك طبعاً بعد أن يأخذن نصيباً من التوبيخ . . والمحاضرات اليومية التي تحث على الاهتمام وما يشبه ذلك . . هذه المرة نجوت من عينيها . . مع أنها تمتلك عينين صغيرتين حجماً إلا أنها ترى بعيني نسر يبحث عن فريسة يومه ليقوم بأكلها حيّةً أو ميتة!

من حسن حظي أن الحصة الأولى اليوم تخص المعلمة عائشة . . فهي لا تبالي كثيراً بالطالبات . . والطالبات أيضاً لا يأبهن كثيراً بها ، حصتها بالنسبة لديهم أشبه بحصص الفراغ لكن بشكل رسمي موثق!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٥-

يمشي الفقـير وكل شيءٍ ضـدّه
والناس تغلق مِن دونه أبوابهـا
وتراه مبغوضـاً وليـس بمُذْنب
ويـرى العـداوة لا يرىً أسبـابها
الإمام الشافعي

كان حقاً حين قال كل شيء ضدُّه!

يوم جاءت إلينا أمي تتأوه وتتألم تسمك ظهرها حيناً وترص قدميها حين آخرًا . . وقتها علمنا أن أمي كبرت جداً على عملها كخادمة في مدرسة ولم تعد طاقتها تخدمها لإتمام عملها . . لكنها كانت تقاوم ذلك في كل صباح وتعود للمنزل مهدودة الحال لا تقوى على الحراك . . حاول بعض إخوتي إقناعها عن ترك عملها كفراشة مدرسة . . وأن صحتها أهم من ذلك بكثير ؛ لكنها تجيبهم بالرفض خوفاً أن ينقطع عنها المال فتصبح عديمة الحال والمال! ذات يوم اشتد عليها ألم ظهرها فبقيت حبيسة المنزل لا تستطيع الذهاب ، وبدوري كابنتها كان علي لزاما الجلوس معها أساعدها ، وقتها حضرت إلينا «أم سامي» تحمل معها أقمشة كبيرة ممتلئة بأشياء لم أكد أراها ، ورمتها عند مدخل البيت . . وظيفتها كـ «بساطة» تبسط على

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

ممرات الأسواق الشعبية تجبرها أن تحمل هذا الكم الهائل من الأشياء ، دخلت لتشرب شاي الضحى عند أمي تطمئن عليها بحد قولها . . بعد معرفة الأسباب اقترحت عليها من وجهة نظرها . . .

- أخبرتك مراراً يا «أم سلوم» أن تتركي عملك هذا الذي لم تري منه سوى الشقاء والتعب

- إن حدث وتركته وبقيت هنا أستلقي في المنزل ، من سيتولى الصرف؟ من أين سيأكلون؟

- «الخير واجد» . . أبناؤك الكبار كل واحد منهم في وظيفة معينة وراتبهم الشهري كفيل أن يساعدكم في العيش

- «يا بنت الحلال» إنما هم رجال ومستقبلهم الزواج ، من سيقبل بهم وهم لا يملكون قرشا لأنفسهم؟

- صحيح معك حق ، ثقي بي وتعالي معي ، جربي يوما العمل معي في البسطة إن أعجبك سأساعدك به واجد لك به مكانا ، وإن لم يعجبك فالرأي رأيك والقرار قرارك .

منذ ذلك الوقت قررت أمي أن تحول عملها النبيل من «فرّاشة» إلى أنبل من ذلك بكثير فتصبح «بائعة» وبلفظ أكثر تصغيراً «بسّاطة» . . أي تبسط بضاعتها على شكل بساط . . وتجلس عندها ويشتري منها المارون هناك! في البداية اختارت أمي أن تبيع كتجربة الحلويات القديمة والعصائر الباردة . . حتى إذا ما فشلت في التجربة الأولية . . تكون على ثقه أن بضاعتها ستستهلك من أبنائها شر استهلاك . . لم تعد أمي تتواجد في البيت كثيراً بعد عملها الشريف! كونها تذهب سوياً مع أم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

سامي يومياً منذ طلوع النهار ، وتعود عند الظهيرة لإطعام أهلها . . وترجع بعد ذلك عصراً إلى السوق . . ولا ترجع إلا حين تغلق الأسواق ، تدرجت أمي من الحلويات والعصائر فأصبحت تبيع البراقع وبعض أدوات المكياج الرخيصة من ثم تطورت بعد ذلك فبدأت تبيع خلطات نسائية أجهل مصدرها ومكوناتها ومن أين تستوردها .

أذكر كيف أن أريج صديقتي كانت متخذة عمل أمي كدعابة! أو كموضوع للسخرية علي وتناديني «بنت البسّاطة» وتطلق بعدها ضحكات عقيمة وأبقى مبتسمة ابتسامة بلهاء ، كنت أهاتفها من هاتف المنزل الذي أجّره جراً نحو غرفتي ونتبادل الأحاديث المطولة عن جميع المواضيع الخاصة بنا والعامة ، ذات يوم اقترحت علي أن آتي إلى منزلها . . اقتراحها كان في محله حين وضعت عباءتي وخرجت من المنزل دون أن أخبر أحداً . . متخذة غياب والدتي فرصة للخروج وقت ما أريد . . والمنزل أيضاً كان خالياً في الوقت ذاته ولم يردني شيئاً سوى أن طرقت باب منزل أريج وتدخلني غرفتها الأرجوانية .

***

تستهويني وجوه الغرباء . . أبحث بها عن تفاصيل الحياة التي لم أعشها ، عن ماضي تخلد في ذاكرتهم ولم يبرح . . عن تعابير الوجوه المتجمدة! وحديثهم البارد بلا شعور أجد في الغرباء الكثر حولي ما أبحث عنه ، عن شيء ما ينقصني . . شيء ما يجعلني أستهوي وجوه الغرباء! كل كائن في هذه الأرض ، يُصنف كغريب في أعين أحدهم . . العالم يضج

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بالغرباء الكثر . . يحملون القلوب نفسها باختلاف ما تنبض به ، والعقول ذاتها باختلاف ما تفكر به وأنا الوحيدة الغريبة عن الكل ، عن هذا الكوكب أجمع ، عن هذا العالم ، عن الحياة على محملها . . أو هكذا صنفت نفسي! بينما كنا نعيش على نمطية الفقر ذاتها . . تتكرر الأيام واللحظات نفسها وفي كل يوم أكبر به أكثر أغترب عن الحياة الخاصة بهم داخل غرفتي الصغيرة . . وأمارس الحياة الخاصة بي المتعلقة بصوت أم كلثوم وشادية وأسمهان ، وعبد الحليم كان له النصيب الأكبر . . لم تتعلق حياتي بالأصوات القديمة فحسب . . كانت مليئة بالكتب التي تعدها أمي خراباً للعقل والنفس ومن مدمرات التربية التي تزعم أنها تعبت بها! وما بين الكتب والفن العريق . . كنت أيضاً أستسلم كثيراً للمرآة والفرشاة . . وكثيراً ما أرقص وحدي . . وأكل وحدي ، أمارس جميع الأشياء المقدر أن تكون جميعاً . . وحدي فقط .

كنت أشبه الحلزون الصغير . . منغلقة داخل صدفة صغيرة جداً ، أخرج رأسي لأثبت للعالم غير المبالي إني على قيد الحياة! وأثبت وجودًا لي أيضًا . . لكني أيضاً أحاول عقد صلح مع الحياة ، نافذتي مفتوحة على الدوام . . أطل منها أدندن ما تصدح به مسجلتي القديمة ، أرقب المارّين أمامي وأمارس هواية التحديق في كل شيء . . أشبه الحارس ولست بحارس! وإذا ما جاء الليل أغلقت نافذتي المشرعة واستلهم من الهدوء شيئاً ما . . يجعلني أكتب بلا ملل أكتب وحسب عن جميع الأشياء المتاحة لي كتابتها . . عن عالم آخر لم يعهِ عقلي يوما

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

لكني أكتبه خيالاً ، الكتابة بالنسبة لي . . لا تتجاوز حدود الدفتر الصغير الذي أخبئه داخل درج قديم وأحكم إغلاقه . . وأتأكد من إغلاقه مرات عدة قبل الخروج! ممارسة هذا الفعل ليس لمجرد أني معتادة على الحرص والاهتمام ، بل لأني أعلم جيداً أن أحد إخوتي المشوشين لن يتركني بحال سبيلي ولا بحال غرفتي على طبيعتها . . لابد من أحدهم أن يقوم بفعل يثير حمقي كأن يسرق شريطاً لعبد الحليم . . أو سرقة كتاب ما يكون على سريري لمجرد أني أقرأه ، أو تجر أختي بناتها نحو تسريحتي البالية لتبدأ عملها معهن وتترك الغرفة فوضى عارمة تاركة علي ترتيبها كما كانت! ولا يبرح عن ذاكرتي حين كنت لم أتجاوز الثامنة عشرة . . شكل ياسر حين يقرأ دفتري الصغير السري في الصالة ، وبجانبه فهد يعد بعضاً من الريالات! لم أستطع حينها أن أنطق . . ثار حمقي تماما لكني لا أعرف ردة فعله حين يراني . . هل سيتدرج ويبدأ بي صفعاً؟ أو يختصر الموضوع ويجعل الضرب على عاتق قدميه القويتين لضربي! رفع رأسه وعيناه تعلقت بي لبضع ثوان . . من دون أن تتحرك عيناه أمر فهد بالخروج . . وأمرني بالجلوس مكان فهد الذي علمت مؤخرا أنه هو السارق الصغير . . الذي بايع دفتري وأسراري من أجل بضع ريالات حين أحضره لياسر قائلا «كم تعطيني عليه؟» جلست وبقيَ صامتاً يقرأ ما كُتب ، حاولت أن أبين له أن الحروف القذرة التي تسكن في خواطري وكلماتي ليست إلا محض خيال . . أردت أن أوضح له أن الوصف الوقح والبذيء في أشعاري ليس إلا أوهاما! ووددت لو أني أخبره أن كُل ما

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

كتب من كل الاشياء غير القابلة للذكر والمخزية جدًا في عرف ياسر وفي حياتنا ومجتمعنا ليست إلا حروف لم تكن واقعاً أبداً . . لكني علمت مبكراً أنه لن يصدقني . . فما كتب من أشياء يخجل المرء قراءتها ، صعبٌ هو تكذيب حدوثه!

- ياسر سأخبرك بشيء مهم قبل أن . . .

قاطعني! وارتجفت خوفاً ليس لبرودة نبرة صوته! لكن أيقنت ألاّ مفر من الألم الذي سيلحق بي من ياسر الهادئ على الدوام

- ولا كلمة!

كان يقرأ ويقلب الصفحات وينظر إليّ شزراً حتى إذا جفت عروق دمي يعود ليقلب صفحة أخرى . . . بهدوء قام من مكانه وسحب شعري بهدوء أيضاً ومؤلم بالوقت ذاته ، جرّني نحو غرفته هو وصقر ، ومن حسن حظي أن صقرا لم يكن موجوداً . . أقفل الباب وبدأت بالبكاء قبل أن ينهال علي وابل من الضرب والشتائم التي كانت بنبرة صوت باردة مستفزه! شتمني حتى انتهت جميع مفردات الشتم من هذا الكوكب ، مع أني حلفت له وغلظت الأيمان أنه ليس بواقع لي! لكنه بقيَ يردد «اجل وش عرفك بكل هذا؟» ونهاية كل هذا كانت العاقبة أكثر ألماً من التوبيخ والصفعات التي حاولت أن تجبرني على الاعتراف بالـ لا شيء! حين مزق الأوراق قطعاً صغيرةً جدا ثم وضعها بماء داخل إناء . . وحرّكه جيداً ثم أمرني بشربه! هل كان ياسر ينتقمُ منّي؟ ما زال يذكر شهلاء وخطأ طفولتي ، أبدأ أنتفضُ وتتأرجحُ الكلمات في شفتيّ ، أشعر أنّ

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الهواء لا يستطيع أن يدخل إلى صدري . . لم أكن أعهد ياسر غاضباً إلى هذا الحد ، كنت أجهل أن أحداً ما سوف يكترث لي ، لذلك أعطيت نفسي الحرية المطلقة في كتابة الأشياء القذرة على شكل أدب عربي لأني كنت على ثقة ألا أحد سيكترث . . لكن نسيت أن كتابة أشياء مثل هذه من قبل فتاة تكون أخت لهم! قد تمس رجولتهم المفروضة إجباراً . . لذلك العقاب كان قاسياً . . هززت رجولته وكان الأجدر بي ألا أحاول يوماً أو أفكر أن أستفز أحدهم حتى لو عن طريق الخفاء!

- «ياسر آخر مره والله أتوب . . .»

بصوته البارد يحرك الإناء بأصبعه ويمده نحوي :

- اشربيه !

مسكت الإناء أحاول تجرعه وأبكي بصوت مرتفع . . ملأ الماء بقطع الورق في فمي ولم أكن قادرة على بلعه . . يقف أمامي القابعة بجانب سريره فلا مفر لي من الهرب! ابتلعت الشربة الأولى وأتبعتها بصوت بكاء . . سحب مني الإناء وألقاه على الجدار بغضب . . أمرني بالخروج حالاً قبل أن يفقد سيطرته على ما تبقّى من عقله! لا أعلم مَنْ مِن الطرفين كان يستحق فقدان الأعصاب وجنون العقل وفقدان الوعي ، أنا التي لاقيت الصفعات والشتائم وبمعدتي توجد قطع أوراق صغيرة! أم من فعل لي كل ذلك؟ معادلة ليست عادلة . . لكني بالطبع هربت قبل أن يجبرني على لعق الجدار مثلاً أو قضم الأقلام .

بقيت محتفظة على عادة الهرب حين يأتي ياسر للمنزل . . والاختباء داخل غرفتي حتى حين خروجه لمدة شهر

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أو يزيد ذلك بأكثر! جاءني يوماً يحمل بيده دفترًا ورديًا لطيفًا . . وقلماً مزهرا طرق الباب بلطف ولا يأتي بالحسبان أن من أجبرني على شرب الماء بالورق سيطرق الباب بهذه اللطافة . . حين فتحت الباب بلعت ريقي بذعر ، اعتدلتُ في جلستي وتكوّرت على نفسي لعلّي أحتمي بضعفي!

- ممكن أدخل؟

- لا

ابتسم حتى بانت غمازته اليتيمة بخده اليمين . . وقدم لي الدفتر والقلم وذهب نحو غرفته ، حين فتحت الصفحة الأولى كان قد كتب عليها :

«اكتبي ما شئتِ من الأدب . . لكن بأدب ،

أنا آسف . . .»

أغلقت الدفتر ، ألقيته بجانبي أود لو أمزق أوراقه وأضعها داخل ماء مغلي ويشربه تباعاً ويحترق ، أنا أود فقط ولم تكن هناك فرصةٌ ليتحقق ما أودّه .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٦-

«أرفض أن أمـوت بقلب أحـدهم ، دُون جنازة ، دون شـرخ ، دون ندبة صـغـيـرة . . تخـبـرهُ أني كنتُ هنا»

أفنان عبدلله الحقيل

هذا ما آمنت به أريج ، صديقتي المقربة على حد علمي ، تلك اللعوب جداً كانت تمارس مراهقتها بالطول والعرض وتتجاوز الخطوط الحمراء دون أن يكون لها أي رادع يمنعها عمّا تفعله . . لا تعرف من الخوف شيئا وترى أن ما تفعله يدخل تحت نطاق الحرية الشخصية المطلقة . . ضاربة عرض الحائط مسألة الحلال والحرام ، لم تترك رجلاً إلا لعبت به بين أصابعها قليلاً . . ولم ينجُ شابٌّ من محاولة العبث بقلبه . . ليست جميلة لكنها تجيد بيع الكلام لمشتريه بأغلى الأثمان . . زبائنها المشترين كُثر ، كلٌ يبحث عما ينقصه ليشتريه بحديثها وصوتها ذو البحة الفاتنة . . تشبه أنثى العنكبوت تجيد صنع الشباك بمهارة حتى إذا ما جذبت أحدهم إليها كان ضحيتها بينما هي تستمتع في لعب حياة العناكب السوداء .

غرفتها الأرجوانية كانت ملاذي حين أهرب من المنزل ، متخذة عمل أمي في السوق الشعبي فرصة للهرب . . أجدني

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أكتشف هاتفها الجديد أو حاسوبها ومقتنياتها بعين الإعجاب والذهول . . نصف الوقت تقضيه معي تحكي لي عن هذا وذاك ، والنصف الآخر يكون من نصيب أحد رجالها الكرماء الذين يتكرمون عليها بجود حب وينفقون عليها ما اشتهت لعلها تدرّ عليهم شعورا واحدا يشبع نقصهم ، لا يهمّهم رغم تفاوت مستوياتهم ومراتبهم ما ينفقون ، ما دامَ يحصل في المقابل على «حبيبي» و«اشتقت لك» في نهايَة وبداية كلّ يوم ، ابن الصحراء هذه لا يفقه معسول الكلام ويُسحر به كما تقول ًأريج! لا يمكن لهم أن يقاموا أنثى تتحدّث إليه بنعومة تستميله ، لم يعهد صوتًا قبلها إلاّ أمّه . . لم يقبله أحدٌ من قبلٍ ، لم يبتسم لهُ أحدٌ من قبل ، دائمًا ما تقول أريج أنّ إيقاعهم سهلٌ والتخلص منهم صعبٌ! تتغزل برجل من رجالها المليون . . فأجد نفسي محدقة إليها بعين مفتونة ، وبأذن تسترق السمع استراقا . . كطفلة صغيرة تستمع الى أساطير الحب والغرام بلهفة . . ضحكاتها العالية تجعلني أبتسم معها حتى إن لم أكن أعي ما الذي أضحكها . . اختيارها لكلمات الغزل والحب تخرج زفيري من صدري بقوة وعيني متعلقة بها . . تبتسم ، تقبل الهاتف بصوت مقرف نوعا ما :

- أحبك الله لا يحرمني من صوتك . . . باي

«تغلق الهاتف»

- «وع الله ياخذك شايب النار أقرفني !»

أتضاحك قليلا

- لست مجبرة على الحديث مع «شايب النار»

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

- باعتقادك أني سأحادثه مجاناً؟ أنا فقط أنتظر فرصة سرقة شيء ما ونهبه قليلا . . وأتركه بعدها «الشايب العايب» . . آه يا لمى لو سمعتي صوته وكأنما يخرج من تحت حفرة في القبر!

-ههههههههههه مومياء !

- «الله ياخذه . .الله ياخذه «

قدرة أريج على التحمل والتمثيل تذهلني . . من يتوقع مثلاً أن الفتاة التي أغرقت الرجل غراما وهياما وكلاما ستدعي عليه بالموت بعد الثانية الأولى من إغلاق الهاتف؟

***

المرأة التي خُلقت من ضلع أعوج . . تستطيع أن تجعل الجنة تحت قدميها ، وهي المصنفة من قوارير زجاج شديدة الحساسية ، قادرة على أن تكيد بك كيداً عظيما . . آمنت ان الجنة تحت قدمي أمّي حين رأيتها تلهث بعدما عادت من السوق . . تحاول استرجاع أنفاس قطعت اختناقا ، بعدما عملت بجد لتحصل على لقمة عيش تطعمنا إياها حلالاً ، كانت مريم تسقيها بعض من الماء تحاول تخليصها من العباءة السوداء . . وقتها علمت أن أمي لم تعد تصلح للشغل أبدا فلا طاقة لها لتتحمل أكثر . . لكن لم أكن ابداً أتوقع أني سأُجبر على العمل مكانها . . حتى إن أعلنت الرفض القاطع والاستنكار التام . . تولي عرش «البسطة» مكان أمي لم يكن أول ولا آخر شيء أجبر عليه ، يوم بكيت ورفضي كان علنيا . . جرني أبي نحوه بشده وصرخ بوجهي

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

- أنا لا أقوم بتخييرك واستشارتك ، أعطيك خبراً مسبقا وعليك تنفيذه «ما عندي دلع بنات»!

لم يكن بمقدوري الرد عليه خوفاً منه ، لكني ذهبت إلى غرفتي أكمل مشوار البكاء الذي بدأت به منذ أخبروني أن علي القيام بعملِ أمي ، كان يجب علي أن أريهم قوتي وانهزام ضعفي أمامهم . . حين خرجت عليهم متكئين في الصالة الزرقاء ، عيناي قد تورمتا من الدموع . . لنتفاوض على حل هذه المشكلة ، وانتهى نقاشنا بموافقة بعض طلباتي البسيطة ورفض بعضها وحالت الأمور إلى رضا جميع الأطراف عداي طبعاً ، وكانت من اهم الاشياء المتفاوضة عليها أن لا أترك جامعتي ، وأن موعد عملي يبدأ حين أعود من الجامعة ظهراً . . أستريحُ قليلاً ثمّ أذهب للسوق بعد العصر!

وهكذا أصبحت «بسّاطة» لطيفة . . وحين أقول لطيفة أحاول أن أجد لنفسي شيئا جيدًا في كوني بساطة تجلس في سوق شعبي ذو رائحة مقززة ، في اليوم الأول انزلني صقر ولعله ساعدني قليلاً في فتح الأقمشة المربوطة ورتب معي البضاعة المهولة كنت أنظر إليها من خلف برقعي الوسيع ولم أدرك ما الذي أبيعه للناس أصلاً . . هذه بعض الشراريب ، وهذه بعض ألعاب الأطفال البلاستيكية صينية الصنع . . بعض ألعاب نارية ، وهنا أشياء داخل كراتين صغيرة لم أعطِ نفسي فرصة اكتشاف ما هي! والكثير من الأشياء التي لا أعرف كيف لمكان واحد استطاع تجميع كل هذه الأنواع المتضادة . . لم أعد استطيع الذهاب لأريح وقتما أريد ، لم يكن هنالك فرصة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

للذهاب كوني أجلس منذ العصر إلى ما بعد صلاة العشاء أتكئ على جدار رخامي في السوق الشعبي ، ولا إجازة عمل أستطيع الحصول عليها . . أنا الملكة في هذا المجتمع الرهيب ملكة ترتدي تاجاً من قماش ، مليء ببضاعة رديئة وتمسك به كي لا يقع . . وتمشي متجهة نحو مكان لقمة عيشها التي تأتيها بشق الأنفس . . أنا الملكة التي لا حق لها في إصدار أحكام و أوامر . . لكني ملزومة في طاعة كل الأشياء المفروضة علي إجبارا! كان الجلوس في البسطة فرصةً مواتية لأقلّب كلّ الأفكار التي تخصّني والتي لا تخصّني ، امتكلتُ أفكارًا كثيرَة واستنتجتُ أحاديثًا كثيرة ، حاولتُ تعلّم قراءة الشفاة! لا أحد يقفُ على بسطة باليةٍ إلاّ لو انتبهَ أنّ التي تبيعُ فيها فتاةٌ ذو عيونٍ آسرة! كانٍ صقر يوصلني مع صديقه سيف كلّ يوم . . أنا ملكةً لا أقود السيارة ويتكفل بذلك شخص آخر لأن مًشقة القيادة متعبة جداً بالنسبة لمرأة تشبه الزجاج . . لكن الطبخ والنفخ والكنس والغسل والولادة والتربية لا تدخل تحت نطاق المشقة ، ليس مبدأ القيادة لأني وإن حصلت على حق القيادة في هذا المكان . . لا أجد مالاً اشتري به مركبة أقودها . . لا اجد مالاً لأني أبيع أشياء بالية تحت الشمس وأجلس على أرض رخامية باردة وأتضور جوعا . . ياالله كم أنا ملكة متواضعة جداً!

***

بطبيعة الحال الذي أعيشه منذ زمن وما زلت . . دفعني لحمل مشاعر سلبية تجاه العالم أجمع فنظرة أبي للحياة قد

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

ورثتها عنه وأظنني وأبي نتقاسم الفكرة ذاتها ، أن العمر أعطانا أقل مما نستحق ، لكن أمي دائما ما تردد «الله ياخذ ويعطي» له الحمد والشكر على كل حال ، في قلبي أحمل شعوراً ناقما على الكون . . أكره جميع الكائنات الحية . .عدا الانسان ، ونصف بني البشر مصنفين من قائمة الحيوانات لدي ، لذلك هم يدخلون تحت نطاق الكره الموجه للكائنات الحية . . في الحقيقة أنا لا أحب أحدا سوى نفسي ، وأحمل لأمي حبا ينمو في قلبي ووجد عن طريق الفطرة الإلهية . . ومن حبي لأمي فلأبنائها بعض من شعور الحب هذا . . لكن لست متأكدة ثبوته على مدى الدوام!

يزداد كرهي للحيوانات في كل مرة أستيقظ من النوم ليلاً على صوت نباح كلاب الحارة المسعورة . . أو يتعكر نومي في الصباح بسبب هديل حمامة تصرخ أمام نافذتي . . كلما ازداد صوتها يزداد شغفي في إجابة سؤالي الأزلي «أيٌّ من الحمقى هو ذاك الذي صنف صوت الحمام من الأصوات الرقيقة الجميلة؟» أشتم ابنة جارتنا هديل . . اسمها مزعج جدا مثل صوت الحمامة . قطط الحارة النحيلة كلما رأيت أحدها تموء أمام ناظري . . وتنظر إلي بعينين مخيفتين تجعلني أفر هربا خوفاً من أن تسحرني أو أتنوم مغناطيسيا . . قد خيل لي يوماً أن الحيوانات ستحكم العالم وأن الحكم الأول سيكون من نصيب قطة حارتنا ذات الذيل المقطوع أجدها مؤهلة جداً للاستيلاء على الحكم وبجدارة . . لا أعلم ما هي المؤهلات التي تستحق أن ترشح كحاكمة للعالم كله ، لكني أؤمن بها كمسيطرة تامة

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

على الجميع . . وسيكون خادمها المطيع كلبنا الأعور ، هممم يبدو أن العالم سيكون تحت رحمة قطة نحيلة بلا ذيل وكلب بلا عين . . أظن أن العالم قد يحتاج لذلك . . في الحالتين لا نرى أي تقدم يجعلنا نستبعد حكم الحيوانات!

حين كنت في الثامنة أعطتني جدتي صوصاً صغيراً من حضيرتها خبأته في جيبي وذهبت لمنزلنا ، حين وصلت المنزل وجدته قد مات مختنقا فلم أكن اتوقع أنه سيموت لمجرد أني وضعته في جيب فستاني وجلست على الفستان ، يا لَلصّوص الأحمق مات ضحية تصرفٍ حمقاء . لم أبكِ فأنا منذ البداية لم أحببه . . ولم أحبب عائلته وقبيلته وأمه الدَجاجة وأظن أنه حين مات كان انتقاما غير مقصود لما فعلته أمه بي هي وأخواتها ، يوم دخلت أسرق البيض فبدأوا بالنقر بشكل جماعي وبكائي لم يحضر أحدٌ ينقذني من هذه الورطة!

في الحقيقة أكره الحيوانات الأحياء لكن الحيوانات المقدمة فوق الطبق لها نصيب من الحب في قلبي ، وعلى ذكر الحب . . كان الحب بعيدا جدا عن قلبي المشبع بالكم الهائل من المشاعر السلبية . . لذلك لم أسمح لأحد يوماً أن يسكنه حتى وإن حاول شباب حارتنا مغازلتي قليلا أو العبث معي . . أرى اني غير مؤهلة للحب ، فليس الحب اختياراً وازداد إيماني بانعدام الحب حين أخبرتني أريج ألاّ وجود للرجال العاشقين ، بحد قولها أن الرجل يحبك لمفاتنك . . وإن عدمت لجمال وجهك . . وان فقد فللأشياء توجد بك ولا توجد بهم . . وحين ينتهون من أخذ مبتغاهم الموجود بك على شكل شرف . . سيفرون

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

هربا منك ومن إخوتك ومن قبيلتك كاملة . . . أخبرتني أن علاقتها مع الرجال علاقات تبادلية تعطيهم مبتغاهم وتأخذ منهم ما تريد . . وتنتهي المسألة في إشباع حاجات الطرفين الناقصة والحصول على المبتغى الكامن في نفوس الطرفين . . فهي لا تريد إلا المال وهم لا يريدون الا النساء!

أعتقد أن أريج ورجالها المليون يصنفون كحيوانات ذات عقول قميئة فقط! هل كانت ستغضب أريج إن أخبرتها بتصنيفها كبهيمة الأنعام؟ ما الفرق؟ هي تجتر الكلام المعسول اجترارا وتطعمه البائس الفقير عاطفيا .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٧-

أشعر أن مكاني بين الحدود الفاصلة . . ذاك المكان الذي يوجد به الحد الفاصل بين الأشياء كلها حين يمر الوقت بحركة بطيئة جداً بين النوم واليقظة . . عند دهشة الاستيعاب بين الحلم والواقع ، في الهدوء عند الغروب وانتهاء لحظات النهار . . ووقت الاحتضار ما بين الحياة والموت أشعر فعلاً أن مكاني ليس في الأشياء الواضحة والمعلومة . . نكرة! تسكن الحدود الفاصلة بين الأشياء .

أنا في الحقيقة والواقع نكرة . . لم أعطِ لذاتي اهتماما يوما يستحق التقدير وليس العالم ملزوماً بالاهتمام بي كشيء يستحق الاعتناء به ما دمت لم أمنح نفسي حق الاهتمام بها يوماً . . لكنني وعلى سبيل المراعاة أداري مشاعري أحياناً حين اللزوم ، ولا أعني بذلك المشاعر الإرادية والمحتوم علي مراعاتها فطرياً ، كالهرب من صوت أبي خوفاً . . أو الغضب حمقًا على أمي حين تحاول عرضي كسلعة للزواج والتزاوج أمام أناس لا أعرف من أين يأتون . . ولا سيما الخجل حينما أجلس أمام بضاعة أمي ويأتيني زبائن أشكالهم غير مؤهلة للتواجد في سوق شعبي كهذا ، فائقو الأناقة أستطيع أن اشم رائحة الصابون من على ثيابهم ، أو هكذا خيل لي . .

– هيه بكم هذا؟

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

ازداد احتقاري لنفسي حين ناداني رجل نظيف الشكل بهذا اللقب . . ما جعل صوتي يخفت خجلا ولا يستطيع سماعه ، نظر إلي مطولا وترك ما كان يمسكه وذهب عني أعيد ترتيب بضاعتي من بعد يديه النظيفتين جداً وأشتمه داخل عقلي المليئ بالشتائم!

أنا وبضاعتي المتهالكة لا نشكل أي شيء في هذا العالم . . كما لو أني خطفت وقتلت مثلاً ثم احترقت بضاعتي من خلفي لن يتغير شيء في هذا الكوكب سوى أن احتمالات بكاء أمي لفقداني راجحة . . وغضب أبي على البضاعة المحترقة واردٌ جدا ، أما الكرة الأرضية ستفقد كائنا حياً يقوم بتحويل أوكسجينها لثاني أوكسيد الكربون فقط ، ستستمرّ في الدوران كأنّ شيئًا لم يحدث! هذا هو مجالي في هذه الحياة . . أن أتنفس إلى أن أموت ، المارون من هنا أمامي يرون بضاعتي كما يرونني ، كلنا لسنا شيئاً يستحق النظر أو الوقوف عنده . . ولو أن أحدهم وقف ليشتري فكل همه سيكون سعر ما يشتريه . . لست أطلب من الناس اهتماما ولا غيره ، بل أطلب من المجرة بأكملها إلتفاتة صغيرة جداً يكون مقصدها تغيير مكان عيشي وانتقالي لوحدي فقط في مكان آخر غير هذا المكان المشبع بالهواء الرمادي اللون ، مثلاً ما الفرق لو كنت قد ولدت في مكان ما كالقاهرة ، أو طنجَة أو حتّى باريس التي لا أعرف منها إلاّ إيفل واسمها ، أعيش في مكان صغير وحدي وأتعايش مع هذا العالم بالطريقة المناسبة للعيش دون أن أكون محصورة بأمور تستوجب علي التنازل عن بعض الأشياء ، لا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يوجد فرق في كل الحالات أنا أعيش في الزحام لوحدي ، لا أحد ينتظر مني شيئًا أقدمه . . الفرق أني هنا أجلس أمام بضاعتي ممسكة بقطعة كرتون أحاول جلب الهواء لوجهي المغطى ببرقع وسيع جداً ، وهناك في المكانِ الآخر سأكون في الشارع أرقص رقصةً النقر مثلاً وأمامي قبعةَ صغيرة أجمع فيها النقود من المارين . . هناك العمل أكثر متعة من الجلوس لوقت طوييل وممل جداً هنا بين الشمسِ والرملِ والنظرات الكثيرة .

الوقت طويل جداً بين العصر والعشاء ، أوفر أسلحتي لمقاومة الملل في هذا المكان المزعج . . أحضر معي كتابا خلسة وتهريبا إلى مكان عملي الشريف أقرأه على مرأى المارين وإذا ما جاء أحد للشراء أغلقهُ حتى ينتهي من مبتغاه . . وحين الحادية عشرة أخبئه جيداً في حقيبتي لأنه موعد وصول صقر وصديقه ذو الحاجب المشطوب سيف ، فصقر وسيف متفقان على العمل سوياً ، بأن يحضر سيف بسيارته ذات الصندوق الخلفي الوسيع لحمل البضاعة المتهالكة . . ولجلبي من هذا المكان شديد الإزعاج ونهاية الشهر ياخذ سيف أجراً لنقل البضائع والركاب اليومي . . ينزل صقر يلملم الأغراض داخل الأقمشة نتساعد في ربطها بإحكام يحمل نصفها والنصف الآخر أضعه فوق رأسي ونتجه لـ «وانيت» سيف ، نلقي بضاعتنا الرهيبة في صندوق السيارة . . أركب من الباب الخلفي بصمت مطبق وعيناي لا تتعدا حدود النافذة الجانبية ، يركب صقر في الأمام جانب سيف وننطلق للمنزل . . غالبًا يكون محور الحديث ما بين صقر وصديقه الأحمق بنظري ، لست مستمعة جيدة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

للذي يقولون كل تفكيري يذهب لأشياء أخرى ، كما أنّي أعتقد أنه لا يستحق سيف استماعي ، صوته في الحديث ممل جدا والكره الذي في صغري لم يبرح عن مكانه ، أعتقد أنه نسيني حينما كبرت تماما . . وذلك الأجدر بي أن أتجاهل وجوده تماما حتى وإن لفت انتباهي بصوت غنائه حين يعم الصمت ، صوته جميل حين يغني ، لكني لم أقر بذلك أمام أحد حتى أمام نفسي .

***

اليوم أشعر برغبة عارمة في البقاء على الفراش لمدة شهر أو يزيد! لا رغبة لدي في مواجهة الحياة ليوم آخر . . ولست على استعداد لملاقاة النور ولا تجاوز حدود غرفتي . . تمتلكني رغبة قوية في العودة إلى النوم أمارس الأحلام ، رأسي ثقيل جداً ولا طاقة فيّ لحديث ومعدتي ليست على وفاق تام معي . . . آآه أتمنى لو استطعت تحقيق ما رغبت به . . لكن أمور الحياة المفروضة علي تجبرني على تناسي ما رغبت به والقيام بأشياء أخرى . . تشبه العيش مثلاً بالطريقة النمطية المليئة بالرتابة ، يبدأ ذلك بوجبة أعدها بملل أُشبع فيها جوع المعدة التي لا تسكن أبدا ، أعدّها وفي ذهني بعض الصبية الذين يمرّون مطعمًا صغيرًا بالقربِ من بسطتي لديهم القدرة على شراء «شاورما» ، أعدّ شطيرتي وآكلها إغاضةً لجوعي حين كنت أراقبهم!

ترى كم سيكون العالم مسلياً لو كانت كل الأشياء حية . . لو أن هذا الخبز الذي بين يدي يذهب ويستأذن من

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

علبة الجبن منها شيئاً قليلا . . فتساعدهم الملعقة في ذلك ، وينتهون بشطيرة جبن دون أن أتكفل في إعدادها . . لو أن القهوة تسكب نفسها لي ، والكرسي يزحف نحوي ، وحبات السكر تغطس في الكوب السمين بنفسها ، عندها سيكون العالم سلساً جدا . . ومتعاونا أيضا وتزيدُ عليه بعض المتعة ، سأكتفي وقتها بمصاحبة المرآة سنتبادل الحديث مطولا ، سأتزوج سريري فهو أحق من غيره بامتلاكي ، وسيكون كوب القهوة صديقي المفضل كونه يقضي نصف وقته بين يدي ، ولا سيما القلم الأزرق أيضاً . . ها أنا ذا كونت لي صداقات جديدة سأكون مكتفية بها تماما ، هذا لو حصل ذلك .

هذا اليوم على ما يبدو ظاهره من خلال النافذة عكرٌ جداً . . الغبار قد سدّ منافذ الهواء النقي ولا يستطيع أحد مقاومة الاختناق جراء التراب الكثيف في الخارج . . أهل الرياض عادة لا يستغربون غبارهم فيربطهم بين الغبار علاقة وثيقة أزلية جعلتهم لا يعجبون حين تغيب الشمس فجأة تحجبها حبيبات الغبار . . ويتعاملون مع الأمر بطريقة روتينية ، أقصى ما يقومون به إغلاق النوافذ والجلوس في المنزل لحين انتهاء ما يمر به الجو في الخارج كما أفعل الآن . . أمام التلفاز مستلقية بشكل عكسي قدماي تتكئ على الجدار ورأسي ملقى على حافة الأريكة الزرقاء . . أحتضن الريموت كنترول وأقلب بملل . . أستغل خلو هذا المنزل في احتلال التلفاز احتلالاً . . لم يدم احتلالي طويلا حين دخلت امي يتبعها سلمان وناصر ، اعتدلت بجلستي أرى أمي تولول وتهول ذاهبة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

لغرفتها ، يلحقها ناصر يهدئها وسلمان يجلس بجانبي يتنهد ببطء . . تساءلت عن الكارثة الجديدة هذه المرة؟

– دلال ابنة مريم في المستشفى . . أصابتها الزائدة الدودية فجأة ، ولا نستطيع إيجاد والدها ليأتي بموافقته على إجراء العملية!

– ومن سيقوم بالعملية . . دلال أم أبوها؟

– هنا يجب أن يوافق ولي الامر على إجراء العملية

– حتى لو كانت حالة طوارئ؟

– للأسف!

لا أفهم تركيبة الغباء الموجودة هنا . . ولا الرؤية الشرعية تدعم هذا الجانب ،ليس هنالك نص يستوجب موافقة ولي الامر على أمر طارئ على شفا حفرة من الموت . . لو كان للأمر نظرة شرعية تدعنا نأخذ الحكم أمرا دينيا فنحتسب من أجله! أو لو وجدنا نصا قانونيا يستدعي موافقة ولي الامر في إنهاء قضية ما! لما لزم الأمر أسئلتنا التي تستدعي أجوبة شديدة الأهمية! هذا الموضوع لا يقف عند شرع أو قانون . . لكنني أجهل سر دسّ موافقة ولي الأمر في موت أو حياة دون الاكتفاء بموافقة شخصية من المرأة إن كانت عاقلةً ، وموافقة خطية إن كانت والدة لقاصر . . لكن الأمر ليس بيدي ولا بيد أختي وطفلتها الممددة على فراش أبيض هناك . . حياة الطفلة تقف بين يدي رجل لا يأبه بغير نفسه . . وقوانين المشفى الصارمة لا ترحم أحداً ، الطفلة التي تصرخ وجعاً في أحد أسرتها ليست مهمة بقدر موافقة الرجل الذي يقضي وقته لهوا في مكان ما

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

في هذه الأرض غير مبال لصراخات طفلته ، كما الحال نفسه مع المستشفى فكلاهما لا يأبهان بالوجع ، وحدها مريم التي تبكِي وكأنّي أراها تندبُ حظّ ابنتها وحظّها وتتوجّعُ ولا مُجيب!

تعود أمي إلى مكان جلوسنا تكفكف ما بقي من دموع وجنتيها . . يتبعها ناصر عاقداً حاجبيه يحمل هاتفه يحاول مرتجيا الاتصال بفلاح زوج مريم ، ولا من مجيب ، يحاول سلمان هذه المرة والحال نفسه . . يبدو أن التوتر سيكون سيد هذا اليوم . . مع أني لم أفهم موقف الأب وحده في الموافقة على هذه العملية وكأنه هو من أنجب وحبل بهم جميعا . . ولا دور للأم المكلومة في هذه المشكلة . . إلا إن فكرة الاتصال بأحد إخوة فلاح تراودني عل أحدهم يعرف مكان أخيهم التائه الأحمق! أبديت فكرتي لإخوتي ولاقت استحسانا على غير المعتاد ، وبدأوا بالبحث عن أرقام إخوة فلاح . . أما أمي قد أرهقت تماما وخارت قواها وأخذ النوم موضعه في عينيها خلسة بعد أن سيطر الإرهاق عليها ، يدخل ياسر بعد أن علم بالمشكلة ، ولحسن الحظ أن ياسر يعرف قريباً ما للأخ فلاح . . وأنهى اتصالاته للحصول على رقم ما يخص أحد إخوته القاطن في قرية على أطراف الرياض ، واتفقا سويا على اللقاء في المستشفى عصر اليوم لإنهاء القضية من قبله .

***

أخاف التفكير بأمور سلبية ، أخشى أن تقع بغتة . . أفضل أن تحدث الأمور بطريقة فجائية على أن أعيشها مرتين ! ، مرة

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بعقلي ومرة بواقعي ، فكرة الخوف من الأشياء الطبيعة لدي تشكل عقدة ما بي . . أخاف الاستماع إلى صوت نبضات قلبي أخشى أن تقف فجأةً وأموت سريعاً . . مع أن فكرة الموت ذاتها لا تشكل لي هاجساً مرعبا بقدر صوت نبضات قلبي الحية فإذا ما استمعت إليها يوماً عن طريق الخطأ أفزع قليلا أحاول التفكير بأشياء أخرى غير قلبي ونبضاته . . أكره التفكير بأمور سلبية وحين أقول أموراً سلبية . . لا يعني أني لا أمتنع عن التفكير السلبي بشكل عام . . لكني بوجه الخصوص لا أفكر بالأحداث السيئة التي قد تقع . . كأن تموت أمي مثلاً ، أو أن يحترق بيتنا الصغير ، أو يحاصر الأشباح غرفتي ، لو حدث كل هذا بغتة أفضل من أن تكون ضمن الأشياء التي فكرتُ فيها سابقا . . لو حدثت بعد استهلاكها فكريا . . سيكون أغلب الظن أن قانون الجذب الخاص بالأشياء جذبها الينا . . كوننا عائلة تتصف بالنحس والحظ القليل لابد للأشياء السيئة أن تنجذب إلينا انجذابا ما دمت أفكر بها على هذا النحو . . الأفضل أن أفكر بعرشي الذي سأجلس عليه حينما أحتل العالم ، علّ قانون الجذب يطبق قوانينه الحتمية في الأمور الايجابية أيضاً . . إيجابية بحد نظري وسلبية بحد نظر العالم . . إن حكمت العالم يوماً . . فليس من صالح هذا الكوكب أبدا ، لكن من صالحي أنا . . سأمارس الدكتاتورية بكيد النساء المعروف ، هممم أعتقد أن هذه الحكمة أني لست حاكمة للعالم! وعلى نيتي قد رزقت ببيئة فقر جدباء وحظ لا يرى النور .

عقدة خوفي من الأشياء الطبيعية ما زالت تسكن بي ،

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أخاف الأطفال وهذا الشيء طالما أحرجني في السوق . . عقلي البليد لم يستوعب فكرة أن إنسانا لا يتجاوز نصف طولي قادرٌ على التحدث بطلاقة . . ولا أستطيع أن أخفي فزعي حين يبدأ الرضيع بالتحرك بشكل عشوائي . . ويرعبني منظر الطفل ذو السنين الأولى حين يبدأ في الغناء . . حتى تجاوزت عقدة الخوف من الأطفال حين اقنع عقلي أنهم كائنات ناطقة فقط . . لم أصنفهم بعد في مملكة الإنسان ، حمقاء قليلا لكن لم يدرك أحد ما يدور في عقلي لذلك الكل يجهل أني حمقاء . . حماقاتي تثير السخرية أيضاً لذلك أحتفظ بها لنفسي ولا أبوح بها لأحد حتى ولو لاحظ أحدهم فزعي بموقف ما! سيظن أني مرتعبة من شيء آخر من يتوقع مثلاً أني أتوتر من الطفل الواقف أمامي متعلقا بأمه يبكي يريد أن يشتري أحد الألعاب الموجودة لدي . . يصرخ ، أفزع من صراخه وأقدم له اللعبة بشكل سريع . . تلقي أمه علي بعض الريالات وتذهب . . من يرى ما حصل سيظن أني رحيمة جداً وأن بي من اللطافة ما تجعلني أشفق على الطفل الباكي وأقدم له اللعبة البالية ، أنا مرعوبة من أن صوتا حاداً مثل هذا الصوت يخرج من هذا الكائن صغير الحجم . . يا لقدرة الخالق العظيمة ، منزلي يكتظ بأطفال مريم لكني لم أفكر يوما الاحتكاك بهم حتى وإن حاولوا يوماً العبث معي . . الهرب منهم والدفاع عن خوفي بالغضب على الدوام يجعلهم يفرون مني فرا . . غالبا ما يلزمني هدوئي فشكل بيني وبينهم حاجزا لا يتجاوزونه . . كم أمقت الأطفال . . تلك الكائنات الصغيرة يجب أن تكبر سريعا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

قبل أن أحكم العالم وأتصرف معهم بشكل آخر .

بعد عملي الشريف لم تكن أريج لتراني كثيراً . . كانت الجامعة تجمعنا لتلقي علي وابلاً من الأحاديث الطويلة التي تخص جانب الرجال كالمعتاد وأظل وعقلي نحاول استيعاب ما تقوله أريج وذلك بمساعدة الخيال والتفكير . . فبعض ما تقوله لم أعهِ بعد ولست أظن أني سأستوعبه . . أشياء لا منطقية أبدا وتجاوزت حدود الواقعية لكن رأسي الذي يهتز معها يعطيها انطباعا أني أفهم كل ما تقول وأدرك جيداً كل ما تتحدث عنه ، وهذا الشيء يكفيها ، قالت لي أنها ستزورني في مكان عملي اليوم لاستكشاف ما أفعله وحدي هناك وإن كان بإمكانها مساعدتي في البيع هناك ستساعدني ، ما الذي طرأ على إنسانية أريج لتجعلها تأتي إلى الشقاء بنفسها باسم المساعدة !! لم أعط الأمر تفكيرا لأني ظننت أنها وعودٌ فقط ، لكن ظني كان آثماً حين رأيتها مقبلة إلي وأنا جالسة وراء بضاعتي تحمل بيدها كيسا ممتلئًا . . جلست بجانبي وهي تلهث :

- أريدك أن تذهبي حالاً لتأخذي غرضا من شاب سوف يقابلك في مكان لا يبعد عن هنا كثيرا !

- ولم أنا ولست أنت؟

- أشعر أني لست على ما يرام . . معدتي تؤلمني قليلاً . . .

- . . .!

- سأحل مكانك في البيع هنا حتى تعودي . . . خذي ، بداخل هذا الكيس توجد عباءة جديدة ارتديها بدل عباءتك البائسة .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أقوم بانصياع نحو مسجد النساء ، أبدل عباءتي القديمة الحرير وأستبدلها بعباءة أريج الضيقة جداً . . أضع البرقع على وجهي وأعود إليها ، لم ألفت انتباه البائعات بجانبي ، لم يتخيّلن أنّي سأكونُ بهذه الحلّة يومًا ، لم يلقِ أحدٌ بالاً لي!

- السائق ينتظرك هناك ، وهو على علم مسبق إلى أين سيذهب كل ما عليك هو أن تركبي السيارة فقط ، وعندما تقفين سيأتيك رجل يحمل معه غرضا خاصا بي خذيه وعودي إلى هنا . . الأمر بسيط جداً

- أممم حسنا . . وبعد كل ذلك علام أحصل أنا؟ وماذا سأستفيد من هذه اللعبة؟

نظرت إلي مطولا وعلمت أن طمعي يزداد أكثر حين أيقنت حاجتها لي واستغللتها . . ابتسمت بخبث :

- سيكون من نصيبك خمس مائة ريال

- ألف !

- يا طماعة . . . !

- طماعة مطيعة

(تبتسم)

- اتفقنا لكن يجب عليك أن تخلعي برقع جدتي هذا قبل أن يفر هربا منك معتقداً أنّك أمي . .

ركبتُ السيارة وخلعت برقعي الوسيع وأدخلته في حقيبة أريج التي في يدي . . وقف السائق عند شارع ضيق جداً بعد أن جاوز شارع العليا المزعج . . بجانب أرض فارغة ، يرتجل السائق من السيارة ويقف بعيدا . . أظن أني أستمع إلى صوت

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

نبضات قلبي الآن . . بدأت ابتلع ريقي بذعر ، المرّة الأولى التي أقدم على مثل هذا! لم يكن هناك وقتٌ للتراجع! أُسقط في يدي ، وأسمع صوت خطوات تقتربُ أو هكذا توهّمتُ من فرط خوفي ، ركب شابٌ وسيمٌ بجانبي يحمل بيده كيسًا أنيقًا جداً ورائحة عطره التصقت بي التصاقا . . أغمضت عيني ارتعاباً كردة فعل سريعة . . سمعت صوت قهقهة عالية ففتحت عيني ببطء ولم أحرك رأسي بعد :

- تحاولين إيهامي أنك خائفة؟

- أجاب ساخرًا

- فيما يبدو أنك ممثلة ماهرة لكن مهارتك لا تفوق ذكائي في كشف تمثيليتك؟ ترى كم كان يلزمني من الحظ الوفير لأحظى بمثل هذه اللحظة مع جميلة كأنت؟

- أمم . . .

يبدو أن الرجل قد تورط بي فعلا . . وقد ظن أني خرقاء صماء بكماء «طرماء» ولي حق الاختيار من هذه الاسماء . . لكن الشيء الأكيد الذي ظنه هو أني بلهاء وتأكد ذلك حين حاول مداعبة يدي وصرخت بارتعاب جعله يترك الكيس الأنيق ويفر خارجا من المجنونة أنا . . حين عدت إلى أريج والبرقع على وجهي قد عاد أحمل كيسها المهدى . . غضبت حمقًا علي وألقت عباءتي الحرير علي من شدة الغضب!

- «فضحتينا !»

حينها علمت أن أريج لم تكن مريضة أصلاً ، بل كان دافعها أن أتقمص دورها وأذهب بدلا عنها للقاء بصديقها

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الجديد ، وردة فعلي تجاهه فضحت أمرها وأنهت علاقتها معه . . لم أكترث بكل ذلك أبدا ولا أهتمّ بعلاقتها ولا بمشاعره ولا فضيحتها ولا أياً كان ، المهم أن اتفاقنا بالألف ما زال ساري المفعول ويجب عليها الالتزامُ به وأنا أحق بذلك ما دامت لم تشترط شيئا ولم تخبرني بالحقيقة كاملةً ، تركت ورقتين من فئة الخمس مئة بيدي وحملت كيسها الأنيق وذهبت غاضبة جدا تلعنني وأنا اتفرج عليها بهدوء وتعلو شفتيّ ابتسامة ساخرة . . أضع نقودي في وسط كتابي السري ، وأعودُ لمراقبَة المارّة .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٨-

عش الحياة كما تهوى مغامرة
عشها مخاطرة أو لا تقل عشت
الشاعر زين

بالرغم من إيماني بالقدر ، وأن كل شيء قد كتب منذ أزل في لوح محفوظ ، وسبحانه قد قدر أمور حياتنا بحكمة لا تدركها عقولنا ، لكني مؤخرًا آمنت بالعيش في عمر افتراضي محدد لمحاولات التعايش مع الحياة بكامل الإرادة الممكنة ، فكرة العيش في عمر افتراضي محدد . . عمر أحدده بنفسي واضع لي حداً فاصلاً لهذه الحياة ليكون نهاية عمر مُختار ، أعيش على أساس ذلك لأتجاوز ما يمكن تجاوزه وأعيش بما يمكن عيشه قدر الإمكان ، هي مجرد اعتقاد أن عمرا ما افتراضي سيكون نهايتي وإلى ذلك العمر أنا اعيش بالطريقة التي اخترتها ، لأني رغم ما ذقته من خيبات الحياة ، وقلة الحظ أيضا ، إلا أني شغوفة جدا للعيش قبل النهايات المحتومة والمفروضة . . وأن أعيش حياتي بالطريقة التي صنعتها لنفسي ، ما دامت أن الايام محسوبة بشكل دقيق ، وأن كل صباح يأتي أعلم أن موعد عمري الافتراضي المحدد اقترب إلي أكثر ، كل شيء حينها سيكون به نوع من الشغف للتعامل به على طريقة

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

العيش بـ استمتاع مثلاً . . والتلذذ بكل ما يمكن التلذذ به حياتياً ، هي فكرة مجنونة بالطبع . . لكن أؤمن بها بشكل حرفي حتى وإن كانت بشكل عام سلبية جداً ما دامت تلزمني بالعيش بالطريقة المختارة واضعة أمام ناظري الموت الخاطف! لكني أجد أن العيش على مبدأ فكرة سلبية . . بطريقة إيجابية أفضل بكثير من الإيمان بأفكار إيجابية مع التعامل مع الحياة بنمطية سلبية جدا ، في كل الحالات الغرض من العيش هي فكرة التعامل مع الحياة بالطريقة المفضلة للمرء دون أن يكون تنازل عن الكثير من الأشياء دونما أسباب حقيقة تذكر . . الحياة بجميع أحوالها قصيرة جدا ، بمختلف الطرق لكل منا نهاية! ما المانع أن اختار عمر نهايتي وأعيش قبل ذلك بطريقتي حتى وإن مت قبل ذلك . . فالنهاية هي الخلاص الوحيد .

من هذا المنطلق . . اقتنعت أخيراً أن كل الظروف التي تجبرني على العيش بطريقة مفروضة لن تجعلني أتنازل عن فكرتي في الاستمتاع بالحياة ذاتها . . مهما جار الوقت والزمن ضدي ، المهم أني سأعيش بطريقتي ولكن بظروف محكومة . . وظيفتي المتواضعة جداً كانت ضمن الظروف المقصودة ، لكن فكرة الرغبة بالعيش بالطريقة الخاصة بي ما زالت تلزمني حتى وإن كنت أبيع الأشياء الرخيصة . . ذاك الشاب الذي يأتي بطريقة روتينية إلى محل الذهب القابع يسار بضاعتي ببضعة أمتار . . يرتدي ثوبا أبيضا فقط دون أن يعتلي رأسه شماغٌ أو ما شابه ، صار شخصا باعثا للاستمتاع قليلا . . لأنه كلما مر من عندي رآني ودندن ، على غير العادة أتبسم . . خرج يوماً من

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

محل الذهب الكبير وقصدني متجهاً ، وجب عليه الجلوس منحنياً بما أن بضاعتي تتطلب الانحناء لرؤيتها . . مد يده نحو مسبحة صفراء ذو خيوط برتقالية . . ورفعه نحوي . . أجبته قبل أن ينطق

- سعرها ١٥

نظر إليّ يحاول ألا يبتسم . .

- «عندكم دين؟»

- لا

- اذاً سأجد صرف ٥٠٠؟

علمت أنه يسخر من فقري وبضاعتي . . فردة فعلي كانت سريعة جداً حين سحبت المسبحة من يده وألقيته بجانب إخوته

- لا . . . «توكل»

قام من مكانه مبتسمًا . . . وصار يدندن من جديد وعيناي من خلف البرقع تتبعه حتى عاد داخل محل الذهب وجلس على الكرسي اللين هناك متمددا إلا قليلا . . صارت من عادته اليومية الروتينية المتكررة حين يمر بجانب بضاعتي يلتفت إلي ويسأل متضاحكا

- «ما تدينون؟»

في البداية كنت أتجاهله إذا ما رأيته ماراً من عندي ، أنشغل بأي شيء أو بكتابي الذي بين يدي يظل عاكفا ، حتى مللت يوما من سؤاله المتضاحك المتكرر في كل مره يذهب ويعود من صلاتي المغرب والعشاء لمدة أسبوع أو يزيد . . وضاق

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

صبري من صوته الساخر في السؤال :

- تفضل ولك ما تريد . . .

نظر إلي باندهاش وما زالت الابتسامة تتعلق بين شفتيه . . دنى مني وسحب المسبحة الأصفر ، وصار يلعب به يمنة ويسرة (ما زال يحرك المسبحة بعشوائية)

- اكتبي ديني عندك! حتى إذا ما نسيت أنا ، تذكريني به أنت

- لا تخف أنا لا أستهين بالمواضيع التي تخص جانب الأموال

«ضحك واختفت عيناه من الضحكة العميقة وتوقف عن اللعب بالمسبحة اللعينة»

- التدوين أفضل . . دوني اسمي والسعر المطلوب واكتبي . . فيصل عبدالعزيز . . ١٥ريال

- آها . . فيصل

كتبت ما طلبه على مقدمة كتابي ، وما زال الأخ فيصل قابعاً أمامي يتأمل دينه الظريف بوجه سعيد جداً ويلعب بالمسبحة من جديد . . لا أفهم سر الابتسامة الحمقاء التي ظلت على وجهه ، ما عهدت المتدينين سعداء!

- اكتبي رقمي حتى إذا ما اختفيت عن ناظريك تطالبين بالمال الخاص بك!

نظرت إليه بحمق وأنا أود دفعه بقدمي فيسقط على الأرض . .

- أووه . . أنا احفظ حقوقكِ فقط ، فأنت لا تستهينين

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بالمواضيع التي تخص جانب الأموال . . .

قطع حديثه امرأتان جاءتا من بعيد لاكتشاف بضاعتي الرهيبة ، وذهب من حيث أتى حتى لا يثير الريبة في نفوس المحلات التي بجانبنا وهو يضع مسبحته الصفراء في جيبه ، اسم حسناً اسم فيصل يستحق التدوين في مقدمة كتابي المفضل!

***

تربطني علاقة وثيقة مع الكتب ، أحتضنها احتضان محب . . وأقرأها كما لو أني أقبلها تقبيل العشاق ، تنام بعضها جانبي . . والبعض الآخر ملقا في جنبات غرفتي الصغيرة جداً . . وأمتلك حركة معهودة أمارسها مع كتبي المفضلة . . حيث أني اطوي طرف الصفحة ذات النص الذي نال إعجابي . . حتى إذا ما انتهيت من الكتاب كله يكون قد انطوت نصف أوراقه . . فأشتهي ساعات قراءة نص محبب ما فأقوم بفتح الصفحة المطوية . . وهذا النص المحبب يذكرني بنص جميل آخر في كتاب آخر ، وكل كتاب يجر أخاه . . وأبقى عاكفة على الكتب ويسرقني النوم منهم خلسة ، أراهم أبنائي البارين ، وأساتذتي المعلمين . . وأصدقائي اللطفاء . . عقدت بينهم وثاقا قوي منذ طفولتي ، وقيمتهم في عيني تزداد أكثر نظرا لأني أدفع قيمتهم من مالي الخاص الذي أحصل عليه من مكافأة الطالبة الدارسة في الجامعة الحكومية . . ولا أنسى دور أريج في هذا المجال التي طالما ساعدتني في إحضارها لبعض الكتب الممنوعة هنا بطرقها الخاصة ، مع أنها لا تقرأ من الأدب شيئا لكن إلحاحي عليها يفيد في الغالب .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

منذ الحادثة بيني وبين رجل أريج الجديد لم تحادثني مطلقاً ، ولست أعلم إن كانت غاضبة مني أم لا ، ولست أظنها غاضبة ما دامت تملك غير هذا الرجل مليون رجلٍ . . أظنها تنتظر مني اعتذارا يعيد إليها كرامة كبريائها المهزوز . . حسناً اعتذار بسيط سيعيد علاقتنا وسأستفيد غالب الأمر . . لبست عباءتي وحملت حقيبتي وهممت بالذهاب إلى منزلها بطريقة مفاجئة . . قبل أن أقصد الباب عطفت على صالتنا الزرقاء حيث يجلس أبي وحيداً ينفث سيجارا ويستمع إلى مذياعه بإنصات .

(بصوت خنقه الدخان)

- إلى أين؟

ما عهدت أبي يوماً اهتم لحالنا ، إلى أين سنذهب أو متى سنعود . . ما الذي طرأ عليه اليوم ليسأل! أعتقد أنها بداية حرب قادمة من أبي . . وبارقة الحرب تلوح من سؤاله المستفتح بنية أخرى ، فهو لا ينتظر جوابًا :

- سأذهب لصديقتي . . س س . .سأستعير بعض أغراضها لإتمام دروسي

- دروسك!

- أقصد بحوث الجامعة . . فلست أمتلك جهازًا ولا «انترنت»

- هممم هممم . . . لا فائدة من كل ذلك ، كل ما تقضينه من وقت مع «دروسك» سينتهي كل هذا حينما يأتي أحد ما ذو مال لخطبتك ويتم أمر زواجك بأسرع حال

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بدأت الحرب ولابد من الاستسلام الآن . . والخضوع تحت القوه الغاشمة . . خيرٌ من المقاومة العنيفة مع يقين الهزيمة! :

- حسناً . . . أستأذنك سأخرج

ينفخ الدخان ويطيل صوت المذياع ، أعرف أن أبي يتمنى لو أن ذريته كلها من جنس الإناث على عكس رجال مجتمعي ، فيزوجنا جميعاً أو بالأحرى يبيعنا بثمن بخس ، بدراهم معدودة ويأخذ نصيبه منا . . فهو من البداية لم ينجبنا إلا لغرض الاستمتاع الأولي! كانت أحاديث أبي مشغلتي طوال الطريق إلى أريج . . حين وصلتها رحبت بي كأن شيئا لم يكن . . ولما اعتذرت كذبا عما حصل بيننا ، أجابت بسخرية

- هههههه «يروح واحد يجي غيره»

وانتهى الحال بي معها أن تخبرني عن جميع ما فاتني من حكايات وقصص وأحداث وروايات وأساطير صارت بينها وبين رجالها المليون !! يبدو أن يومي لن ينتهي طالما أريج بدأت بالتحدث! فرجالها كُثر وطاقتها الكلامية كانت مكبوتة طيلة مدة انقطاعنا وانفجرت بي اليوم .

***

حين عدت إلى المنزل . . كانت الساعة تشير إلى الثالثة عصرا تقريباً ، البيت بحالة استنفار تام . . أختي هنا تلحق أطفالها ، وأمي هناك تمشط شعور بنات أختي ، أطفال يتقافزون حولي . . لكن فهمت من هذا كله أن فلاح زوج مريم قادم اليوم ليأخذ زوجته وأبناءه كما هي العادة . . مريم متزوجةٌ نصف زواج تقريباً . . كونها طيلة شهر أو شهرين أو اكثر بذلك بكثير

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

تسكن هنا ، وإذا ما جاء زوجها أخذها لأسبوعين أو يزيد . . كل مرة تحاول جاهدة تزينهم وتلبيسهم وتعطيرهم ، من أجل أن يراهم والدهم غير المبالي وغير المهتم بأحسن حالهم .

تذهلني مريم بطريقة تفكيرها ، أو لأقل تثير تعجبي بشكل أعجز عن استيعابه! كيف لامرأة مهجورة على الدوام مكسورة الخاطر والجناح ، مهزومة الحال ، عديمة الحظ ، أن تستعيد نشاط خلايا الحياة لديها في ثواني . . كيف كرست كل حياتها من أجل أبنائها الشياطين الخمسة ، ومن أجل أبيهم المتجمد جداً ، كيف لها أن تتنازل عن حقها في هذا الكوكب وتعطيه لرجل لا يهتم ، غريزة الأمومة تدفعها للعطاء من أجل أبنائها ، وأنها ملزومة على التنازل ما دامت أن الحياة فرضت عليها أن تكون أمًا لهم . . لكن زوجها الرحالة ابن بطوطة! لا يستحق ولا بضع نصيب من هذه التنازلات التي تنازلت عنها من أجله ، مع ذلك ما زالت تحاول إرضاءه بشتى الطرق وإشباع كل حاجاته ، سواء صرح بها أو لم يصرح ، دون أدنى اهتمام بها أو شيءٍ يسير منه . . يجعلها تستمر في عطائها له واهتمامها به! منذ البدايةً هي لم تدرك قيمة نفسها في هذه الحياة . . لذلك هو لم يدرك قيمتها في هذا العالم ، هي تعتقد أنها ملزومة بإرضائه وتسير على نهج أمي وجدتي وما قد سبقها من نساء يطعن دون انتزاع حقوقهن الزوجية من أزواجهن ولو انتزاعا . . سواء كانت حقوق مالية ، أم جسدية ، أم معنوية عاطفية ، لذلك فلاح وغيره من الرجال استسلم لهذه الفكرة المسيرة له والمناسبة تماما لراحته ، لم يستوعبوا بعدُ أن الزواج مشاركة في كل

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

شيء . . وأن الزوجان يشتركان في حياة واحدة وهما الاثنان ملزومان بمقاسمة كل الأشياء الناتجة عن هذا الزواج بداية بتربية الأبناء وطريقة عيشهم نهاية في إشباع رغبات الطرفين . . . لكن مريم لم تع ذلك!

يدق الباب . . تصرخ مرَيم :

- فلاح جاء !

يترتب الأطفال بطريقة روتينية خلف أمهم التي تحاول ترتيب شعرها المسرّح بعناية ، تستبق الباب وتلحقهم أمي بعطر رخيص أخذته من بضاعتها . . ترش عليهم العطر ذاته ويتوجهون نحو الباب! ثم نحو مجلس الرجال يحدث كل هذا وأنا مستلقية على الأريكة أراقب ما يحدث ، في يدي علبة كولا زجاجية أخذتها من أريج ، تنظر إلى أمي فتتنهد بملل :

- «توك تجين؟»

- منذ وقت وأنا هنا ، لكن انشغالك بمريم وأبنائها منعك عن الانتباه لدخولي

- أين كنت؟ عند أريج؟

أومئ برأسي بالإيجاب دون أنظر إليها ، ألتقط الريموت كنترول وأغير القنوات ، فتسحب الهاتف لتتصل بأم سامي تتابع آخر أخبار نساء الحارة معها ، لا أحاول التركيز معها حيثُ ذاتُ الأحاديث ومحاوره تتكرر! لا أدري متى بإمكانهنّ اختلاقُ حديث جديد!

أشاهد التلفاز بملل ً أبحث عن قناة واحده تبث شيئا قابلاً للمشاهدة ، كأن جميع القنوات اتفقت على بث كل الأشياء

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

السيئة في وقت واحد ، هذا مسلسل فيما يبدو أنه سيضيع وقتي قليلاً . . حسناً هذا المطلوب شيءٌ ما لإضاعة الوقت . . لينتهي اليوم ويأتي بعده الغد وأبحث عن شيء يضيع وقتي ليأتي اليوم الذي يليه . . وهكذا كل يوم نبحث عن أشياء تضيع وقتنا . . لينتهي يومنا كله ، ويأتينا الغد بفرصة جديدة لممارسة الحياة واستغلال أوقاتها ، لكننا في الغالب نبحث عن شيء ما نتابعه نعلم أنه تافه لكن متابعته لغرض الاستمتاع واستغلال مدة عرض ما يتم متابعته لضياع الوقت الذي نمر به! كأن الوقت عدونا اللدود وهدفنا التخلص منه بأبشع وأسهل الطرق المتاحة للتخلص منه!

هذه المرأة الجميلة في التلفاز . . لمَ لم تكن أنا؟ لمَ لم أكن هي؟ لو كانت هنا مستلقية تحتضن ريموتاً بالياً وتحتضنها أريكة قديمة لونها أزرق وتنظر إليّ مثلما أنظر إليها ، وأكون مكانها مرتدية زياً جميلا مثلها ، وعلى عنقي ويدي الكثير من الاكسسوار ، ووجهي ممتلئ بالمكياج . . لو كانت هي هنا تستمع إلى أمي التي ستكون أمها بالطبع وهي تتحدث على الهاتف هل ستفكر مثلي؟ أم ستفرض عليها الحياة ممارسة حياتي وشخصيتي وتفكيري ، أعتقد أنها ستمارس بشريتها وطريقة تفكيرها التي خلقت بها ، لو كانت هذه المرأة الجميلة جداً هي أنا . . وتجلس في السوق الشعبي وراء بضاعة سعرها كامل أرخص من حذائها . . تمسك بقطعة كرتون ورقي تهف بها على وجهها علّ الهواء يشفق عليها ، ويمر عليها أشكالاً وألواناً ويزعجها الرجل النظيف المسمى بفيصل! لو لو . . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٩-

فكرة الموت لا أظنها تبرح عن بال الكثيرين ، فبالتأكيد أحدهم قد تخيل ولو للحظة واحدة طريقة الموت التي سيلاقي بها حتفه ، أو قد فكر في تعايش لحظة الموت التي ستخطفه من على هذه الدنيا حتمًا ، فعلى المرات التي ظننت بها أن الموت موشك لا محالة حين أكون بين يدي أبي يلقف العقال شارعًا في جلدي بهِ ، إلا أنني لم أفكر أبدًا أن طريقة الموت الخاصة بي ستكون أمام والدي وبين يديه ، فأفكاري تجاه لحظات الموت التي قد تباغتني أظن أنها ستكون في حادث سيارة مسرعة ، في طريق مزدحم ، أعيش لحظات الاحتضار . . أستمع إلى صوت المتجمهرين حول الحادث ومحاولات إنقاذ فاشلة لا تنجح في إحيائي من جديد ، قد يكون عشاءً في أحد الطرق السريعة أستمع حينها لصوت بوق السيارات التي تستعجل المتجمهرين بالتحرك . . أما أنا ملقاة علي جانب الشارع ويسترني شماغ متبرع يغطي به دمائي ، أعتقد لو أنه حصل لي ذلك فعلاً وحرفيًا سأتمنى حينها لو أني تخيلت وفاتي بطريقة ألطف من دون ألم . . كأن أموت نائمة مثلاً . . وإن أمّلت أكثر بطريقةٍ للموت فأفضل بالطبع أن أموت ساجدة .

فيمًا يبدو أن أفكاري أحيانًا تتسم بالسلبية المطلقة ، من المفترض وعلى شكل مثالي يشبه التفاؤل أن تلتزم أفكاري

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بحدود إيجابية لا تخرج عن إطار الأشياء الملونة والابتسامات ، لكن لا أعتقد أن الأشياء الملونة تمثلني ما دمت لا أجدها سوى في خيالاتي ، وأفكاري في الخيالات كثيرة ، تخص الجانب الإيجابي بالطبع ، كأن تدور أفكاري حول الجنة ، كيف سندخلها حين يأذن لنا البارئ دخولها ، وهذا يعني أني فكرت بإيجابية فيما بعد الموت لأن الحياة بناظري لم تكتمل بعد! وعلى سبيل التفاؤل . . ما زلت أحاول إكمالها بشغف .

والموتُ حين يهزمُ سور أفكاري ويسيطر عليّ . . أتخيّلهُ يشبه أبي ، هادم اللذات ومفرق الجماعات بالمعنى الحرفي والفعلي ، بمجرد سماع صوته يهربُ الجميع نحو الغرف الصغيرة ، أو يفرون نحو الحارة هربًا ، بالأمس دخل الصالون مشتاط الغضب يشع من عينيه العسليتين المحاطةِ بالحمرة ، عاقدًا حاجبيه ويتنفس بصوت مسموع . . سحب أسلاك التلفاز بيده وكان الضحية هذه المرة أبناء مريم وفهد أخي الصغير ، ضريبة مشاهدتهم لأفلام الكارتون . . ترتفع أسلاك التلفاز عاليًا وتتوسم على ظهورهم بحركات سريعة وصراخ حاد من أطفال كُثر ، صوت السلك يقطع الهواء بشكل رهيب . . لم يكترث هادم اللذات للابتسامات التي ذابت حين سحب السلك وهم منسجمون تماماً ، ولم يهتم مفرق الجماعات للصرخات التي أزعجت هدوء هذا المنزل الصغير ، خرجت أمي مسرعة من المطبخ تحاول سحب ما بيد أبي والصراخ عليه ووابل من الشتائم والسباب المتبادل بين الاثنين ، ومريم استغلت فرصة عراك أبويها ، وسحبت فلذات أكبادها المشوّهين أرضًا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

نحو غرفتي ، أغلقت الباب عليهم واتجهت لجلب مناشف وماء بارد لتكميد ما أصابهم من جدهم .

- «خير وش عندك؟»

- أي خير قد يكون والشر أصله وفصله متشكل في هذا المنزل على شكل زوجة ذات عظام وجلد؟ وأبناء سُذج كأمهم وأحفاد ملاعين يزيدون الصرف أضعافا ، اللهم العنهم جمعيًا فلا بركة فيمن يخرج من رحم شمطاء كأنت .

(تحد أمي نظراتها تحاول أن تمنع نفسها عن الصراخ في وجه الكائن الغاضب أمامها ذو الأعين الحمراء)

- فاتورة الكهرب هذا الشهر مرتفعة جداً ، كيف لي أن أدفعها والديون تركب رأسي وتجلس على كتفي؟ كله بسبب سذاجة أبنائك الشياطين ، وكأني أملك بنكًا خاصًا بي أو حتى بئرًا من ذهب «يرتفع صوت أبي بشكل مُدوي» من اليوم فصاعدًا لا تلفاز إلا يوم الجمعة ، وأتمنى أن أرى المصابيح كلها مشتعلة حتى أحقق رغبتي في تحطيم رؤوسكم بشكل جماعي ومثير للمتعة أيضًا «يبصق على الأرض فيسحب السلك الذي كان ضربهم به منذ قليل ويعلقه على كتفه كسلاحِ معركَةٍ أو دليَل انتصارٍ ، ويتجه نحو الباب خارجا دون اكتراث» .

لا أتمكّنَ من فهم غضب أبي وإثارته حول موضوع الصرف والدفع لهذا المنزل ، فحين يستلم كلن من إخوتي مرتبه الشهري . . فنصف كل راتب منهم يكون بين يدي والدي بكونه هو الوالد القائد والمسؤول ، فيصرفه لنفسه بالغالب وبعض منه يكون لفواتير الكهرب والهاتف ، هذا إن كان هنالك

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

فواتير تلزمه دفعها . . في الغالب لا يدفع إلا اذا احتد الامر فوق اللازم .

***

خرجت لمنزل أريج بعدما أوصتني بإحضار بعض قطع معمول البخور الرخيص من بضاعتي المتواضعة . . وكردٍ لجمائل أريج في كل مرة أذهب إليها أسرق بعضًا منه وأهديها ، لا أظن أن أريج تحب رائحة معمول بخور أمي ، لكنها تطلبه لإخفاء الشبهات المشكوك بها داخل غرفتها . . فهي في كل مرة تشعل سجائرها ذات العلبة الحمراء تقوم بتجهيز المبخرة كي يختلط الدخان النتن مع دخان المبخرة . . وتقوم بفتح النوافذ كي لا يشك أحد برائحة ما تشربه . . حاولت مرة تقليد ما تفعله بعدما مدت لي سيجارًا ملطخًا بأحمر الشفاه . . شربت بأقصى ما يمكنني شربه وبدأت بالسعال المتواصل . . لم أعرف كيف يتم التعامل مع الدخان الذي داخل فمي ، واحترت ما بين بلعه أو إخراجه من فمي بشكل أبله . . لكني اخترت بلعه ، والسعال القوي كاد يكشف سر أريج ،

(تشهق بهلع)

- «فضحتينا» خذي نفسا من أنفك ، حمقاء!

مدت علبة ماء كانت بجانبها وحشرتها في فمي . . انتهت نوبة السعال ولم أفكر بعدها في شرب شيء يشبه السجائر . . ما زلت أجهل سر إدمان شيء رائحته كرائحة أبي . . وطعمه مر ، لا يروي عطشا ولا يُستلذ به!

كانت أريج تدخن بتلذذ . . وتخفي أعقاب السجائر في

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

علب المشروبات الغازية ، ثم تضع فوقها محارم ورقية . . وتخفي كل الدلائل التي قد توقع بها ، حتى أنها من شدة حرصها على إخفاء معالم «الجريمة» تذهب للاستحمام في كل مرة تنتهي من جو التدخين الخاص بها .

أريج لديها مفهوم خاطئ جداً في فهم التمرد وتجاوز الحدود ، تظن أنها تقطع كل الخطوط الحمراء في أفعالها هذه ، لكنها تجهل أنها في كل مرة تتجاوز حداً تبقى خائفة مما فعلت ، متهمة تنتظر الحكم عليها . . هي تعتقد أنها تمارس الحرية ؛ لكنني ما عهدت في الحرية خوف ، أيضًا ليسَ في الحريّة ضررٌ ، ما زلتُ أذكر معلّمةَ مادَةِ التّاريخ حينَ كانَت تقطع وقتًا طويلاً من حصّتها في الفلسفة ، وكيفَ كنتُ أسرحُ ببالي عنها . . ما زلتُ أذكر مقولَة «الحريّة هي فرصةٌ لنكون أفضل» ❋ هل تعتقد أريج أنّها بحرّيتها تكون أفضل ، استرسلتُ في في هذه الفكرَة حتّى قطعت عليّ حبل أفكاري حينَ قالت لي :

- أنا لا يقيدني مجتمع ولا عادات . . أنا أفعل ما أختار واختار ما أريد ، ليس لأحد عليه حق في تقيد حريتي حتى وإن كانت حريتي خارج نطاق كل الأشياء المشروعة اجتماعياً ودينيًا ، باختصار يا لمى . . أنا حرة!

- حرة؟ أنت ما زلت مقيدة ما دمت تمارسين حريتك داخل حدود الخفاء . . وتخفين كل تحركاتك كي لا تنكشف عورة حريتك فيحكم عليها بالموت .

- أنا هنا ميتة لا محالة سواء جاوزت حدود الحرية المحدودة لي أم لا . . أنا بأعين الجميع متهمة تنتظر التبرئة ، لا بريئة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بعين الاتهـام . . مـا دمت في كل الحـالات سـأمـوت دعـيني أمارس كل ما يحلو لي حتى وإن كان شيئا غير مألوف .

- وهل يحلو لك كل ما تفعلينه؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد . . طعم الدخان مر ، وشعور رخص الذات قاتل!

- أنا رخـيـصـة نعم . . لكني أملك كل شيء لم أكن سأجده إلا بعد أن بعت نفسي مقابل ذلك . . . هل نفعك يوماً ثمنك؟ أنت بأعين الجميع مجرد فقيرة بسيطة ورخيصة أيضا

- تختلف معاني الرخص هنا . . .

«تقاطعني»

- لكنها تؤدي لنفس الغرض . . أنا وأنت رخيصتان . . . باختـلاف الأسـبـاب المؤدية إلى الرخص المهم أننا رخيصتـان فعلاً!

- لكني ثمينة بعين نفسي . . بعكسك !

قهقهت ساخرة . .

- حسناً حسناً يا ثمينة . . . هههههه

شعرت بحرارة جسمي ترتفع أود صفعها حقًا ، لكني ضللت صامتةً أعض شفتيّ أنظر إليها تطلِي أظافر يديها الناعمتين وتنفخ عليها وتبتسم خرجت من عندها وحديثها من رأسي لا يبرح «كيف تقرر أريج أننا في مستوى الرخص ذاته؟

***

لكل من اسمه نصيب . . هذا ما لم تؤمن به أمي ، وآمنت به مريم! حين تمت تسميتنا بشكل عشوائي لم تكن أمي لتهتم

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بمعانيها . . لمى تعني الشفاه المسمرة وشفتاي المتوردتان جداً أبعد ما يكونان عن السمار . . أما أخي سعد الذي يتلوني لم أعهده سعيدًا أبدًا ، وناصر أيضا جبان جداً ولا يستطيع نصر نفسه . . لكن مريم خالفت معتقدات أمي على غير العادة ، سمّت أولادها لعلهم يأخذون من أسمائهم نصيبًا . . لكن الأول كان محمد باسم والد فلاح دون إرادة منها بالطبع . . حتى لو أنها هيٍ من حملت به ٩ أشهر! يليه غالية تمنت أن تكون غالية فعلاً . . ودلال آمنت أنها ستدللهم . . وحسان من سيحسن حالهم ، أما الصغير وليد! آمنت أنه سيضل وليداً ولن يكبر أبدا ما دام أنه يحمل ثقبا في قلبه الصغير ، هي على ظن أن ابنها سيموت وليداً ، لذلك لم تستطع أن تتمنى له نصيبًا من اسمه ، فأسمته على واقعه . . وليد ، تؤمن أن ملك الموت يدور حول فراش وليدها . . وفي كل مرة تستيقظ فيها تتأكد من قيد حياته . . وكثيراً ما ترميه بحضن أمي أو خالاتي باكية!

- «وليدي بيموت اقروا عليه»

كان صغيرها فعلاً لا يكبر . . لم يتجاوز الستة أشهر وحجمه أصغر بكثير ، لا يتحرك ولا يتفاعل مع من يناغيه أو من يحاول تحريكه ، رائحته زيت زيتون دائما . . فأمي تدهن جسده الصغير بزيت زيتون قد قُرئ عليه بعض من آيات القران وأدعية الشفاء ، حتى حليب الرضاعة حين يرضعه هم يقرأون القرآن عليه وينفثون فيه ، كان شاحبا جداً ونائما أكثر الوقت . . وأعتقد أنه يخيفني بعض الشيء فلا أذكرُ أني كنتُ على وفاق مع الأطفال ، أحضرته مريم في غرفتي . . فهي على اعتقاد أن

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

غرفتي هي المأمن التام ما دامت مغلقه على الدوام وأحرسها أنا ويمنع دخول المتطفلين فيها ، أقصد الأطفال .

- إنه نائم ، سأذهب مع أمي لزيارة اخواتها وسأعود مبكراً . . انتبهي له من فضلك

- لا أعرف للأطفال

- كل شيء جاهز زجاجة الحليب هنا ، اللهاية هنا ، وأيضاً الحفائظ

- حفائظ . . !! لا تفكري بالأمر خذي مخلوقك الصغير معك لن أتكفل بكائن ذو حفائظ

لم تترك لي فرصة لأكمل استيائي . . ودعتني وهي تغلق الباب وتركت هذه «اللحمة» الملفوفة بلفاف أبيض مستلقيةٌ على سريري! اقتربت منه . . لم اقترب من طفل إلى هذا الحد الذي جعلني استلقي بجانبه وأتأمل وجهه الحزين . . أو هكذا اعتقدت ، يده الصغيرة جداً مغلقة بإحكام . . كأنما احتضن الحياة بين يديه وأغلق عليها بأصابعه الصغيرة جداً محاولاً أن يتشبث ببضع عيش . . وضعت إصبعي داخل بطين يده وشد أصابعه حوله ، أشعر بهول حجمي عند هذا الكائن النائم . . لمست خده بيدي الأخرى وابتسم ابتسامة خفيفة . . كان شعورا غريبا دفعني للابتسام ، لكن رائحة زيت الزيتون المصبوبة فوقه صبًا لم تدع لي فرصة لإكمال مشاعر الخالة وابن الاخت الحانية ، تركته على سريري بجانب الجدار وجلست بجانبه أحاول مذاكرة بعض المواد وألقي عليه بناظري بين الفينة والأخرى .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١٠-

أنا وفصل الشتاء لسنا على وفاق تام ، لم أعهدني يومًا قد رحبت به ، هو الآخر يجيئني مباغتا كأنما ينتقم لكرهي ، وقطرات المطر التي تأتي تطرق السقف باحترام حتى إذا ما وجدت مكانًا لها رحبًا ؛ دخلت عبر ثقوب السقف باستكبار . . ذاك الهواء المرعب يجعل نوافذ بيتنا كأنما ترتعد خوفا وستسقط مغشيا عليها ارتعابا في أية لحظة ، البحث عن سبل الدفء حتى لو داخل كوب من قهوة ، هواؤه مقيدٌ لحريتي التعيسة . . يقيدني بلباس جلف ، يقوم بإرغامنا على الهروب ، نلتجئ لأماكن الدفء ، لمدفأة يتيمة ترقد طول السنة حزينة حتى إذا جاء الشتاء هلعنا إليها كأبناء عاقين عادوا لأمهم التي ضيعوها منذ سنين ، وهي بكلّ عطف الأمهات تنسى عقوقهم!

المدفأة الحمراء الصغيرة قادرة على جذب عائلتنا الكبيرة بأكملها . . نحاصرها كأنّا نخاف من هربها . . ننفخ أيدينا بطريقة روتينية ثم نمدها نحو المدفأة كأنما نطلب منها المباركة على أيدينا الباردة ومنحنا بعض الدفء كهدية ، فوق المدفأة أحيانًا ونظرًا لحالة يدلّ عليها بيتنا بكلّ وضوحٍ يرقد ابريق ممتلئ بالحليب يكونُ عيدًا!

توزعه أمي علينا بفناجين صغيرة كي تدفئ جوتنا ، تحاول أمي قدر ما تملك ألاّ تشعر أجسادنا بالبرد ، مهما بلغ التجمد

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

في دواخلنا ومشاعرنا ، لكن المهم ألاّ يصيبَ أجسادنا شيء من هذا التجمد ، تمد بفنجان صغير نحو ياسر المبتعد عن المدفأة يقرأ كتابًا ، ولأنه ليس يوم جمعة فممنوع أن يعملَ التلفاز بغير الأوقات التي خصصها والدي . . لذلك اكتفى كل منا بشيء يلهيه ، مثل ياسر والكتاب .

- ياسر «وانا امك» سقف غرفة مريم واطفالها يخر من المطر . . يجب أن نصلحه قبل أن ينهار السقف بغتة على رؤوسهم وهم في نومهم!

(يرفع رأسه المحشور في وسط الكتاب)

- «أبشري»

«يعود لحشر رأسه مجددًا»

ألتفت لأمي

- «يمه» غرفتي أيضاً سقفها ممتلئ بالشقوق التي تسمح للمطر أن يدخلها . . .

- حسناً سيتولى ياسر مهمة إصلاح السقوف اليوم . . عليكِ الذهاب للسوق الآن

- بهذا الجو المتجمد؟

- يجب عليك ذلك ، علينا تسديد ديوننا من البضاعة وبيعها كاملة قبل انتهاء الشهر حتى يتم تسديد ما ندين به!

(أتنهد بملل)

تقوم أمي من مكانها لتجهز البضاعة أمام الباب حتى إذا ما جاء صقر وصديقه سيف تكون جاهزة لوضعها في الصندوق الخلفي للسيارة وتوصيلي لمكان عملي ، أتجه إلى غرفتي للبس

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

شيء أواجه البرد به عله يكون درعًا يقيني من هول الشتاء ، أفتح دولابي الذي سقط مقبضه منذ زمن ، أفتّش عن كنزةٍ صوفيّة أتخيّل وجودها ، أبحث بين ملابسي القليلة ما يدفئني في غضب هذا الشتاء ، لا شيء! سيدر أنه مقدرٌ لي هذا البرد ، أن أحتمي بي عنهُ لعلّي أنتصر ، أغلقُ دولابِي مشفقةً عليّ حينَ استمعت إلى بوق سيارة سيف يتكرّر ، يحثني على الاستعجال . . أحمل حقيبتي باستعجال وأرتدي عباءتي الحرير راكضةً نحو الباب . . أرى سيف يجلس على مقدمة السيارة ينظر إلي بتفحص بعينين ساخرتين ، وصقر منشغلٌ بوضع البضائع في الصندوق الخلفي

أمر من أمام سيف وأفتح باب السيارة وأنعكف فيها علني أحتمي من هواء الشتاء داخل خردة سيف ، ويتبعاني بالدخول صقر وصديقه المفضل كالمعتاد يتبادلان حديثا مملا دون أدنى اكتراث مني بما يثرثران ، ويتجه وجهي صوب النافذة ويتعلق ناظري نحو المكان الفسيح الذي نعبره خارجين من حارتنا البئيسة عاطفين على الشوارع الكبيرة . . نمر من العمائر والبنيان حتى نصل لوجهتنا . . ومن بيتنا الى السوق الشعبي الطريق طويل وهذا الدفء الموجود هنا يجعلني أشعر بالنعاس ولا أطمح لشيء في هذه اللحظة فقط سوى لمكان أغمض به عينيّ واحلم . . . أحاول جاهدة فتح عينيّ . . لكن سلطان النوم قوي واستجبت له خاضعة دون أن أشعر .

***

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

- «هيه . . قومي وصلنا»

صوت صقر ذو البحة الخشنة أيقظني من غمرة أحلامي . . حيث كنت أعيش فيها بسلام ودفئ دون فقر يعكر صفو حياتي ولا برد يجعلني أرتعش كما أفعل أنا الآن ، ولا أدري أكانت ارتعاشتي لصوتِه الذي بدا غاضبًا أم للبرد الذي داهمني فجأة ، حاولتُ أن أتخلص من أفكاري سريعًا . . أتحسس برقعي الواسع ، أشد على عباءتي ، أفتح الباب لأرتجل من السيارة ، وقد سبقني صقر لإعداد مكان البضاعة وترتيبها . . أشعر أن عينا سيف المعلقة على مرآة السيارة الأمامية تخترقني . . تقتحم مفاتني التي لا يبدو منها شيءٌ بتلصص . . ينظر إلي كما لم ينظر من قبل ، نظرةً يشبع بها نفسه قبل عودة صقر لملاحظته أو قبل ابتعادي عنه ، رفعت رأسي وعيناي تتجه للمرآة ذاتها . . حواجبه الحادة جدا المشطوف نهاية إحداها ، عيناه الناعستان انغمستا قليلاً داخل وجهه حين ابتسم بسرعة . . أشحت بوجهي عنه وأنا أعقد حاجبي وأتولى عنه بعيدا مع رغبتي الحقيقية في البصق على عينيه .

يذهب صقر وصديقة تاركاني هنا أجلس على سجادة صلاة وأمامي قماش ممدود على أرض رخامية تجمعُ البرد وتحوّله جليدًا ، فوقها أشياء مكومة بطريقة شبه مرتبة . . وهذا الشتاء لا يرأف بعظامي النحيلة ولا بارتعاشي . . امام بضاعتي المتواضعة توجد محلات ذهب كبيرة تغلق أبوابها الزجاجية في الشتاء يمنعون هواء التدفئة الساخن من الخروج والاحتفاظ به لوحدهم . . وعلي يسار هذه المحلات توجد دكاكين صغيرة تبيع

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

الجوارب والملابس الداخلية الشتوية . . بائعوها هنود يجتمعون سوياً في الغالب ويتبادلون أحاديثا بأصوات مرتفعة حاملين بأيديهم شايًا الحليب بأكواب ورقية . . أستطيع الآن شم رائحة الحليب ، الدخان الساخن الذي يخرج من أكوابهم يجعلني أتلمّس رائحة الحليب لا أشمها فقط . . وأبتلع ريقي مع كل رشفة يرشفونها ، حين نظر لي أحدهم ذو شعر أبيض ولحية طويلة بلون رمادي ابتعد عن ناظري قليلا ثم عاد يحمل معه كوبا آخر ساخن ، حين مده إلي وددت لو احتضنته وقبلته . . لكني اكتفيت بابتسامة!

- «شكراً صديق»

ابتسم الشيخ الهندي وعاد إلى دكانه . . ارتشفت الشاي بفجاعة جائعة ترتجف . . ولم أحسس بحرق في لساني ما دام أني استمتعت بثوانٍ من الدفء تجوب جسمي داخلياً . . فكرة الشاي هذه تبدو رائعة وقد أجد فيها مكسبا ، المتجولون المرتجفون هنا كثر ، ويبحثون مثلي عن أي شي قد يحميهم من قسوة الشتاء ، بضع كراتين من الشاي ، وأكواب ورقية لا تكلف شيئا . . لكن سخان الماء عقبتي الوحيدة في هذا المشروع التجاري السري! وحين أقول سري أعني سرَيٌ تماما عن عائلتي فأبيع الشاي خلسة وأسرق ماله وأحتفظ به لوحدي ، لي حق تعبي في البيع هنا . . ما دمت لا آخذ قرشا واحدا جزاء مكوثي ساعات ، سرقة مال الشاي المبيوع فكرة مدرة للمال في هذا الجو القارس!

- السلام عليكم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

صوت رجولي مألوف جدا قطع تفكير مشروعي التجاري الأناني . .

(ينظر الي مبتسما)

- يبدو أنك هذه المرة استهنتِ بموضوعي الذي يخص جانب الأموال

- لقد نسيت أمرك تماما

- نسيانك لي يعني نسيانك لمبلغي الذي أخذته منك سلفاً على هيئة مسبحة

(أجيبه ببرود)

- تدينني بـ ١٥ ريال

يمد نقوده نحوي على ذات الابتسامة ، أسحب منه المال دون اكتراث وأضعه في حقيبتي مُشيحة وجهي عن ناظريه وابتسامته البلهاء ، كان يدور في بالي «متى يذهب لأكمل مشروعي ، أريد أن أرتب أموري أكثر!» لكنّه ظل عاكفا على بضاعتي ينظر إليها بتفحص كأنه يبحث عن شيء أضاعه :

- أتبحث عن شيء معين؟

(يرفع رأسه نحوي مبتسمًا)

- لا . . أتفرج فقط

آخذ نفسا عميقا وأصد بوجهي عنه تاركة إياه يتفرج مثلما أراد . . وأضم نفسي بيدي النحيلتين كمحاولة فاشلة لجلب الدفء ، أشعر أن عيونًا تلتصق بي التصاقا ولا أريد أن ألتفت لأثبت التهمة فتلبسه ولا ينفك عنها ما دامت تصاحبه!

***

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

كـانت لحظة غـريبـة حين تبـادلنا الأدوار أنا وأريج ، وكـان دورها هذه المرة أن تنصت لي أتحدث أنا عن رجل ما . . رجل ما أقصد به ذاك المدين لي! عيناها كانت مندهشتان جداً ليس لأنه مـديون لي بالطبع مع أنه شيء يستـحق الاندهاش عليـه ، وليس لأن ذكـراً ما انجذب نحوي فـهي منذ الثـانوية تعلم أنني مطلب الجـميع وبلاهتي لا تسعني بتحـقيق مطالبـهم ، لكن اندهاشها كان أني لم اتقدم خطوة واحدة للأمام نحو رجل كما أطلق عليـه «نظيف» ، وكـأني حين أطلق عليـه بهـذا الاسم قـد نزهته من قذارة ودناسة الفقر .

- «يا هبله»

قالتها وهي تضرب فخذي بقهر !

- مـاذا تتـوقـعين مني؟ أدعـوه لـعشـاء في مطعم فـاخـر؟ أم أحضره معي لغرفتي الواسعة في قصرنا الفخم؟

- لا تتطلعي بعيداً يا «هبلة» كان الأجدر بك أن تريه ولو تلميحـا واحداً بتقبلك لحركـاته الجريئة ، بينمـا غباؤك المفرط يوضح له نفورك من هذا الوضع وكأنه لم يعجبك الوضع

- في البداية لم يعجبني . . .

قاطعتني

-»مسوّيه فيها الفتاة العفيفة؟»

- أريج . . لا أشعر بشيء نحوه أنا فقط يعجبني موضوع أن رجـلا نظيـفـاً يشعـرني بأنوثتي حين يحـاول استـراق النظر إلي بإعجاب ودونما ملل

- بهدوء يا سعـاد حسني! . . . ليس المهم مشاعرك ، المهم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

مشاعره . . . أن لا تخرجي بخسارة من هذه اللعبة
أعلق ناظري باستغراب أبله ، وتُكمل :
– خذي منه كل ما تحتاجين إليه ما دام أنه لن يقاوم ذلك!
قاطعنا صوت هاتفها وابتعدت وهي تحاول تعديل صوت حنجرتها قبل أن ترد . . . بقيتُ أقلب نصيحتها في رأسي الفارغ ، أحاول استيعاب ما تقوله لكني لم أدرك كيف ، كيف سأكون جريئة للحد الذي يجعلني آخذ منه ما أريد ولا أخسر كما تقول أريج!
أنا التي أردد عليها أني ثمينة بعين نفسي وتجيبني ساخرة في كل مرة ، لا أظنني ثمينة بالقدر الذي يجعلني أتراجع عن هذه الفكرة ، ولا أظنني رخيصة لحد أني سأعمل بنصيحة أريج ، تناقضٌ يجتاحني! أشعر أن شيئا ما يحترق في قلبي وخيالاتي الواسعة تأخذني بعيداً ،لكن الحذر يخمد نار الأمل في قلبي . . . ولا أظنني أملك الشجاعة الكافية للمخاطرة في هذه اللعبة المغرية!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١١-

تؤرقني فكرة التعايش إجبارًا مع أناس معينين لمجرد أننا ننتسب إلى عائلة واحدة ، العيش مع أفراد أسرة مختلفي الشخصيات ، ومستفزو الأسلوب . . ويحتم عليك التعامل معهم بشكل يومي ومتكرر فقط لأنا نملك الأم والأب ذاتهما ، مسألة تحمل صراخ أحدهم ، وتجاهل مراقبة الآخر منهم لك ، وتأمر بعضهم عليك . . ومحاولة تجاوز كل تلك الاشياء ، لأن العيش بينهم محتوم عليك ، ولا خيار لك في الابتعاد عنهم ، وإن حصل ذلك فسيكون نصيبي في التعايش مع رجل جديد آخر بهيئة زوج أكتشفه ثم أبدأ بمحاولات الاستمرار بالعيش معًا . . حتى نتفق أو قد لا نتفق ونتحمل بعضنا كما كنت أفعل مع عائلتي .

مثل تحملي لأخي سعد ذو الشارب الأخضر . . المهووس بالمراقبة يشبه الرادار لكن بشكل أشد وطأة ، عيناه لا تقران في مكان واحد كثيرة الحركة والبحث عن أي شيء ، لمجرد اللاشيء وعلي أنا تحديداً فهو يظنني موقع الإثم وعنصر المعصية المتمركز في هذا البيت . . ينتظر مني هفوة صغيرة وحيدة ليلقي علي أشياء تشبه الشتائم وقد تمتد يده أحيانا ولا من معين . . عائلتي تظن أنه يحميني! وأمي تعتقد أنه يغار علي ، وأخي اللطيف ياسر يحاول إبعاده إن كان مزاجه مناسباً ،

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وأظن أنه يسحبه بيده عن جسدي ليكتفي من صراخي وصياحي .

أذكر كيف كانت ردة فعله حين اشتريت هاتفا نقالا قديما مستعملا يتيما من مكافأتي الجامعية لأكون على تواصل مع زميلات الجامعة بأشياء تخص الدراسة ، كانت ردة فعله مثيرة جداً عيناه قد جحظتا حتى خفت أن تسقط واشتد وجهه احمرارًا من الغضب . . وأسنانه أسمع صرصرتها . . تقدم إلي وهو يلهث كأنه الثور الهائج وتعلقت يده داخل شعري وشده نحوه

- «هاتي الجوال»

كردة فعل طبيعية كانت ردة فعلي هي الصراخ

- من سمح لك باقتناء هاتف خاص؟

(أحاول فك يده عن شعري)

- ياسر أحضره لي ، أبعد يدك عني

يفك يده غاضبا ويدفعني . . يتوجه نحو ياسر الذي كان مستلقيا أمام التلفاز قبل أن يمنع وجوده أبي بالطبع

- أنت من اشترى لها هذا الشيء اللعين؟

(دون أن يلتفت)

- نعم

- هل تعلم من ستحادث؟ وهل تثق بمن سيحادثها؟

- نعم ، زميلات الدراسة

(يزداد صراخا)

- وإن حدث وكان من بين الزميلات رجلٌ ما؟ وبعد الرجل رجالٌ عدة؟ ستكون سعيدا؟

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

كنت أتوقع أن صفعة ما من يد ياسر على خد سعد ستكون كفيلة بإنهاء الحوار . . نظرا لأنه يشكك بي أو حتى يقلل من ثقتهم بي ،لكن صوت ضحكات ياسر بسخرية جعلتني أدرك أنه العكس ، اكتفى ياسر أن ينظر إلي وأنا أقف متفرجة . . نظرة ما ؛ لا أفهمها

- أنا أثق بها . . .

خرج سعد غاضبا يولول ويهوّل وعاد رأس ياسر نحو التلفاز ، كنتُ قد بقيت في مكاني أنظر لياسر بهدوء وعلمت حينها أن موقف النصوص الجريئة التي قد كتبتها منذ سنين لا يزال عالقا في ذهن ذاك الهادئ ، سعد ظلّ غاضباً جداً كوني أحمل هاتفا صغيرا خاصًا بي ، يظن أني قد أكون فريسة سهلة للذئاب البشرية ، ويعتقد أني سأقع بسرعة بحب من يهديني حلو الكلام لأنه بحسب ما يكرره «النساء ناقصات عقل ودين»!

لكن سعد ذو الغيرة لم يقل شيئا حين أُجبرت أن أكون بسّاطة في سوق شعبي يحفني الرجال من كل جانب وأحادث جميع الأجناس والألوان وأبيع هناك لوقت طويل وحدي! بل شجع الفكرة بانتصار وحرص أن أكون بائعة جيدة هناك ، الفكرة ليست فكرة غيرة أو ما شابه إنما محاولات التسلط وفرض النفس من قبل المراهقين ذو الشوارب الخضراء تظل شيئا لعينا يسكن جميع العائلات حتى يزداد شعر شاربه وذقنه معاً أو يلتهي بشيء آخر!

***

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

يمكنني أن أكون ألف ألف شخص آخر غيري وأنا في الحقيقة لا أحد ، أستطيع أيضا قضاء عمر طويل مع أي أحد كما يريد فيما أنا من الجانب الآخر لست فعلا كما يظن ، لأني كما قلت قبلا . . . أنا ألف أحد معتقد ، لذلك لا يجب الوثوق بي ولا بزيفي! حين تظن أمي أني تلك الفتاة الشغوفة بالكتب وتجلس الساعات معتكفة في غرفتها تضم كتابا وتتبعه بآخر ، أكون في الواقع قد هربت خلسة لأريج وأعود خلسة أيضًا ، وتعتقد أريج أيضا أني مهتمة بما تقول عن رجالها المليون بل ومتحمسة لأحداث قصصها الغرامية فأنا على الوجه الآخر أنتظر منها أن تنتهي من حكاياتها وأساطيرها التي تتلفق كذبا أحيانا ، لأستعير أجهزتها فقط حتى لو أظهرت لها حماسة فائقة بتعابير وجهي وردات فعلي المتصنعة جدا ، في الحقيقة أنا أيضا لا أثق بي جداً لأني أعتقد هنالك الكثير من الأشياء والمعتقدات التي شكلتها عن نفسي ، ولم أتحقق من صحتها بعد ، لم أجرب شيئا يجعلني أتحقق من ذلك ، عقدتي من الأطفال الصغار التي أرى فيها أنهم أقزام بشريون يتحركون ويركضون دونما وعي ، انفكت تقريبا حين صار يلازمني وليد ابن مريم أكثر الوقت ، حتى أني صرت ألاعبه أحيانا ، هذا يجعلني لا أثق بجميع معتقداتي عن ذاتي ، مثلما ظننتني قد نسيت سيف تماما إلا أن قلبي يملك حقدًا دفينًا منذ طفولتي يجعلني أتمنى لو أصرخ في وجهه أو أبصق في عينه أو ألكم فكه ، دونما سبب حقيقي يدفعني لذلك ، أو لسبب ما أجهله أظن أن حقدي الدفين يعود مجددا حين أرى عينيه الساحرتين

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

في كل مــرة أذهب للســـوق وأعـــود منه ، مع ذو الحـــاجب المشطوف . . فحين يصمت صقر أو يلتهي بشيء ما يشغله ، بسرعة البرق تتعلق عينان ساخرتان على المرآة الأمامية وتأكلني بنهم جائع ، حاولت مرة كسر عينيه حين ظللت أحدق بالمرآة ذاتها . . لكنه يعرف جيدا كيف يغيظني فابتسم حتى بانت أنيابه وأطلق ضحكة خفيفة تشبه الهمس . . التفت منها صقرا نحوه ، ولأبعد التهمه عني أشحت وجهي بشكل سريع نحو النافذة!

- «وش فيك بسم الله عليك؟»
- ههههه لا شيء ، تذكرت أمرا أضحكني
- «موسوس»

عاد صقر نحو هاتفه يحاول تجربة شيئا ما أجهله ، وعاد سيف للعبة ذاتها وهو يتمتم ضاحكا بلحن أغنية أعرفها تماما . . ولم أنسها يوما بل أنها كانت سبب بكائي المتواصل في طرقات الحارة الصغيرة . . إنها لحن الأغنية ذاتها التي كان قد ألفها بي حين كنت طفلة ، حين بدأ يتمتمها بابتسامة يحاول قدر المستطاع إخفائها . . ألتفت مندهشة نحو المرآة محاولة تخيب ظني بما سمعت . . لكن ضحكته المرتفعة هذه المرة على ردة فعلي المندهشة ، أكّدت لي أنها الاغنية اللعينة البئيسة ذاتها ، وعاد صوت الاطفال في مخيلتي من جديد حين كنت أركض وهم خلفي يغنونها ويعلوهم صوت سيف ، حينما كانت لا تجدي محاولاتي أن أسدّ مسامعي بيديّ الصغيرتين ، ولا دموعي تسعفني ليرحمونِي ، كان اللحاق بي متعةً لهم وأمر

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يكسرون به الملل ، بدأت رغم تمتمته بها أسمعها بصوته الذي أكره :

«أم عيون يا أم عيون
اخذها واحد مجنون
اخذها برا الحارة
على ظهر حماره
والحمارة تبكي تبكي
من ثقلها تشتكي !
ام عيون الهبلة
دمعتها كانت سهلة . . . »

حاولت طردها عن رأسي . . ومحاولة الانشغال بأي شيء آخر ، ونجحت محاولاتي حين وصلنا إلى البيت أخيرا ونزلت مسرعة إلى الداخل تاركةً صقر وصديقة الأحمق يدخلان البضاعة وحدهما هذه المرة!

***

كان يوم الجمعة يمثل إجازتي ، ويا لسعدي حين يحضر يوم الجمعة مزهواً بنفسه ، أستقبله استقبال عاشقة تقطعت بها سبل الشوق ، وأنتظره كما لو كنت أماً تنتظر ، يوم الجمعة كان يوم عيدي وأحتفل به مع نفسي داخل غرفتي الصغيرة جداً وطقوس احتفالي تبدأ مع المرآة . . بيدي فرشاة تتمدد على شعري الفاتح ، والسعادة تخرج من حنجرتي على شكل غناء أدندنه مع صوت المذياع المختلس ، وأحاول مشاركة الغناء مع نجاة الصغيرة حين تقول

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

«يا هادئ الأعصاب إنك ثابت
وأنا على ذاتي أدور أدور
الأرض تحتي دائما محروقة
والأرض تحتك مخمل وحرير
فرق كبير بيننا يا سيدي
فأنا محافظة وأنت جسور
وأنا مقيدة وأنت تطير
وأنا مجهولة جداً وأنت شهير»

في هذه اللحظة تماما استطاع المديون المسمى فيصل أن يخترق عقلي ويسكن تفكيري، كأن نجاة الصغيرة خدرتني بصوتها الرقيق وأدخلته خلسة في كلماتها.. كيف تجرأت تلك الصغيرة أن تقحمه داخل رأسي في هذه اللحظة؟ في يوم الجمعة؟ وأنا التي أستعد ليوم الجمعة لأنسى السوق بمن معه.. كيف اتفق فيصل مع نجاة أن يدخل صوتها أذني ويدخل هو في رأسي الفارغ إلا منه حاليا؟، لنجاة سحر خاص جداً ليس لأنها أقحمت فيصل في رأسي دون أن أشعر فحسب، لأن صوتها كان يحتم علي أن أنسجم تماما، صوتها الساحر مع إحساسها في الغناء هو من جعل الكاتب «فكرى أباظة» يكتب عنها في بداية ظهورها وذلك عندما قال «إنها الصغيرة التي تحتاج إلى رعاية حتى يشتد عودها، وفي حاجة عناية حتى تكبر وهي محافظة على موهبتها، مبقية على نضارتها»، علم الكاتب «فكرى» أنه سيكون لها مستقبلٌ زاهرٌ في اقتحام قلوب البشر بصوتها الزهي، ومقدرتها القوية على

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

إقحام أشخاص آخرين معها . . .

حين استيقظ وليد المستلقي على سريري المتهالك ، صوت بكائه الضعيف قطع انسجامي التام مع نجاة الصغيرة وتفكيري الخالص مع فيصل ، وهرعت إليه أحمله لأمه . . خرجت من غرفتي نحو الصالة الزرقاء ولأنها الجمعة كان قد سُمح بمشاهدة التلفاز لأفراد العائلة التعيسة ، يوم الجمعة لا يشكل سعدي فقط بل يضم سعادة إخوتي أيضا وعلمت هذا حين رأيتهم مستمرين أمام التلفاز تمتلكهم ابتسامة عظيمة تنم عن السعادة حتى وهم يشاهدون مسلسلاً خليجيا مليئا بالصراخ والبكاء والمنازل الفخمة .

مددت إلى مريم المنسجمة تماما ولدها الصغير ، والتقطته مني دون أن تلتفت إلي ، وجلست بجانبها أشاهد ما ينظرون إليه مع محاولات عديدة في فهم المشهد الدرامي المعروض ، وحين فشلت محاولاتي جلست بجانب أمي أحاول تقليدها في ترقيع بعض الملابس أو تضييقها وتوسيعها ، مشهدٌ يذكرني بحالتنا المتواضعة جداً وبقول اقل لطافة ، حالتنا الفقيرة جداً . . الملابس تكون عن طريق الوراثة ، كل شخص يرتدي ملابس كان يرتديها من هو أكبر منه . . وفي كل مرة تحاول أمي تعديل المقاسات وتحسين الرقع! حتى مع فارق السن بيني وبين مريم وأمي فإننا نرتدي أحيانا الملابس ذاتها . . القميص المشجر يدور علينا جميعاً ، إلا تنورتي السوداء الجامعية فهي ملك خاص لا أرتديها إلا في الجامعة فقط ، هي التنورة ذاتها على مر الثلاث سنين الماضية ، وأيضاً بضع قمصان تبرعت لي فيها أريج .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

فملابسي معدودة جداً وليس هذا ما يؤرقني حاليا ، بل أن انعدام الملابس الدافئ منها في هذا الشتاء القارس يجعلني أرتعش بردًا ، وهذه المشكلة قد أجد لها حلا في المنزل حين أتلحف المعطف السميك الخاص بأخي ناصر ، لكن ليس من الممكن أن احضر المعطف ذاته إلى الجامعة فأكون عرضة للسخرية والشماتة . . . أكتفي بأن ارتعش بردًا وأفضل ازرقاق شفتيّ من البرد ، وارتعاد يدي أثناء الكتابة وراء الدكتورة التي ترتدي معطفًا يشعرك بدفئه من بعيد ، أفضل أن أبتسم وأكذب حين أقول «بالعكس ، الجوّ دافئ اليوم» مُكابرةً على أن اكون شيئا يسخرون منه ، هذا البرد لن أسمح له أن يظهر ضعفي ، أبدًا!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١٢-

الندم على فعل خاطئ ارتكبته مسبقاً ، أشد ألما من الفعل نفسه ، حين أقع في الخطأ تلك مرة ، أما حين أندم عليه يكون ضعفه ، لا أريد أن يأتي يومًا اتمنى به العودة للوراء لإصلاح أمر ما ارتكبته عنوة أو دون قصد ، أو تغير ردة فعل صدرت مني في موقف ما ، لذلك الأجدر بي أن أتعامل بشكل جيد في جميع المواقف المستقبلية حتى لا ينتهي بي الحال بالتمني أن أعود للماضي لمجرد التصحيح وحين أقول تصحيح لا يعني أنه قد يكون صحيحًا بالمعنى الحرفي والفعلي ، وإنما صحيحًا لنفسي يرضي ذاتي ولكنه بالأصل والمنطق خطأً جسيم لا يجدر الوقوع به ، كأن أقطع صلتي برحمي دون أن أكون مضطرة لذلك ، لكن حاجتي لإرضاء ذاتي تدفعني للتغيب عن اجتماعات العائلة ، ويجر ذلك الخطأ الذي اخترته بقناعة أخطاء عدة ، حين تغضب أمي من رفضي القاطع في الذهاب معهم لمنزل جدتي ، ويتبع غضب أمي حزن جدتي ، وأكون حديثهم عن عظم خطأ ما فعلته وقررته بقناعة تامة ورضا خالص داخل نفسي ، لكن بالتأكيد لم يرضني غضب أمي ولا حزن جدتي ولا حديث البقية ، إن تنازلت عن رغبتي في فعل الخطأ الأولي لإرضائهم سأكون مخطئة في حق نفسي في سبيل إرضائهم ، وإن عملت عكس ذلك سأكون مخطئة في حقهم في سبيل إرضائي . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

المسألة معقدة جداً ، لكن يبقى الاختيار بحسب الراحة المصاحبة عند اختيار أحد الخطأين ، أنانيتي المفرطة تدفعني لاختيار الخطأ الأول وضرب رضا الجميع في عرض الحائط .

لكن أمي وجدتي ومن معهم لا يدركون معنى عدم راحتي حين أكون محاطة بأناس صنفوا لي كأقرباء ، يتصنعون الحديث وأتصنع الاستماع ، يمثلون الاهتمام وأمثل الامتنان ، ولا أعتقد أن مكاني بينهم لا تجمعنا أشياء مشتركة سوى دماؤنا المنتسبة لعائلة واحدة أو صلة قرابة حدثت دون أن يكون لي خيار في ذلك أو اختيار من أستطيع تقبله ، فلست من النوع الذي يتقبل البشر دون أن يكون لي الخيرة في أمري ، أمي تصنفني كعاقة حين لا أمتثل لمطالبها في الذهاب معها ، اختي فهي متأكدة أني أعاني من الرهاب الاجتماعي ، وبقية إخوتي متيقنون أني لا أمتلك صفات اجتماعية تؤهلني للاحتكاك بالمجتمع ومقابلته ، علاقاتي تنحصر ما بين الكتب وصديقتي وزميلات الجامعة والمسجلة الصغيرة ، ولا أظنني أجد الأمر مضايقاً في اعتقاداتهم عني ، تلك نظرتهم لي أو تلك هي الحقيقة . . لا أستطيع إنكارها ما دمت أتعايش معها بالرضا التام دون محاولات لتخييب ظنهم بي أو بنفسي .

حدث كل ذلك حين كبرت وانفصلت بنفسي عنهم ، وانسلخت عن جميع ما يحاولون صنعه في إبقاء تلك العلاقات الاجتماعية مترابطة على الدوام ، كوّنت عقدتهم الأولى التي تمردت على الخطوط الموضوعة وخرجت خارج الدائرة التي قد أحاطوها ومنعونا من تجاوزها للحفاظ على

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الترابط (الإقماعيّ) القَمْعِي كما أسميه . . حاولوا بالبداية إقناعي ، ومن ثمّ بدؤوا بإجباري . . حتى انتهت سبلهم ومحاولاتهم واستسلموا أمام عنادي وتركوني خارج السرب الذي يخصهم ولست أجد في سربهم الذي يتبعونه أي متعة تجعلني أفكر ولو مرة واحدة اللحاق بهم من جديد داخل هذا السرب ، يكفي في طفولتي أني قضيتها كلها بين هؤلاء الأقرباء ، بلا فخر طبعًا .

***

حين تم عقد نكاح «شهلاء» ابنة خالتي زينة لمساعد ال عاصم ، استبشر الجميع خيرًا حين ظنوا أن سَعد وحظ شهلاء قد وصل إلى ذروته ، فالنسب مع عائلة مثل عائلة ال عاصم كانت سببا وجيهاً لاحتفال كبير يليق بفرحتهم الكبيرة جداً ، مع أني كُنت طفلة حينها إلا أني ما زلت أذكر كيف كان منزل جدتي -بحكم أنه الأكبر والأوسع- مزيناً كأنه العيد في الافلام المصرية القديمة ، الأنوار معلقة من أعلى السطح على أسلاك وتنحدر إلى أن تصل سور المنزل القصير ومضاءة من كل حدب وصوب ، وسجادات فارسية حمراء اللون تم استئجارها قد توزعت بشكل مصفف ، وأمي وخالاتي يحملن مباخرا ذات بخور نفاث يدرن به في أنحاء المكان قبل أن يأتي الجميع ، وقتها ألبسوني أنا ومن هم في مثل سني من الفتيات شكل الفستان ذاته ، أبيض قصير مع حذاء أسود ذو لمعة فاتنة ، كم بهت حين صفّونا بشكل دائري حول شهلاء قبل أن تزف ، كانت دهشتي لا توصف أمام فستانها النافش الطويل ،

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

كان الجميعُ منشغلاً بالحضور وأنا بكل براءة طفولتي منشغلة بـ شـهـلاء! لمعـة عـيني تحكي عن ذهولي برؤية عـروس جـمـيلة مثلها ، ترتدي طرحة زفاف كانت قد غطت بها وجهها الفاتن مع أحمر الشفاه الغامق ، كانت شهلاء بنظري أجمل عروس رأتها عيناي ، حين مشينا معها حتى وصلت إلى مكان جلوسها في ساحة المنزل تحت المصابيح المعلقة فوق السجّادات الحمراء وسط أهازيج وصراخ وتصفيق . . ظلت عيوني معلقة على باقة ورد جوري أحمر تحتضنها شهلاء ، والجميع يرقص ويصفق ، وخالتي زينة حسبتها جُنت إلا قليلا ، فكانت لا تستقر في مكان واحد وكان رقصها يعبر عن فرحتها العارمة بزواج ابنتها من تاجر كـ مساعد ، جدتي بدت سعيدة جدًا وهي تصفق من بعـيـد وخـالاتي مع أمي لا يتوقـفن عن الزغـاريد والطلب من الحضور بأن يصلين على النبي ، يتبع كل صلاة زغرودة طويلة جداً ، الجـمـيع كـان في غـيـر حـالتـه الطبـيـعـيـة وكنت الطفلة الوحـيـدة التي من بعـيـد تراقب العـروس أولاً وتراقب كل تفاعلات زواج شهلاء! لم أكن أفهم السبب كما أفهمه الآن لكني مـا زالت دهشـتي تلك اليـوم تطرأ في بالي وكـأن الزواج ليلة الأمس ، يطرأ ببالي حينما صاحت إحداهن أن العـريس قد وصل ، حين هدأ الجميع وكل استجمع عباءته ليستر بها نفسه ، كنت لا أزال واقفة عيناي تحدق بشهلاء حين طأطأت رأسها خجلا وزوجها مقبلا عليها بوجه متجمد جدا تحفه أمه ذات الظهر الاحدب عاقدة حاجبيها واثنتين من اخواته اللاتي لا يظهـرن سعـيـدات جـداً خطر ببـالي حـينمـا لربما هي وجوه

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

التجار كوجوههم! أنا لم أرى أصحاب نعمة من قبلهم ، جلس بجانبها وهلل الجميع ، أزاح طرحتها عن وجهها وبدأت الزغاريد تعود مجددا وعادت الدفوف تطق والأهازيج بدأت من جديد ، وخالتي زينة وأخوات العريس يرقصن بوسط النساء المحفوفات على أطراف السجاد ، أخذها زوجها . . ولم أرَ شهلاء منذ أن صحبت زوجها منذ ذلك الحين .

أمي تظن أنه لو لم يستعجل أبي على زواج مريم أختي لنالت أيضاً على عريس مثل مساعد ، لكن أبي كان هادم اللذات بالتأكيد لن يترك للجميع فرصة بأن يستلذ بأي شيء ، حتى حين جاء فلاح يخطب مريم كان لوحده لم يأتِ معه أهله وذووه ولم يطلب نظرة شرعية ولم يمهل أحداً ، حين جاء وحيدا أعطى أبي بعض نقود وأخبره أنه سيأتي ليأخذ زوجته نهاية الاسبوع القادم وسيحضر معه كاتب كتاب وشاهدين وينتهي الأمر ، زواج مريم أو بالأحرى بيع مريم لزوجها كبضاعة رخيصة كان شيئا تعيسا جداً لا يقارن أبدا بزواج شهلاء مع أنهن في المرحلة العمرية ذاتها إلا أن أقدارهن متناقضات تماما ، فحين رزقت شهلاء تاجرا من أسرة ذات حسب ونسب ، مريم تعثر حظها بفلاح وحده ذو اسرة قروية تقطن في احد القرى ، أما مساعد كان عريض المنكبين طويل البنية وفي خديه حمرة تظهر من أثر النعمة ، وفلاح جاء سميناً بدينا دميما فكة العلوي متقدم إلي الامام وشفتاه كبيرتان قد اسودت من أثر الدخان ، لا فرق بين شهلاء ولا مريم ، الفرق الوحيد أن شهلاء حظها كان شاهقاً ، أما مريم بطبيعة الحال حظها منحدر أسفل

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

السافلين ، الحظ كان يلعب دوره مع فلاح أيضا فحسناء ناعمة كأختي لا يصح ان تأخذ دميما بدينا مثل هذا القروي في المنطق والعقل ، لكن ما دام يحكمها ولي أمر ظالم مثل أبي ، فلا ينقذها من هول مصيبتها الا شيئان وحيدان ، الأول موت فلاح قبل ولوجه إليها ، والاخر معجزة تتحقق ولم يحدث شيء من الأمرين حتى الآن .

وحده ياسر من لم يحضر زفاف شهلاء ، ضل في المنزل يبكي كباء الأطفال ، ليس لأن شهلاء لم تكن له فحسب ، بل لأنه متيقن أن شهلاء لم تُكن له أية شعور منذ بداية الأمر ، كانت أشواقها ومشاعرها وخيالاتها تصب في نصيب ناصر الذي كان نائما بعمق في الوقت الذي يخط به ياسر أجمل اشعاره وأحسن كلماته إليها ، في البداية ظن الجميع ان شعور ياسر تجاه شهلاء لم يكن الا عواطف مراهقين استنزفها تجاهها وسيتجاوز الامر ، لكن حين اتخذ من الصمت طباعا خاصةً به ، علموا حينها أن في صدره شعور لم يبرح عن قلبه المعطوب من الحب منذ راحت شهلاء لرجل آخر ، حتى بعد سنوات عدة مرت ظل ياسر محافظاً على هدوئه وصمته وسرحانه كأنما زواج شهلاء البارحة ، لم يزل ياسر عاكفاً على فعل الامور ذاتها منذ ان رحلت شهلاء ، حتى وإن كان حبهم لا يستدعي كل هذا الحزن لكن من الواضح أن ياسر قد استنزف كمًا هائلا من المشاعر التي لا تعود نفسها كما خرجت أول مرة مع أول حب ، لأنها حبه الاول أصبح عاجزا عن تعديها ولأن أول الأحلام المغتالة تبقى في الذاكرة لا تغيب ، بينما شهلاء بقيت في

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

ذاكرته وقلبه ، وأجهضتها الأقدار من رحم أيامه وتبنى حبها آخر غيره .

***

ماذا لو لم يكن لي خيار في فرصة العيش التعيس هذا؟ واختارت أمي أن تجهضني قبل أن أستنشق أوكسجيناً حقيقياً في هذا العالم الغير مرحب بي كما يبدو ، لماذا لم تطرأ فكرة الموت على أمي حين حملت بي وهنا على وهن؟ واختصرت علي الطريق لعلمها المسبق عمّا سأحظى به حين أخرج من رحمها ، فيما سبقوني أربعة بؤساء قبلي لم تتعظ بحالهم فأخذتها العزة بالأمل في واقعي وانجبتني؟ مع إدراكها لحقيقة حياتنا المؤسفة ، مع وعيها التام لحالة زوجها وتخليه التام عن دوره كأب لكل هؤلاء التعساء الخارجين من الرحم ذاته ، كم كانت ستنهي معاناة كثيرة لو انها اقتصرت على الإجهاض دون أن تدع لي خياراً لارتكاب فرصة العيش ، لأني لا أستحق العيش تحت وطأة التعاسة مع وفرة الألم مع مشاعر الكره التي تصيبني في الغالب لكل هذا الكوكب أجمع ، ويستمد هذا الكره العارم من كرهي لذاتي ، لطالما تمنيت أن تجهضني أمي فكوني لم أعي معنى الحياة وأنا داخل رحمها فليس من الضروري إحضاري لهذا العالم التعيس وأنا لم أدرك كيف هي الحياة مؤلمة في الخارج ، ولم أكن أفكر أيضاً في الخروج طالما كنت محمية وحدي هنا دون شيء يحاول تعكير صفو حياتي داخل هذا الرحم ، أخبرتني أمي مرة أنها تعبت جداً في ولادتي فلم أكن مستعجلة على الخروج وأخرجوني من جسدها

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

النحيل إجبارا بعملية قيصرية أرغمتني على مواجهة الحياة ، وكأني كنت أعلم عن التعاسة التي تنتظرني ، عن قلة الحظ التي توسمت بي ، وأعيش معها لهذا اليوم منذ ثلاثة وعشرين سنة ، هل أستغفر الله من يأسي وكلامي؟ أستغفر الله ما الذي قلته!

أتأوه ، أمد يدي نحو الماء البارد في دلو قديم حاملة خرقة بيضاء ، أعصرها فأضعها على الخطوط الزرقاء الموسومة على جسدي من أثر الضرب ، أتأوه من جديد أعقد حاجبي ، أغمض عيني ألما وأعض شفتي حين أطبطب الخرقة فوق جسدي مرارا كنوع من تخفيف الألم ، كوني عشت مع ذلك الأب كثيرا فأنا على علم تام في كيفية معالجة نفسي من الضرب المبرح ، خطوات أصبح عقلي الباطن يتكفل بها ، اعتدتُ عليها كثيرًا . . التكميد بالماء البارد ، أعيد الخرقة من جديد وأعاود ما فعلته مع مسح دموعي المتساقطة باليد الأخرى ، هذه المرة كان نصيبي من عقال أبي وفيراً جداً حين أمسك بي مختلسة آخذ المذياع الخاص به مع تحذيره المسبق قبل ذلك ، لم يكن الأمر يستحق العناء فأخذي لشيء شخصي يخصه أشبه بمخاطرة قوية أدرك فيها أني لو فشلت فسآكل نصيباً كبيرا من الألم ، بالطبع انتهز والدي تلك الفرصة التي يجد فيها لذة تشبع بشاعة قلبة الحجري واستمتاع يحيي الغريزة السادية التي يتصف بها كما شخصته أنا ، لم أكن أعلم انه ما زال في غرفته حين تسللت إليها بحذر ، مشيت على أطراف أصابعي في محاولة عدم إصدار أي صوت

كلصة بارعة ، امتدت يدي نحو المذياع القديم ، نجحت في نصف الخطة كان علي الخروج الان مع نفس حذر الدخول . . ولكن دخول أبي لغرفته في نفس اللحظة وإمساكي مع ثبات التهمة أعدم خطتي تماماً فلم يكن لدي خطة بديلة سوى رمي ما بيدي ومحاولة الهروب وهيهات هيهات ، لم يترك لي فرصة لآخذ نفساً إلا ورأيت عقاله يحلق عالياً ويقع بسرعة البرق مع صراخ يحمل السبائب والشتائم ، واستنجادي وصراخي لم ينفع حينها ولم يتركني إلا عندما عجز عن التنفس وابتعد ليستلقي وهو يلهث ويستكمل الشتائم آمراً بخروجي من غرفته حالاً .

في هذا اليوم لم يكن بمقدوري الذهاب إلى السوق فحين عرجت علي أمي لتستعجلني بالخروج رأت ما فعله أبي بي ، فاستطاعت دوافع الامومة الرحيمة بها أن تعتقني لهذا اليوم فقط ، فجاءت على عجل بعلاج محاولة به تخفيف الالم الذي اشعر به ، وبدأت محاضرتها اليومية بالكف عن العناد ومحاولاتي عن البحث في أشياء لم تبد لي ولم يسمح لي باستخدامها ، وهي تدهن جسدي بزيت الزيتون مع تدليكي بخفة على مواضع الألم ، لم اكن أستمع إليها حقاً وحينها جاءني النوم مقبلا وَرحبت به واستسلمت له تاركة أمي تحاضر علي نصائحها مع تدليك جسدي النحيل المتورم ، وكأنه لم يعتد عليه مسبقًا .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١٣-

مع أن هذا الدماغ في رأسي لا ينفك عن مزاولة التفكير في أي شيء وفي كل شيء إلا أنه مملوء بالهراء ، وسذاجتي تأخذ حيزاً ملحوظا داخل رأسي ، ولا أستطيع السيطرة على غبائي أحيانا لكني أملك كمًا لا بأس به من الذكاء الموروث بالفطرة عن طريق ذاك الأب الذي أنتسبُ إليه وتختلف معاني السذاجة بالطبع كما تختلف مسمياتها ، مسمى السذاجة عند أمي هي طيبة القلب وصفاء النية ولا أجد ترابطًا في الأمر لكن أمي استمدت مفهومها الخاص عن السذاجة . . من «أم متعب» تلك المرأة التي تعد أبسط نساء الحارة التعيسة مع أن زوجها يملك دكان أقمشة كبير في وسط المدينة يدر عليهم رزقًا وفيرًا ، ولديها عدد هائل من البنات والصبيان ومن ضمنهم ابنها الموقر «سيف» ، إلا إنها كانت تحمل سذاجة تجعلها أضحوكة بين نساء الحارة الشغوفات بالتفاخر بممتلكاتهن وشطارة أبنائهن ولا سيما عدد الأولاد دون البنات ، وانتهزن فرصة السذاجة الموسومة بـ«أم متعب» لتكون الأضحوكة بينهن حين تتحدث بطيب نية وتجيب على فضول أسئلتهم بصفاء قلب ، «أم متعب» كان حضورها وراداً جداً داخل صالتنا الزرقاء بما أن أمي ترحب بها دون أن تضطر لتتفاخر عليها أو حتى سؤالها أسئلة فضولية شخصية ، ويتبادلان الحديث مطولا عن

أشياء مملة تقريباً ، اتخذت «أم متعب» أمي ملجأً لأسرارها الصغيرة والكبيرة ، امرأة مثل أمي لا تملك الكثير من الصديقات لتفشي سرها وتملك وازعا دينيا قويا باعتقادهم ، وضعف حال أمي يمنعها عن التحدث عن امرأة ذات حسب ومال كمثل «أم متعب» ، لم أكن أحب أم متعب يوماً نظراً لبغضي لابنها المدلل «سيف» ، كل شيء يرتبط به أو يخصه يدخل تحت إطار الكره الموجه لسيف ومن معه ، لكنني حين كبرت أيقنت سذاجتها أو كما تقول أمي «على نياتها» وتقسم مريم أن قلبها «قليب عصيفير» تصغيراً لحجم القلب الذي لا يحمل شيئا على أحد حتى وإن كبر إثمه ، لكنني أظن أن حجم «قليب العصيفير» الخاص بها يواسي حجم عقلها أيضاً ، أذكر حين أخبرت سيف أن أمه «حصة» تملك حجم القلب الموصف من مريم ، صفعني بقوة وبصق علي والغضب يملأ وجهه ويرجم التراب على وجهي ، في البداية ظننتِ أستحق ذلك نظراً لتحقيري إياها أمام أصحابه لكنه اقترب إلَي غاضبا وجر قميصي تجاهه حتى لاصق وجهي وجهه وتنفس بغضب صاراً على أسنانه الأمامية

- «يا ويلك تقولين اسم امي قدام أحد ، تفهمين؟»

تركني وذهب بعيداً يجر وراءه أكوامًا من الغضب وصوت تنفسه أثار الخوف في نفوس أصحابه الذين ولّوا هربا حين رأوه مستعداً لضرب أي أحدٍ والتنفيس عن الغضب الناتج من ذكري لأمه «حصة» ، في الحقيقة خفت من سيف تلك اللحظة فلم أعهده غاضبا إلى هذا الحد من قبل ، أسعدني بعد ذلك

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

اكتشاف نقطة ضعف لذلك المتعجرف أستطيع التلاعب بها في الأوقات الحرجة حين لا يسعفني وينقذني منه أحد مهما ارتفع صوتي وزاد صياحي يقف الجميع متفرجاً بما فيهم أخي «صقر» مكتوف الأيدي متأملا لما سيحدث لأخته المشاكسة ، وضوح نقطة ضعف تجعل سيف غاضباً جداً ستكون سلاحاً جيداً للتهديد به حين يقترب مني ينوي إيذائي بأي شكل من الأشكال!

ما زلت أذكر كيف أني انتظرت الغد لأسأل معلمة القرآن حين تنتهي الطالبات من التلاوة عن هذا التصرف ، كنت في قرارة نفسي موقنة أن تحسس سيف وردة فعله مبالغة منه ، لكني أردت أن أسأل المعلمة عن هذا ، ما انتهت عهود من تلاوتها التي كانت المعلمة تختم بها حصة التلاوة لجمال صوتها وحسن تجويدها ، إلا رفعت يدي أسألها :

- أستاذة مرام ما حكم ذكر أسمائنا عند الرجال؟

كان السؤال مضحكاً بالنسبة لها لولا أنها رأت جدية تعابيري فابتسمت لي بلطف وعيناها لا تنظر غيري

- مباح ذلك يا لمى وإلا كيف عرفنا أسماء الصحابيات؟ وقد ذكر الله اسم امرأة في كتابة «مريم ابنة عمران» بل سميت سورة كاملة باسمها!

اطمئن قلبي من إجابة المعلمة وعرفت أن يقيني بمبالغة سيف كان صحيحاً ، الغيرة العمياء الموجودة هنا ، لا أعلم إن كانت تصنف كغيرة أو عار تنكشف عورته حين ينطق بأسماء نساء العائلة أمام الذكور من ذات العائلة نفسها ، يعيبُ رجال

بعض العائلات من ذكر أسماء «محارمهم» تحت اسم الشرف! وليس الاسم فقط يدخل تحت نطاق الاستشراف ومسمى الغيرة المسعورة ، بل المرأة بأكملها تعد كشرف يخص الرجال وعيب يعاب به في أي حال من الأحوال ، وليس للدين مكان في هذا الطبع المؤسف بالتأكيد ، من يحمل تفكيراً مسموماً إلى هذا الحد ليس للشرع مكان داخل الحذاء المصنف كعقل في رأسه حتى وإن ادعى ذلك فالله لا يستعيب من النساء ، وسميت سورة كاملة بـ«النساء» ، الله لا يبخس حقوق عباده .

***

وسط هذا الزحام . . بداية الليل المتعلق في أول العشاء . . بين أرجل المارين التي لا تقف أبدًا ، وأصوات المشترين والبائعين المختلطة . . أجلس أمامي قماش ممدود فوقه بضائع بالجملة مصفوفة بشكل مرتب قدر المستطاع . . لا أحد يقف ويلتفت على فتاة البرقع النحيلة هنا ، ولست مهتمة جداً أن يقف أحد . . ما دام ذاك الواقف بجانب الباب ينظر إلي ، يقف متكئاً على الجدار مبتسماً ، عيناي متعلقة به دون خجل يمنعني من أن أضع ناظري على شفاهه التي تحاول منع الابتسامة من الخروج . . يقف متكتفاً وكأنما لا أحد غيري هنا . . أتنهد قليلاً ، لا أجد شيئاً ما يزعجني في نظراته وهذا ما أثار استغرابي! بل أظنني مستمتعة في لعب هذا الدور مع هذا الرجل النظيف جداً ، يتقدم إلى الأمام بخطى ثابتة وعينين ثابتتين أيضاً . . أحاول الإلتهاء بترتيب البضاعة المهترئة ، أرفع رأسي فيدنو نحوي ويمد يده عابثاً نحو ما أبيعه ، أبلع ريقي

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وناظري لا يبرح عن وجهه . . بشكل سريع يرفع رأسه مبتسماً وجهه أمام وجهي ، أرى توسع بؤبؤ عينيه المتعلقة بي! آخذ نفساً عميقاً ، يبتسم فتغوص الأعين ، تجاعيد الابتسامة حول العينين هذه فاتنة ، فاتنة جداً . . .

كيف استطاع بهذه السرعة الوجيزة أن يخترق جدار مبادئي وقناعاتي! ويتركني أحدق به كعمياء أبصرت فجأة ورأت الحياة أمامها . . مدهوشة وقلبها يدق بقوة ، خرقاء لا تدرك كيف تتحكم بردود أفعالها التي يجب أن تدرس بعناية خاصة مع أشباه ذلك الـ فيصل! سر انجذابي يُنبئ أني فتاة مفجوعة لم ترَ خيراً منذ أن اكتشفت نفسها ، أحاول إقناع نفسي أحياناً أن قلبي ليس بيدي ولا باختياري فمشاعري المحرمة طيلة ٢٣ سنة أباحها اليوم لفيصل وحده ، قلبي الذي اختار أن ينبض كلما مر فيصل من أمامي عرف جيداً كيف يختار شخصاً جيداً هذه المرة ، فيصل يملك والده محلات ذهب مصفوفة يعني أن وضعه المادي عكس وضعي بالتأكيد ، وذو شكل حسن وفاتن ، ونظيف جداً ، أم أن عين الرضا عن كل عيب كليلة!؟ لم يدر بيننا حوار هذه المرة ، كانت مجرد خطوة للتقدم إلى الأمام ليرى إن كان مرحباً به من جهتي أم لا . . أظنه علم أنه مرحب جداً حين ابتسم لي وبادلته ابتسامة لم يرها لكن عيناي فضحت ابتسامتي المستورة خلف البرقع ، ولم أتأكد بعد من سر ابتسامتي إن كانت تصاحب الخوف من هذا الشعور ، أم أنها ارتسمت على وجهي بشكل لا إرادي واستطاع قلبي التحكم بها دون أن اشعر ، لكني متيقنة بجمال الشعور

وقت ما رأيته يبتسم بوجه لطيف جداً .

عاد إلى داخل محل الذهب الكبير ، وعدت للواقع الكسيف أحرّج على رزق أهلي ، تركني فيصل مدهوشة من هذا الشعور كأنه الحلم الجميل ، مصحوبٌ بشيء يشبه الضياع ، أحتاج لأحد يمسك يدي يخبرني أين الطريق الصحيح ، أخاف أن أسير في طريقه متوجهة نحوه ، ولا أعرف طريق العودة إلى الصواب حين أخطئ في ذهابي ، لا أعتقد أن تلك العيون الفاتنة قد تحمل خطأً ما ، لكنني لم أشعر بالأمان بعد . . بيد أنه ضياع لذيذ .

خرقاء في هذه اللحظات ولا أعرف كيف أتصرف ، صديقتي أريج المتفننة بعلوم الرجال لا أثق أنها تملك صواباً لتعطيني إياه ، ما عهدتها إلا لعوباً تفتن الرجال والصبيان ولست متأكدة عن قلبها إن كان يحمل شعوراً لأحدهم ذات حين أو لم يكن ، فمرأة مثل أريج خلق قلبها ليسكن قلوب آخرين ، لا يسكنه أحد ، ولا تحمل الثقة الكاملة لأن تبادل أحدهم شعورا حلواً ذات يوم ما دامت على خبرة كافية بأمور الكذب واللعب ، لا يجدر بها أن تثق بأحدهم فيكون دورها هذه المرة بأن يكذب عليها وتخدع به ، هي تعرف أن «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» لذلك هي تخاف الوقوع بحفرة ما ، ما دامت قد حفرت مليون حفرة لرجالها ، الأجدر بي أن أتعامل مع موقفي بنفسي دون أن تنصحني أريج أو ترشدني .

***

الساعة الآن تشير إلى الحادية عشرة والربع ليلاً ، كومت

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بضاعتي داخل الأقمشة ولملمت ما استطعت لملمته داخل الأكياس وجلست أنتظر من يقلني كالمعتاد ، الناس حولي يتأهبون للذهاب هذه «أم مشعان» بائعة الحناء والديرم قد فرغت وبدأت بِعَدّ مكسب اليوم ، بجانبها «وضحى» التي عرفت بتشكيها المتواصل من الأمراض الجسدية التي تصاحبها تارة تأتينا تولول من ركبها ، ويوماً تصيح علينا من ألم ظهرها ، أما اليوم فالدور دور رأسها في موضع الألم ، تربط فوق البرقع شالاً على رأسها علّه يخف من وجعه ، «وضحى» الشكاية لم يعد أحد يرأف بحالها فهي تمثل قصة «الراعي والذئب» بقيت تشتكي من كل الأمراض المصاحبة لها فما عهدناها سليمة ، وما عرفنا صدقها من كذبها ، و«نوير» الناصحة المتناصحة المرأة المهووسة بالنصح والتصحيح تسبقنا دائما قبل قرب موعد إغلاق السوق ، فهي تجيئه باكرة وما إن يحل الظلام تأخذ بضاعتها وتذهب لمنزلها وتستشهد بذهابها بـ «وجعلنا الليل لباسا * والنهار معاشاً» ، وغير «ام مشعان ، ووضحى ، ونوير» نساء بسّاطات كثيرات يعملن في مجال البيع والشراء يفترشن الأرض ويبعن دون أن يكللن من ذلك ، في الغالب هنّ نساء كبيرات لكن هذا السوق الكبير بداخله العديد من النساء اللاتي تركن بيوتهن للحاق بلقمة عيش كريمة تضمن عيشهم ، هذه تطبخ وتبيع وتلك تخيط والأخرى تشتري الرخيص وتبيعه بأرخص ، جميعنا نتساوى في الوضع الاجتماعي نفسه ونتشارك هم الفقر ذاته والخوف من الموت جوعاً أو التجمد بردا ذات ليل قارس ، كلهن مثلي دفعهتن الحاجة لترك كل شيء

لمجرد العيش المباح والمستحق لنا جميعاً ، كلنا نحمل قصصًا مختلفة بأنواعها ونعيش مواقفًا كثيرة مع الزبائن نواجه الشتائم أحيانا ولا سيما التحقير في ذواتنا ومساواتنا بما نبيعه من رخص ، دون أن يدركوا معنى الحاجة الملحة التي تركت لنا خيار التنازل عن جميع ما نوده لنمارس الحياة كما هم يفعلون!

- «يا بنية» أما جاء اخويكِ؟

- لا يا خالة تأخرا كما هو المعتاد ، لا تقلقي علي سأكون بخير

- لن أترك صغيرة وسط الليل في هذا المكان ، سيصبر ابني «مشعان» قليلاً حتى يأتوا أخواك

- «الله يعافيك»

تقاطعنا وضحى :

- «اقول يا بنية» استطعت توفير سخان ماء بالإيجار الشهري لبيع الشاي بالحليب ، لكن لدي شرط قبل أن أحضره

- «بدينا يا وضحى من اللحين؟»

- شرطي بسيط ، سنبيع أنا وأنت في السخان ذاته وكلٌّ يكسب على حسب رزقه ، أنا أحضر السخان والماء وأنت الشاي والسكر ، ونهاية الشهر نسدد إيجاره معًا

- سأخسر على ذلك إن دفعت للشاي والسكر والسخان ، بعكس ما تكسبينه أنت

- «والله شاطرة بنت ام سلوم «

تشاركنا «أم مشعان «الحديث في حين انتظارنا سويا

- لا تبخسي حق «البنية « يا «وضحى»

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

تتنهد وضحى وتتأفف بضجر

- حسناً يا «بنية» سنقتسم العدة بيني وبينك بالعدل ، «أم مشعان محدن يقواها»

يقطع الحديث حضور سيارة سيف المتأخر جداً فالساعة تشير للثانية عشرة الآن . . ينزل سيف وحده يضم نفسه من هول البرد ، يحمل البضاعة بطريقة فوضوية ويلقيها في صندوق السيارة بشكل سريع ويأشر لي من بعيد أمرا بالقدوم! أتيت إليه بعدما ودعت الجميع وذهبت مسرعة نحوه :

- أين صقر؟!

- لم يستطع الحضور انشغل في أمر طارئ يخصه فأمرني بإحضارك بعد أن عجز عن القدوم معي

توجست منه خيفة وركبت خلفه دون أن أنطق . . وركب بعدي وانطلقنا .

-١٤-

قبل الغروب ، يتضاءل حجم الشمس ، ويخفت ضوؤها ويبهت وتنزوي بخجل مشع باحمرار كصبية جميلة ، وتدع لنا القمر جالسًا يحتل مكان عرشها مزهوًا بنفسه يجر معه غطاء داكنًا يفترشه على السماء فتسود بنا دون أن ينطفئ ضوؤه ، مختالاً بما يضيء ، يبدأ بعض أهل الحارة في إشعال مصابيحهم في مقدمة المنزل محاولين جلب الضوء لأنفسهم بعد أن انزوت الشمس في مكان بعيد ، ويجتمع الصبيان تحت النجفة البيضاء المشعة في سور منزل «أحمد الجلاس» هي أكثر الاماكن إنارة داخل هذه الحارة ، يلعبون ألعابًا تليق بمقام الظلام ، ورجال الحي يمشُون قربهم متجهين لصلاة العشاء تباعا يرددون اسم الله كثير ويصلون على النبي بصوت مرتفع كتذكيرٍ للمارة بوقت الصلاة ، فوق بابنا الأبيض المليء بالصدأ لا توجد نجفة ولا بقعة ضوء وأسواره القصيرة ذات الجدران الخالية من الدهان ظلماء جداً ، لكننا نحظى بجيرة بيت «أحمد الجلاس» صاحبُ السور المرتفع ، نستمد من نجفتهم ضوءا فقيرا يجيئنا من دون إذن وطلب ، يتسلل ضوء شاحب لا يكاد يسمنُ أو يغني من ظلام نحو نافذة غرفتي الظلماء يدخلها خلسة كلص محترف ، ينطبع شيء منه على وجهي يوقظني الضوء المسروق من قيلولتي الطويلة جداً ، وأشتم بيت «الجلاس» سرا وأدعوا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الله أن يحرق نجفتهم التي ما عهدتها اخطأت في موعدها ، وأستيقظ من أحلامي بمضض لأغسل وجهي وأستعد للخروج من صومعتي هذه داهمتني مريم حاملة ابنها الرضيع تبكي ، وتهدهد به تارة وتضمه تارة!

– ماذا حدث؟

– لا أعلم اعتقد أن «وليدي بيموت»

– «بسم الله عليه»

– ذهبت به للمستشفى اليوم صباحا أخبرني الدكتور أنه يستطيع إجراء العملية حين يصبح عمره سنة (تنظر إليه بوجه باكٍ) لكنني أعتقد أنه لن يكمل سنة وهذه حاله ، وجهه شاحب وشفتاه مزرقتان!

أجر ابنها منها ، تجهش بالبكاء على ابنها التي تؤمن أنه سيموت في أيّةِ لحظة ، تمسح دموعها من جديد وتأخذ نفساً عميقا وتبتسم مع احمرار عينيها وأنفها من أثر البكاء ، وتعاود النظر إليّ وأنا منشغلة أتأكّد من أنفاسِ «وليد»!

– حادثني فلاح اليوم ، أخبرني أَنه تم نقل عمله إلى قرية صغيرة تقع أطراف الرياض تسمى «رماح» وسننتقل جميعاً هناك في بداية الاسبوع القادم

أشهق وأبتسم بفرح محاولة للتفاعل مع مريم ومحاولة لتغير موضوع ابنها ، الذي بالكاد تأكدتُ من أنفاسه!

– خبر جميل من الأَخ فلاح ، أخيراً ستستقرين مع عائلتك دوننا ، (تتسع ابتسامتي) لا تترددي لن نشتاق لك أبدا وإن حصل ذلك فسنكتفي بتذكرك فقط ، دون أن نحاول

دعوتك للحضور وإشباع رغبة أشواقنا

تبتسم وتضربني بخفه وعينُها الحزينَة تنظرها ابنها الذي بينَ يديّ ، تهمسُ وهي تمسحُ على وجه صغيرها :

- سنرى ذلك حين تأتين لرماحٍ بنفسك تبحثين عني وعن وليد ، أرى أن وليد احدث تغيراً جذريا بك حين اصبحت تحملينه وتناغينه!

تأخذ ابنها مني بعدما طبعتُ على جبينه قبلة صغيرة ، وتخرج تاركة إياي أمارس رقصة الاحتفال الخاصة بي بعد خبر نقلهم الجديد ، أخيرا سأحظى بلحظات أنعم بهدوء في المنزل دون أصوات صراخ أو عراك أو حتى ممارسة أنشطة الحياة الطبيعية دون أن أرتطم بالأقزام الصغيرة أو أقضي وقتِي في فك النزاع بينهم ، سيخلو المنزل من الكائنات صغيرة الحجم سيتوفر بضع مال لن تضطر أمي أن تصرفه على مريم وأبنائها وسأكون جديرة باستحقاقه بدلا عنهم ، ولن يجد أبي سبباً للصراخ طالما المنزل سينعم بترتيب مستمر وهدوء يطول وقته ، مع أن فكرة الوداع حزينة قليلاً لكن سعادتي من هذا الخبر يفوق أي شعور آخر غيره ، وإن كانت مريم ستبكي بعض الشيء ولست متأكدة إن كنت سأبكي لأجل الوداع أو ستفضحني ابتسامتي حين أبكي فرحاً لرحيل الآلات المدمرة المتحركة الصغيرة .

***

«الله يستر»

تقولها أمي خلف ضحكاتنا الغير معهودة بشكل مستمر ، فهي تعلم يقيناً بأن كل ضحكة يتبعها شيء من بكاء أو هكذا

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

آمنت أمي ، و ورث ذلك الايمان إخـوتي حين تلقنوا منهـا التشاؤم واعتنقوه كأسلوب حياة ، ولست ألوم أحدًا على ما يفعل ما دام يحكم تشاؤمهم ظروفهم البائسة التي زرعت في أنفسهم التشاؤم وقلة الحظ حتى نمت وأثمرت كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، قد رأيت مرة فيلمًا وثائقيا على التلفاز يحكي عن مرض ما يدعى «الشيروفوبيا» وهو حالة مرضية تصيب الانسان ، يصبح بعدها يخاف من السعادة لأنه يعتقد أن شيئًا ما سيحدث ، ولست متأكدة فعلاً عن مدى صحة هذا المرض وما تبثه تلك القناة لكني أرى أن أعراض هذه الحالة النفسية تتسم في عائلتي كاملة ، لأنهم ما عهدوا السعادة إلا وقد تبعتها أكوام من الهم متراكمة فهم اعتقدوا بذلك الإيمان التشاؤمي تطبيقاً لما علمتهم الحياة ، أحاول قدر استطاعتي ألاّ أنغمس في بحر التشاؤم الذي يغرقون فيه جميعاً ، وأن أتطوق بسترة أمل صغيرة قبل أن يسحبني التيار مع من أخذ! ليس مهمًا أين ستأخذني سترة النجاة ، حتمًا لن يكون أسوأ من العيشِ في دوّامة التشاؤم!

كنا نضحك على نكت أخي سلمان يلقيها علينا بروحه المرحة المعهودة ، والعائلة كلها متكومة في الصالة الزرقاء يحتسون الشاي الأحمر الذي يظهر في المناسبات ، ومناسبة مثل هذه كانت تستحق أن تعد لنا أمي الشاي المخدر بنفسها وأن يتنازل أبي ويفتح التلفاز من تلقاء نفسه دون أن يكون يوم الجمعة حاضرا ، اجتمعنا نودع مريم وأبناءها بجلسة عائلية أخيرة قبل أن يأتي فلاح لأخذها ، كنا سعيدين حقاً ، باستثناء

أبي المتمدد أمام التلفاز يحتسي الشاي مع السجائر ، أو السجائر مع الشاي! لا أدري! لم أميز مشاعره إن كان سعيداً أم لا ، وجهه المتجمد وتفاعله القاصر معنا لا يساعدني في تمييز شعوره ، أعتقد أنه لا يريد الإفصاح عن مشاعره فاتخذ تجمد تعابير الوجه أسلوبا وشكلا ، تبتسم أمي وهي تحتضن دلال الصغيرة وتقبلها تارة أخرى ، تلتفت نحو مريم وهي ترتشف الشاي بعينين تشعان فرحاً .

- متى يأتي فلاح؟

(ترفع شمالها لترى الساعة القديمة المزينة معصمها) :

- الساعة التاسعة حسب ما يقول ، أي بعد بضع دقائق

- وماذا عن مواعيد المستشفى لوليد؟

- الشهر القادم سأعود للرياض من أجل موعده آنذاك

- اتركيه أعتني به وبمواعيده حتى تستقري هناك

- لا أستطيع تركه وحده هنا ، المشكلة بي وليست بك لن أستطيع تحمل ابتعاده عني وهو في وضعه الحرج

- خيراً إن شاء الله

صوت طرقات الباب تقطع انسجام الجميع ، تهب مريم مسرعة نحو الباب يتبعها بضع من جيشها ، ويستعدان عمر وسعد لحمل حقائبهم نحو الباب ومساعدة فلاح في الترتيب ، تنقل أمي برّاد الشاي نحو المطبخ لإعادة تسخينه وإعداد صينية نظيفة لإكرام فلاح ، أما البقية استبقوا نحو مجلس الرجال الصغير بجانب الباب ولم يبقى في صالتنا الزرقاء سواي أرتشف شاياً باردا وذلك الأب المتمدد أمام التلفاز لا يأبه بما

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يحـدث ولا بأصـوات إخـوتي العـاليـة وهم يهللون ويرحـبـون بنسيبهم .

***

أتعامل مع الأشياء عبر طريقة الموت لإنهاء الأشياء السيئة التي تتعلق بي أو بغيري ، فكرة التخلص من كل شيء إلقائه داخل حـفـرة الموت المختلق والمصـدق في الوقت ذاته مـريحـة فعلاً ، اختـلاق الموت للأشيـاء غير المرغوبة تجيد نفعاً أحيانا حين أتضايق من موقف ما أو يعتريني شعور سيء مع أشخاص أياً كانوا ، أصنفهم داخل رأسي كأموات وأستلذ بلحظات قليلة مريحة جدا حين تخلصت من قبح الشعور الذي يجعلني أكره اللحظة التي حـدثت والأشـخـاص الموجـودين في اللحظة المكروهة ذاتها ، ما إن أدفنهم في فكرة الموت التي دفعتهم إليها حتى بدأ الواقع في إحيائهم من جديد وإعادتهم إلى الحياة مرة أخـرى ، لكنني أعـاود قـتلهـم في مـرات مـقـبلة من جـديد ولا أكتفي بموتهم مره واحدة ، عقلي الإجرامي لا ينفك عن مزاولة القـتل لأي شيء يبث في روحي شيـئا من السلبيـة حتى وإن كانت فكرة القتل لا تصنف كشيءٍ إيجابي بالتأكيد ، إلا أنها مريحة لذاتي ولعقلي المليء بالأشخاص الموتى الذين اختلقت قـتلهم عـمـدًا لمجرد أني عشت مـعـهم لحظات لا أطيق تذكـرها واعتراني شعور سيء حينها ، لكـن ماذا لو ماتوا حقيقة؟ أتراني سـأشـعـر بنفس لـذة الراحـة التي شـعـرت بهـا حين اخـتلقت مـوتهم؟ سـأترك الإجـابة لحين لحظة مـوتهم الفـعليـة ، أصنف كـمجـرمـة تقـريبـا لو أني قـتلت أربعين شـخصًا أو أكـثـر جـملة

واحدة ، بما أن لحظات القتل كانت مختلقةً داخل رأسي فقط ، فخيالي هنا هو من يدخل داخل إطار الإجرام ، والأربعون الذين ماتوا تباعا كانوا يدرسون معي في نفس الصف على مقاعد الجامعة لكني قتلتهم ، حين شعرت بالخزي من نفسي والحرج منهم أيضا ، يومها كانت الدكتورة تطالبنا بإعداد مشروع فردي نموذجي يخص مادتها التعيسة يتكون بإحضار وسائل شرح خاصة بالمادة مع عرض «باوربوينت» وتوزيع منشورات ورقية وبحث نموذجي! ولأن الحماقة تلازمني تقدمت إليها وحدها كي لا يسمعني الجميع وأخبرتها بعدم استطاعتي تلبية ما تريد لعدم توفر الإمكانات التي تساعدني في إعداد المشروع وأن حالتي قد شُرحت مسبقاً عند الاخصائية الاجتماعية التابعة للقسم ، نظرت إلي مطولا بعينين متجمدتين من خلف النظارة القديمة . . والتف رأسها ذو الوجه المجعد نحو بقية الصف :

- هل يوجد أحد لا يستطيع اعداد المشروع مثل لمى؟

(عم السكوت)

(تكمل وعيناها من فوق النظارة تأكلني من الأعلى للأسفل)

- «والله حالة « أصبحنا بدل أن نشرح نقوم بأعمال الناس الصالحة تجاه من يحتاج . . «تتأفف بمقت وتلتفت نحوهم» من يساعد لمى في هذا المشروع فكما هو واضح هي لا تستطيع عمله بمفردها ما دامت لا تملك حاسوبا أو أية إمكانات ،

تعلقت الأنظار نحوي وأستطيع تمييزها إن كانت نظرات شفقة أو سخرية ، ارتفعت الايدي الراغبة في المساعدة وارتفع

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

الدم في جسمي خجلا وخزيا ، كنت اتمنى أن تعاد تلك اللحظات من جديد وأجلس في كرسيّي وأبلع لساني قبل أن أفكر في الاعتذار عن هذا المشروع ، تمنيت لو حدثت معجزة كونية وانشقت الأرض وابتلعتهم وحدهم دون أن تبتلعني ، أو أي شيء آخر يحدث دون أن أعيش شعور العجز وأواجه نظرات الشفقة وتملأ عيني نظرة الخجل ، اختارت الدكتورة إحداهن وعدتُ لكرسيي بجسد حار ، أستطيع تحسس العرق الذي يملأ جبيني ، وأستمع لصوت ريقي وهو يسري عبر حلقي محاولة منعي من البكاء ، لكني في الوقت ذاته ما عدت قادرة على سماع أي شيء أو النظر نحو أي شيء . . فقط طأطأت رأسي وقتلتهم جميعاً داخل رأسي وكان نصيب الدكتورة أكثر الطرق بشاعة في القتل ، لم أصلّي عليهم وَلن!

-١٥-

«الظروف هي من تصنع الأشرار . . .»

قرأتها مرة في رواية قديمة ، شدتني هذه العبارة جداً حيث أيقنت أن الأشرار لا يُخلقون من العدم ، وإنما شرهم الكامن في أنفسهم صنعته ظروفهم التي أحالتهم ليكونوا كذلك ، ألتفت حولي! الأشرار كثير حسب تصنيفي لهم ، أبي أولا من يمتلك قوى الشر الخارقة ، جدتي ذات الخيزرانة الدائمة ، وسيدة النزاعات الأولى أمي ، خالتي حصة ، سيف بالتأكيد ، دكتورة سعاد وصوتها المرتفع جدا ، أريج صديقتي حتى وإن كان شرها لا يمسني بسوء ، الأشرار حولي كثر وتختلف قوى الشر ومنسوبها بين كل شخص وآخر . . يفوز بكل ذلك أبي الذي يستطيع أن يبارزهم بكل شر يحمله تجاه العالم ويفوز بلقب ملك الشر الأوحد ، بجدارة مستحقة . . فكرت لو أن أبي قد صنعت منه الظروف شريراً سيئاً وليس مفطورا على ذلك ، عاش أبي حياة مزدهرة بالإناث حوله تحفه النساء من كل جانب ، تقول أنه كان عربيدا زيرا للنساء . . فهو يحظى بكل الصفات التي تجعل النساء يتوددن إليه ويحاولن المساس به ، حسن المظهر والشكل إلى درجة ملفته ، وأبوه الذي يكون جدي غير المرئي يملك مزرعة صغيرة في أطراف المدينة البسيطة التي عاش بها ويأخذ بعضا من نسائه في مزرعة والده كل ليلة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أربعاء يمارس فيها ما يحلو له مع نسائه ، كان مغتراً بذاته لعوبا ضحوكا يتفاعل مع الحياة كأنها قد خلقت من أجل استمالة رضاه!

حتى الآن لا أجد أي ظرف طارئ يجعل أبي شريراً كساحر مسعور ، يلمس الأشياء فتتحولُ معه إلى أشياء سوداء خالية من الحياة . . حتى علمت مرة أنه يؤمن بأن الحياة غير منصفة وأنه يستحق أن يعيشها بشكل أفضل من ذلك ، لذلك منذ أن آمن أن الحياة غدرت به وأعطته أقل مما يستحق نقم على الكوكب بأكمله ، على الحياة ، على البشر ، وكل ما تبع الحياة بأي شكل من الأشكال كأنما ينتقم منها ، لسانه البذيء لا ينفك عن اللعان وترديد «الله يلعن هالحالة» ، لكنني علمت في الوقت المتأخر جدا أن فطرة أبي هي الشر وأن الشر الذي ينشره على كل من حوله لم يكن سببه ظرفا أو شيئا آخرًا إنما هي الفطرة التي تجعله يمارس الشر بلا شعور ، إن كانت الظروف تصنع الأشرار فمن الأجدر أن تكون أمي شريرة ايضاً ، فإنسانةٌ مثل أمي قاست ظروفا قوية جدا ولم تصنع منها شيئا سوى كائنٍ مهزوم عديم الحيلة متوتر على الدوام ، فإن الشر الذي ينشرهُ أبي بسحره الأسود نزع الحياة من قلبها وحولها لشيء آخر يشبه البشر ، تقوم بأمور التنفس والأشياء المفطورة عليها كحب أبنائها وغيره لكنها لا تعيش الحياة كما تستحق ، أمي قبل أن تكون أماً وزوجة مكسورة القوى ، كانت قوية وجميلة ورقيقة ومتفائلة بحب الحياة وتزرع الابتسامات على شفاه من حولها عن طريق إلقاء النكت والتضاحك ، لكن الظرف الذي

جعلها ترتبط بأبي سرق منها قوتها وأحرق جمالها وكسر رقتها وأهداها الخيبات حتى ضلت تعتكف على جنبات الأيام تتسول الفرح من شفاة أبنائها حين يبتسمون . حينها آمنت فقط أن الظروف ليست مبررا للأشرار ، أمّي تنقضُ هذه المقولة باحتراف!

وتذهلني أريج في ممارستها أمور الشر وأكثر حين تبذل قصارى جهدها في تحقيق رغبات الشر المسيطرة داخلها ، لنقل أن لأريج ظرفا جعلها تنقم الرجال جميعهم وتحاول الإنتقام منهم تحت راية الشر التي ركزتها بإحتفاء ، حيث أن صديقتي اللعوب كانت لعبة في يد أحدهم يومًا ما ، حدث في طفولتها المتأخرة ، حين تعرضت لتحرش جنسي من أبناء حارتهم القديمة فضلت تكره الرجال جميعهم حتى صيّرت حياتها للإنتقام من الجنس الذكوري بأكمله إنتقاما لما حدث لها حين خدشت براءتها وضاعت طفولتها واعتصر الألم قلب أمها واكتفت به لنفسها خوفا أن يعلم أحد ما حدث لصغيرتها التي ضلت ترتعش خوفا في كل مرة يقترب منها ذكر ما ، لم تتحسن حالة أريج جزئيا إلا عندما انتقلوا لحارتنا في مرحلة مراهقتها . . حينها تعلمت كيف تكذب على الرجال الجدد في هذه الحارة القديمة وحينما لاقت قبول الكذب واللعب منهم بدأت بلعبتها الكبيرة معهم وضلت تقذف بهذا وترمي بذاك ، لا أدري كيف ستتوقّف ومتى!

في كل مرة أتحدث بها عن أريج أربط معها عنصر الذهول والتعجب ، في كل مرة أحاول خلق حديث عن أريج أبدأ ب

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

«تذهلني أريج» لأن أريج وبشكل غير معقول تقوم بإذهالي في كل مرة تقوم بأمر ما يستحق التعجب ، منذ أن عرفت أريج وهي تحاول في أن تصيرني إلى إنسانة صالحة للفساد ، بحسب ما تقول إنسانة متفاعلة مع الحياة ، أخبرتني مرة بأننا لم نخلق إناثا عبثا ، الأنثى أن تعيث في الارض فساداً زهواً بما تملك وثقة بمن تستطيع سحرة بأنوثتها التي لم تخلق عبثاً ، فتاة مثلي تملك جميع المقومات التي تجعلني صالحة للفساد تستحق أن تكون فاسدة بكل فخر! أقف أمام مرآة تسريحتها المبهرجة غرفتها الأُرجوانية حولي هدايا كثر بعضها فتحت والبعض الآخر منها لم يُفتح بعد . . أتقوس أساورها في يدي النحيلة ، وألمس مساحيق تجميلها ، أتعطر من عطورها بابتسامة الحرمان ، وهي تتكئ على سريرها تنظر إلي بعينين فارغتين!

- ماذا لو لعبنا لعبةً جديدة؟

- أي لعبة؟

- ستكونين البطل الصامت حضورك فقط سيكون دورك في اللعبة

(ألتفت نحوها باهتمام)

- سنذهب معاً للعشاء في مطعم في فاخر في أحد الفنادق! موعد مضاعف double date

(رأت في عيني تساؤلات وأشياء أخرى تعني عدم فهمي وجهلي بما تقوله)

- لا تجزعي من فكرة العشاء ، سنذهب للأكل ثم سنعود لا أحد يعلم بغيابنا ولا أحد يهتم

- كيف سنذهب؟ وعباءتي؟ (تمتد يدي نحو ملابسي البالية) ملابسي لا تؤهل لدخول الفنادق، وإن علم ياسر وناصر؟ متى؟ اليوم؟ ولكـ . . .

تجيئني يدها مباغتةً نحو فمي لتغلق بوابة الأسئلة المتتالية تباعاً، كأنها كانت تعلم بكل أسئلتي فجهزت لها أجوبه في حال السؤال، لأنها تعلم في كل الأحوال لن أرفض فرصة الذهاب لكن تعيقني الظروف التي تحتم علي ذلك، فخطتها للقضاء على كل مخاوفي قد نجحت حين جهزت لي شيئا من ملابسها وعباءتها وأخبرتني أننا سنذهب الآن ولا احد سيعلم لأن الجميع لا يهتم. .حتى ياسر وناصر، لم تترك لي فرصة لفكرة «لا أحد يهتم» أقلّبها في رأسي، من قال لا أحـ . . . قاطعت حبل أفكاري حينَ أجلستني أمام تسريحة غرفتها ذات المرآة التي كلما رأيتها ظننتها تسخر مني لذهولي بكل الأشياء المصفوفة على الطاولة بشكل مرتب ومتناغم . . هنا قسم العطور الزاكية، وهنا أكواب عدة بداخلها فرش ناعمة جدا ومساحيق بعلب متنوعة تملأ المكان . . وعلى الزاوية توجد صناديق مصفوفة بداخلها إكسسوارات جميلة بألوان مختلفة وصبغ الأظافر مصفوف بحسب تدرج الألوان، لكن أريج قطعت تأملي بتسريحتها وهي تحمل في يدها شيئا ما يشبه الكحل ورفعت شعري عن وجهي استعدادا للتزين ما قبل الذهاب . . .

- أغلقي عينيكِ!

***

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

آه من قلبي نصحته بس عيا ينتصح نبضه يبيها
آه منه ليه عيا؟ ليه عزم يترك القوم ويجيها
ما عرفت القى لهذا القلب حل ، الجواب أقفى بظلّه وارتحل
ما بقي لي غير انتي يا غريبة يا رحيل العمر فيني يا حبيبة . . .»

صوت محمد عبده الخارج من مسجل السيارة يقطع هدوء أريج وصمتي ، أريج المنشغلة والمنعكفة على هاتفها تركتني أحدق نحو نافذة السيارة أرقب الشوارع المزدحمة . . الناس هنا يعيشون حقاً ولست أعلم إن كنت أنا المختلفة عنهم جميعاً أم هم القادمون من أماكن أخرى جديدة تشبه النعيم ، الأغاني التي تخرج من نوافذ السيارات الفارهة بشكل مزعج وقاسٍ في حق الكيان الموسيقي ، المطاعم هنا لا تشبه المطاعم الّتي أعرفها ، محشورة بالبشر وكأن الأكل قد انقضى تماما في هذا الكوكب ، ما زلنا نقف في الإشارة ذاتها أربع مرات وكأن الأمر اعتيادي عند الجميع ، أحدق في وجوه الناس الواقفين معنا في الاشارة ذاتها وفي رأسي المزدحم ألف ألف سؤال بدافع الفضول! ولا أجد من يجيب أسئلتي غير خيالي الذي يقتضي أجوبة معينه . . ما انتهى وقت وقوفنا عند الإشارة إلا واقد انتهيت من تسمية من حولنا جميعهم واخترتُ لهم حياة أخرى تليق بتعابير وجيههم التي تأملتها بدافع الملل ، أو بدافع إشغال نفسي عن التفكير في الذي أفعله! لا أدري . .

سائق أريج هندي الجنسية . . أعتقد أنه أحسن حالاً من بعض إخوتي ، وأظنه يكرهني أيضا لا أعلم لماذا ، في كل مرة

أركب فيها هذه السيارة ذات النوع «الجمس» يراودني إحساس أن سائق أريج «شاكر» يود أن يفتح الباب ويرجفني بقدميه خارجاً . . يقف شاكر بطريقة يعرفها جيداً أمام برج المملكة ترفع رأسها أريج تخرج عطراً صغيرا من حقيبتها الصغيرة وتملؤ نفسها به ، ثم تلتف علي وترش العطر ذاته تفتح الباب وتشير إليّ بالنزول وتسبقني نحو البوابة الزجاجية الكبيرة ، أضع قدمي على الارض أنظر حجم الكعب الهائل التي أجبرتني أريج على ارتدائه أبلع ريقي وأنزل بكل بطئ تعنيه هذه الكلمة حاملة حقيبة صغيرة . . أمشي بخطى هادئة خشية الوقوع ، أقف امام البوابة الزجاجية ذات الأبواب المتحركة ، يتحرك شاكر بالسيارة وأصل وحيدة أمام البوابة أنظر إليها بعين الذهول ، أريج تقف بملل في الداخل أستطيع رؤيتها خلف هذا الباب المنظف بعناية . . أمضي قدماً نحوها وقلبي يتحرك يرقص رقصة الفرح . . هل كانت الفرح؟ لا أدري! كان قلبي يرقص على أيّة حال ، تمشي أريج وأمشي حذوها وعيناي تبصر كما لو أني أبصر أول مرة في حياتي . . تلكزني ضاحكة :

- حاولي حبس مشاعرك المنذهلة ، فتعابيرك مضحكة جداً!

أرد لها بابتسامة من أسقط في يديه . . ندخل نحو دورة المياه الموجودة داخل السوق . . في البداية لم أعرفني جيداً . . هذه الفتاة ذات العباءة المزركشة جدا والحقيبة الباذخة والوجه المملوء بالكحل واحمر الشفاه لم أكن اتوقع أنها ستكون أنا عاكسة أمام المرآة ، وكأني لست أنا ، ألمس وجهي بذهول . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وأرمش ببطء ، أشعر أن هناك شيئا يقف على جفوني كأنها مضلة سوداء ، تتزين أريج من جديد وتعيد ضبط حجابها ونصف شعرها يظهر من الأمام ، وتفعل لي كما فعلت ، ، مضحكة أريج وهي تشبه الأمهات وهي تنتبه إلي أو تحسن من شكلي ، الأمهات الفاسدات قليلاً ، أتبع اريج كقطة خائفة وابتسامة الدلال لا تفارق محياها . .

نمشي في طريق ذو إضاءة منخفضة . . ومرآة شاهقة معلقة على الجدار الغامق ذو السقف المرتفع . . يستقبلنا آسيوي بوجه بشوش جداً مرحبا بنا . . لم أكن أعي ما قاله منذ دخولنا لأن عقلي لم يعد يدرك شيئا بعدما رأى فخامة ما أنا واقفة به وكأنه من قصور السلاطين التي تذكر في الروايات القديمة ، فُتح لنا مصعد مظلمٌ جداً . . نظرت إلي أريج مبتسمة وأمسكت يدي وسحبتني معها نحو الظلام ، رحلة المصعد كانت طويلة جداً وزاد خوفي حينما علمت أن المكان المقصود يكون في الدور السابع والسبعين ، كان ذلك أعلى ما وصلت له في حياتي وأظنها كانت المرة الوحيدة .

-١٦-

تفتح باب المصعد وفتحت عيناي شاهقة ممّا أراه في هذا المكان المرتفع جدا ، مشيت محاذاة أريج تمتلكني سعادة عارمة وخوف صغير لا أدري كيف ظهر خلسة ، تبعتها هناك حيث يجلس الرجلان قرب الزجاج على طاولة مربعة ذات غطاء أبيض ، كأنّي أشاهد فيلمًا لا حقيقةً ، ابتسمَا حين أقبلت أريج أتلوها بخطواتِ المرتبكَة ، وقفا بلباقة . . سلمت على مضض بحياء شديد وجلست قرب الزجاج المطل على الرياض كلها ، الرياض من الأعلى لا تشبه نفسها . . جميلة جداً ومشعة وكأنها حلم جميل ، تشبهيني جداً حين ارتفعت إلى الدور السابع والسبعين في هذا المكان غير المعهود أبدا ، أرى أمامي برج الفيصلية ولأول مرة أراه من الأعلى ، دهشتي بجمال المكان كانت تحرج أريج التي تلكزني في كل مرة ألتفت نحو الزجاج بذهول وإعجاب!

- هذه لمى صديقتي البريئة جداً .

ألتفت نحو أريج وهي تتحدث عني بهذا الشكل ، أبتسم قليلا وكأني فخورة ببراءتي التي لم تجرب أريج كيف تكون!

- أهلاً وسهلاً لمى ، معك عبدالله «ثم يشير على عاقد الحاجبين الذي بجانبه» هذا أنس .

لا أظهرُ أية تعبير . . وأعود نحو الانبهار على يساري ،

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

كيف أصبحت الرياض جميلة إلى هذا الحد ، بسيطة مثلي لا تعرف منها سوى حارتها والسوق ومدرستها القديمة ومكان جامعتها ومنازل أقربائها البسطاء! كيف لعقلها المنحصر في تلك الأماكن المحدودة هذه أن يصدق لو قالوا له الرياض جميلة إلى هذا الحد ، شكل الأنوار المضاءة وحجم السيارات من الأسفل ، لا أستطيع إلا أن أحبس نفسي من هول المتعة التي أحظى بها حاليا ، تتحدث أريج ويرد عليها عبدالله الأنيق جدا بابتسامته الواسعة ويتشابكان الأيدي ولست مهتمة فعلاً بما يقولان ما دمت أجلس على هذا الكرسي الأحمر المريح ، الموسيقى تداعب أذني بدلال وإضاءات الرياض من الأسفل تدغدغ مشاعري بنشوة . . أما أنس هذا الجالس أمامي لا يملك من اسمه أي نصيب فلم يأنس منذ لحظة دخولنا أراه عاقدا حاجبيه حاملا هاتفه ويضغط عليه بملل ، ليس أنيقا كمثل صديقة لكنه مقبول بعض الشيء يبدو أنه قد جاء بالإجبار مثلي ، بيد أني سعيدة ولا أقاوم ابتسامة فرحتي وهو يكاد يبكي من الملل المحاصر به ، رفع رأسه فوجدني اتأمله بغباء ، لم يبد أي ردة فعل عاد إلى هاتفه وعدت نحو الزجاج الذي أود تقبيله لكن أخشى من ردة فعل أريج حين تراني أقبل الزجاج كالمجانين ! ، تقطع قهقهة أريج انشغالي بحفظ ملامح الرياض ، ألتفت نحوها باستغراب ، يبدو أنها سعيدة جدا تقهقه بشكل مبالغ به وعبدالله يمسك يدها مبتسما وأنس ينظر إليهما كما لو أنه يود سحق عبدالله وطعن أريج بالشوكة التي أمامه ، يغمز عبدالله لأنس ويرفع حاجبه استنكارا فتعتدل جلسته الشبه

نائمة ويترك هاتفه على الطاولة وفجأة يبتسم أمامي حتى بانت أسنانه المصفوفة كما في دعايات معاجين الأسنان ، ابتسامته مصطنعة جدا ، يتنحنح قليلاً عيناه تتعلق بي!

- كيف حالك لمى؟

- الحمد لله . . . وأنت؟

(يلتفت نحو عبدالله المنشغل بالتحدث مع أريج بوجه بائس)

- أنا بخير

يجيئنا النادل حاملًا معه أطباق ذات رائحة زكية ، يصفها على الطاولة أمامنا ، أنا وأنس نأكل بنهم متجاهلين بعضنا البعض وأستمتع في كل لقمة تدخل فميً أستلذ بها استلذاذ المحرومين ، أريج وعبدالله مستمرين في الحديث والقهقهة دون أن يحاولوا مشاركتنا في أحاديثهم ، لم أهتمّ لو لم تأكل أريج . . في داخلي صوتٌ يخبرني أنّها المرّة الأخيرة التي سأحضر هنا ، سأتناول طبقَ السمك اللذيذ ، الطبق الذي خجلتُ أن أسأل عن اسمه! على الأقلّ لأسجل في مذكراتي أنّي تناولته يومًا ما!

***

منذ رحيل مريم وبيتنا فارغ تماما ، أبي لا يقر في منزله أبدا منذ أن عهدته ، وبقية إخوتي تتلقفهم الطرقات خارجين كل منهم يبحث عما يشغل فراغه به حتى وإن لزمهم الأمر للجلوس على أرصفة الحارة ومراقبة المارّة ، أمي تجوبُ الحارة من منزل أم متعب إلى منزل أم سيّار ، ومن منزل مزنة الوضيح إلى

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بيت «الطقاقة فروحة» المرأة السمراء مؤنسة أهل الحي بأكمله يجتمع عندها النساء في نهايات الأسبوع حين تكون متفرغة لا زفاف تغني له ولا حفل آخر ، ويغنون جميعا أغاني قديمة على أنغام الدفوف ، تشاركها نساء الحي وبناتهن في الرقص ، حاولت أمي مرارا جلبي معها لقضاء وقت ممتع بحسب ظنها ، لكني لم أحبب الوضع المتراقص داخل صالة فروحة ، ويزعجني جدا سحبي بالإجبار داخل «حلبة الرقص» ومحاولة ترقيصي حتي وإن لم أكن أعرف من الرقص شيئا ، وإن أبديت الرفض لعدم قدرتي على مجاراة الراقصات أمامي ، استاءت وجوه من يحاولن إجباري والتصفيق لتشجيعي ، ويأخذن الرفض على محمل شخصي ، قد حاولت مرة تقليد رقص نوال ابنة جارتنا ، لكن رقصي أثار ضحك الجميع! كنت أرقص باستخدام جميع الجوارح وكأن الهدف من الرقص هو تحريك الجسم بحركات غير متناسقة بتاتا . . . وجرتني مريم نحو الكرسي قبل أن أخجلهم أكثر .

لأن المنزل أصبح فارغًا ، فرصة خروجي تزداد في كل مرة تغيب أمي! أما عن السوق ووظيفتي الشريفة هناك فحضوري يبدأ باكرا وأعود مبكراً أيضا ، عذري الدائم الاختبار الصعب المختلق الذي يجب عليّ الاستعداد له جيدا عند أريج! ترأف بحالي أمي وتدعني أذهب عصرا لأعود في بدايات المساء وتستلم بضاعتنا «أم مشعان» حتى تنتهي فترة اختباراتي التي أقسمت لها أمي أنها ستنتهي قريبا ، مع أنها لم تبدأ بعد ! ، أوصلتني أريج للمنزل نحو الساعة الثانية عشرة وأجزم أن أمي

نائمـة بالداخل ولا أحـد يعلم بموعـد وصـولي ظنًا منهم أني أعتكف في غرفتي كما هي العادة ، نزلت من السيارة ووطأت الأرض بحذائي القديم ، رأيت أضواء سيارة مقبلة من بعيد ، دخلت بسرعة وتحرك شاكر . . بخطى حذرة دخلت المنزل أضم عباءتي تحت ذراعي ، وأمشي خوفا من أن يفتضح أمري ويعلم أحدهم أني قد عدت للمنزل في هذا الوقت المتأخر ، ارتجفت في مكاني وأنا اسمع صوت الباب ورائي يغلق! لم أتحرك خوفاً من أن يكون أبي أو ياسـر حـينهـا سـيـقـتلني أحـدهمـا بلا جدال . . .

- بسم الله! ماذا تفعلين؟

صوت صقر جاءني فـازعاً من وقوفي بشكل غـريب . . خفت أن ألتفت فيرى المكياج الذي لم يبرح عن ملامحي ، وخفت أن أضل في مكاني ويكتشف خوفي فتثبت جريمتي . . بلعت ريقي وابتسمت وألتفت نحوه

- ماذا؟

(مندهشا)

- هل كنت في حفل زفاف؟

- ااامم ، كنت عند فروحة . . حفلة سمر صغيرة

- أها . .»طيب» تصبحين على خير

ومضى نحو غرفته يدندن وكأن الامر اعتيادي بالنسبة له ، صقر بالتحديد لم يهتم بأحد يوما ، لذلك دخولي وخروجي وكل ما أفعله لا يعنيه أبدا . . بمزاجه طبعا ، دخلت غرفتي مبتسمة لا أريد غسل المكياج الذي يملأ وجهي ، أود أن أحتفظ

به كشيء جميل حصل لي دون أن أطلب ذلك ، لا أريد ان ينتهي هذا اليوم لفرط جماله ، لا أود أن أنام وينتهي اليوم الوحيد الذي أحسست به بصدق . . أني كائن يمارس الحياة!

***

- استيقظي ، استيقظي يا مدللة

صوت أمي الغاضب أيقظني من حلم جميل ، فتحت نصف عيني لأرى ماذا تريد

- أي اختبار تتحدثين عنه وأنت لم تستيقظي حتى الآن!

يجيئها صوتي مليئا بالنوم

- كم الساعة؟

- الرابعة عصرا يا فالحة

أقفز من فراشي بذعر . .

- لمَ لم توقظيني لأذهب؟

- ومنذ متى وأنا اوقظك؟ حسبتك قد ذهبت !

- أووف

تلتقط ملابسي الملقية على الأرض وتضعها في سلة مهترئة وهي تقول أشياء تشبه الشتائم وتخرج حاملةً سلة الملابس ، تاركة إياي غاضبة على المحاضرات التي فاتتني ، حتى لو أن كذبة الاختبار المختلقة لم تكن موجودة بيد أني أحرص على الحضور بالعادة لكن سرقني النوم وحلمي الجميل من أن أحضر ، وسهري البارحة وأنا أحاول استذكار كل اللحظات بداية منذ ركوبنا السيارة نهاية بوداعنا لعبدالله وصديقة ذو الحواجب المعقودة مللاً ، عادت أمي إلى غرفتي

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بيدها مغرفة الطعام ، بقميصها البني مزهرا بورود أرجوانية كبيرة الحجم ما أن رأتني أصلي الصلوات الفائتة جلست على سريري البالي تنتظر انتهائي من الصلاة ، أسلم ، أضل جالسة على السجادة وعيناي نحوها!

- عمتك الجازي قادمة من الشرقية اليوم للعشاء ، وكأنها لا تعرف بالرياض سوى أخيها سعود ، وكأن أهل سعود مكفولون بضيافتها لا أعلم لماذا لا تذهب لأعمامك محمد أو خالد ، لماذا تأتي إلى سعود فقط وكأنها تنقصنا هي وبناتها ، المشكلة أنها حين تأتي لا ترى والدك إلا نادرًا أو عن طريق الصدفة ، كيف تجرؤ على الذهاب لمنزل أخيها وهي تعلم أن فرصةِ رؤيته ليست أكيدة!

تركت أمي تفرغ غضبها على عمتي الجازي وأنا أطرق شرشف الصلاة وأضعه داخل السجادة وألفها وأضعها تحت السرير وأجلس بجانب أمي لأسمع بقية التذمر المصبوب صبا على أذني ، ولأن مريم لم تعد موجوده فكل ما سوف تتحدث به أمي سيكونِ علي لزاما الاستماع له ومشاركتها في جميع الأحاديث بدءً من التذمر من والدي نهاية بالأحاديث عن جاراتها اللاتي تعرف عنهنّ أصغر تفاصيل حياتهم!

- وهل ستنام عندنا؟

- نعم ، تقول أن لديها موعد في مستشفى التخصصي غدا ، ابنتاها عبير وفاطمة ستناماان معك هنا ، أما اطفالها الثلاثة سينامون مع فهد وعمر وسعد ، وهي سأفرش لها في مجلس الرجال!

- يا ليوم سعدي!

تقوم والغضب يأكلها وتتجه نحو الباب

- «قومي بس» رتبي الصالة وتعالي ساعديني في المطبخ الآن هيا

خرجت من غرفتي وهي تصوت لسعد وعمر طالبة منهم إحضار بعض الحاجيات من دكان العم عوض ، وخرجت أنا على مضض وبتثاقل أنفذ ما أمرتني به وأنا اشتم عمتي وألعن فاطمة وعبير .

-١٧-

ولماذا يجب أن نبـرر هذه العـزلة؟ لماذا يـجب أن نوجد أسبابًا مقنعة لهذا الحزن؟ لماذا يجب أن نخفي أننا ولدنا هكذا بائسين!

أفنان عبدالله الحقيل

عـمتي الجـازي ، تصغـر أبي بخـمس سنين وهي تعلم علم اليقين مدى التعاسة التي توسمت بوجوهنا منذ أن صار والدي ولي أمـر هذه العـائلة البـائسـة ، مع ذلك مـا زالت تصـر في كل سنة على الحضور هنا وقضاء وقت كافي لاكـتشاف التغيرات التي حدثت من بعد ذهابها مع أنه على مر السنين الماضية لم يتغـير شيء سـوى أجسـادنا التي تنمـو ، ونظرتنا تجاه الحيـاة ، فالصـالة الزرقاء هي ذاتها . . الأريكة القديمة المهترئة لا تتغـير ، الأواني . . كلّ شيء يبدو كما هو تقريبًا وإن حاولت أمي تجديد المكـان فـهي تبـدل الأريكة الوسطى مكان الأريكـة الصـغـرى ، النجفات البيضاء لم تبرح عن الجدار أبدا ، وعلى سبيل التغيير تحـترق أحيـانا . . أمـامنا تلفـاز خـشبي الأطراف يشبـه الكهل القديم ، وجه أمي هو ذاته وتزداد تجاعيده في كل سنة جديدة ، في كل تجعيـدة تكبر أمي خمس سنين من الحزن الذي يظهر من عينيها ، عمتي الجازي لم تتغير أيضا مازال شعرها المعكوف

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

هو ذاته بيد أنه مؤخرا زادت بعض الشعيرات البيضاء ، وابنتاها اللاتي لطالما شبهتهن بـ«نفيسة» و«درية» أخوات ساندريلا . . يطعن أمهن طاعة عمياء حتى مع قسوتها معهن وقرصهن أمامنا على أتفه الأسباب ، عبير الكبرى تبلغ السابعة عشرة كما أذكر ، لكنها اكتفت بشهادة المتوسطة وأكملت مشوار حياتها في تنظيف المنزل وخدمته ، وفاطمة تصغرها بسنة وهي الأخرى لم تكمل تعليمها وتساعد أختها في المنزل أيضا . . ذوات شخصية معدومة فعلاً وكان لعمتي وقسوتها عليهن الدور الأساسي في مسح ملامح شخصيتهن وصب شخصيتهن في قالب معين صنعته عمتي بنفسها ، حتى صرن كما ينبغي أن يكنّ . . حسب مزاج عمتي .

كنا نفترش الأرض تجهيزًا للعشاء الذي أعدته أمي ، طبخت لنا «جريشاً» شهيا ، على يميني أمي وعلى شمالي أخي فهد ، ويجلس بجوار فهد الأطفال الثلاثة الملتصقين بملابس أمهم ، ثم تتلوهم عمتي الجازي وعلى جانبها «درية ونفيسة» . . السفرة قد أعدت باجتهاد من أمي ، هذا صحن الجريش المعد منذ بداية العصر ، بجانبه سلطة خضار . . وعلى أطراف السفرة علبة اللبن الكبيرة حولها عدة كؤوس . .

- حياكم الله «قولوا بسم الله»

قالتها أمي وهي تغرف الجريش لعمتي وتمده لها مبتسمة بقدر الإمكان ، من باب المساعدة قمت بصبّ اللبن في الكؤوس ووزعته على الجالسين جميعهم ، بدأوا يأكلون بصمت مطبق ولا نسمع سوى صوت الملاعق يضرب في الصحون وصوت مضغ

السلطة من فم أبنائها الثلاثة ، فرغوا من الطعام ، ركض الأطفال خلف فهد يمارسون اللعب . . أمي وعمتي يتبادلن الأحاديث وأمامهن إبريق شاي كنايةً عن كرم الضيافة ، بقيت أنا وعبير وفاطمة نحمل باقي العشاء إلى المطبخ ونغسل الصحون سوية ، تبتسم فاطمة وهي تنظر إلى عبير المتضاحكة :

- يقولون أنك قد توظفتِ

أنظر اليهم بملل ووجه مكفهر

- نعم

تنطلق ضحكات حمقاء من شفاههنّ

- ما شاء الله أين؟

- في السوق!

تشهق إحداهما بتصنع بالغ

- تبيعين؟

أحاول إظهار لا مبالاتي وأنا افرك الاسفنجة على الصحن

- يبدو أنكما تعرفان كل شيء لمَ السؤال؟

تتضاحكان فتجيب الأخرى

- لتأكيد الأجوبة

- وهل تأكدتن من ذلك؟

عادتا للضحك من جديد وأنا في الوقت ذاته أود مسك شعرهم الطويل جدا وضرب رأسيمها ببعض واستبدال الضحك بالبكاء ، لكنني صرت أغني وكأني لم أهتم فعلا ، وعادتا للصمت من جديد!

***

حرصت على الذهاب إلى السوق بانتظام منذ أن جاءتنا عمتي ، ومقصدي الأول والأخير هو الهرب من وجه عمتي وبناتها الغريبات ، كنت أنتظر العصر بكل حماس يتملكني ، للهرب من هذا المكان والجلوس أمام بضاعتنا قدر ما أستطيع ، وعلى غير العادة أفرح حين أسمع صوت سيارة سيف في الخارج ، أركض نحوها بكل نشاط حتى أمي استغربت هذا الأمر ، لكنها أدركت أن مقصدي الهرب لا البحث عن لقمة العيش ، وعلمت ذلك حين رأتني لا أحادث بنات عمتي حتى وإن وجهن لي الحديث أفتعل الصمم بل وأنام مبكرا وأهرب للجامعة صباحا حتى وإن كانت محاضرتي تبدأ متأخرة ، لحسن حظي أن أريج هي من تذهب بي إلى الجامعة وإلا كنت قد جلست بالإجبار هنا مع هذه العائلة الغريبة فعلًا ، مع هذه الأم التي تمارس العنف بشتى الأشكال وعلى مدار الساعة حتى أننا لا ننتهي من وجبة ، إلا وقد صفعت إحدى أبنائها لمجرد أنه بدأ قبلنا او تجشأ بشكل لا إرادي! مرعبة عمتي الجازي أظنها تكره زوجها للحد الذي جعلها تنتقم من أبنائه بهذه الطريقة المؤسفة أو هكذا قررت أنا ، لا أنكر عنف أبي بالتأكيد لكن أبي رجل وطبيعة الرجال هي القسوة على الغالب ، ويضل خارجًا على الدوام وهذا شيء مريح بالتأكيد على عكس أن ألتصق بأم لمدة ٢٤ ساعة يوميا على مر السنين وفي كل ساعة ألتقي شيئا مؤلما منها ، إن لم تمد يدها فهي تمد لسانها وتوبخ أبنائها أمام الجميع ، كأنهم معتادون على هذا الأمر ، تقبلهم له شيءٌ ملفت ، بعد كل صرخة أو ضربة أو قرصة يتلقونها

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

ووجوههم تتحول بشكل اعتيادي نمطي وكأنهم رجال أليون ، تنزل أعينهم للأسفل وينكمشون داخل ذواتهم حتى تبعد عينها عنهم!

***

حين عدت من الجامعة الساعة الثانية ظهرا وجدت أمي بالمطبخ تعد الغداء وإخوتي قد خرجوا ، وفهد والأطفال أمام باب المنزل يلعبون بكرة بالية . . أما عمتي كانت بالصالة تضرب عبير وفاطمة بشكل مرتب فتقرص الأولى وتشد شعر الثانية ثم تعاود صفع الأولى وتشد أذن الأخرى وهن يطلبن السماح من أمهن بشكل غريب ومرعب بعض الشيء ، هرعت للمطبخ بعباءتي . . خفت أن تراني وتضربني معهن وأغلقت الباب خلفي مرعوبة من صوت الصراخ في الخارج وكأني أول مرة أرى أحدا يُضرب أمامي ، التفت نحو أمي المنهمكة في تحريك القدر وإضافة بعض التوابل

- ما الذي فعلاه حتى تستحقان هذا الضرب؟

تجيبني أمي وهي ما زالت مشغولة

- وجدتهن قبل قليل على الهاتف يضغطن أرقاماً عشوائية ومن ثم يطلبن أسماء غريبة لمجرد اللعب

- يبدو أن صفة العنف في عائلة أبي أمر موروث

تبتسم أمي ضاحكة على سخريتي من عائلة أبي ، أقف بجانبها أطل في القدر لأرى ما الذي يجعل أمي لا تلتفت نحوي وهي تتحدث . . ومن ثم أهرب نحو غرفتي بعدما هدأ

صوت الصياح خارجا وأغلق الباب خلفي وأنتظر العصر بفارغ الصبر!

***

لم أكن أجد السوق ممتعا إلى هذا الحد حتى مع هذا الحر الذي يجعل عباءتي تلتصق بي إلا أني مرتاحة بعض الشيء على أن أكون في المنزل ، والمتعة لا تكتمل إلا حين يأتي المساء ويجيء معه فيصل حين يحاول كبح ابتسامته ولا يستطيع! ولا أستطيع أنا منع نفسي من النظر إليه ، مع أنه يضل واقفا يوجه عيناي نحوي ويثير الشك في نفوس أم مشعان ونوير ووضحى إلا أنه يتجاهل الجميع وكأنما لا أحد موجود في هذا السوق المزدحم سواي ، وهذا الشيء يشعرني بالاهتمام فعلًا والخوف أحيانا لكنه خوف لطيف يدغدغ بطني قليلا ويرفع مستوى الدم نحو وجنتاي فتحمر خجلا لكنه لا يستطيع اكتشاف خجلي لأن برقعي القصير لا يترك له فرصة لذلك ، قد حذرتني «أم مشعان» مرارا من هذا «الوليد» تصغيرا لكلمة «ولد» لكني لم أهتم لتحذيرها بقدر اهتمامي بمصطلحات «أم مشعان» وتصغيرها لكل شيء بداية من تصغيري ومناداتي بـ«بنية» نهاية بتصغير فيصل وتسميته بـ«الوليد» ، ألهذه الدرجة نحن بعينيها صغارُ لم نعي لهذه الدنيا بعد؟ أم أنه تحقير لما نعيشه سويا أنا و«الوليد» هذا ، لكن الأمر الجيد بهذا كله أن أم مشعان لم تخبر أمي بعد بقصة «الوليد» ، لأنها وإن علمت فسيفتح باب تحقيق طويل عريض حول ما يكون هذا الولد ورغباته وردات فعلي وسيل من نصائح لا تنتهي وتحذيرات عده

تذكرني بأن الرجال جميعهم ذئاب تحاول انتهاز الفرص للهجوم على النعاج ! ، فكرة الذئب البشري والحمل الوديع تثير حمقي . . . تذكرني بموقف قديم حصل في المتوسطة . . حين كان كل يوم اثنين من كل شهر يأتون لنا بداعية لا أدري من أين تجيء وتبدأ بالصياح والنياح حول موضوع الذئاب والنعجة المسكينة وشر كل ذئب وتفكيره الدائم حول الهجوم على تلك النعجة الحمقاء ، ويجب على النعجة التي تمثل فئة الإناث بأكملها أن تلتزم الحيطة والحذر من كل رجل ينظر إليها أو حتى يلقي عليها السلام وتعلم بأن مقصده الأول والأخير هو القضاء على هذه الفريسة بأنيابه الحادة ولا تعطيه فرصة لذلك بل وتهرب سريعا قبل أن ينقض عليها فلا منقذ لها من بعد فكيه إلا الموت! رفعت يدي بتساؤل مراهقة أرهقها تكرار الكلام ذاته في كل مره باختلاف الصيغة والأسلوب ، نظرت إلي وانا اتوسط الفتيات بالساحة الداخلية جالسين على الارض جميعا متوجهة أبصارنا نحو مسرح مرتفع وتجلس هي على المسرح بكرسي وطاولة

- نعم بنيتي ماذا لديكِ؟

أقف مكاني ، أتناول مكبر الصوت بيدي بعدما سلمتني إياه المراقبة التي أرى في عينيها خشية السؤال

- عفواً ولكن نحن لسنا بنعاج نحن بشر نملك عقلاً نفكر به ونستطيع تميز الصواب من الخطأ

عقدت حاجبيها ثم نظرت إلي مطولا حتى استعادت مكبر الصوت لتجيبني من جديد وأنا ما زلت واقفة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

- أنا أعلم أنكن لستن نعاج ، إنما هو ضرب مثال أقرب للتوضيح ، والعقل الذي تملكينه ليس كاملا إنما هو ناقص كما أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم! لذلك يجب علينا أخذ الحيطة والحذر من هذا الأمر!

حاولتُ أن أطيل تساؤلي لكنّها قطعت فكرة التساؤل حينما قالت للمراقبة بصوت غاضب

- نُكمل أم أنّ هذا وقتٌ الأسئلة الذي لا أعلم عنه؟

كانت نظرات المراقبة مركّزَةً وموبّخة ، لم أكن ما أفعل حيالها إلا تجاهلها ، بعد أن انتهت المحاضرة غبت مع جمع الفتيات ولم تتمكّن المراقبَة من إيقافي ، حيثُ أنّها كانتَ تبحثُ عنّي بعد المحاضرة مباشرةً كما قالت لي صديقتي «هنادي» التي ما لبثت حتّى جاءها والدها وتوبخني لماذا أقحم نفسي في المشاكل دائمًا ، كانت تخافُ عليّ من تسلط مدرسة الرياضيات وتقول لي بلهجة بريئة طفوليّة

- «احمدي ربّك أبلىً «منى» حامل وإلا من سيفكّك منها؟»

كنت أبتسم نشوةً أنّا هربنا من المراقبة ، وانتصارًا على استاذة «منى» الغائبَة! ذهبت هنادي . . وبقيت أنتظر موعد وصول من يقلّني للبيتِ ، الموعد الذي مهما تأخر لا يجوز لي أن أنبس ببنت شفة أو تضجّر .

في اليوم التاليً كانت الأستاذة «لولوة» أستاذة التوحيد تدخل الفصل بتنورتها السوداء الطويلة ، وقميصها الأبيض ذو الأكمام الطويلة ، وعطرها الصباحيّ البسيط ، كان فيها أمرٌ لم

ألاحظه من الوهلة الأولى لكنّي كنتُ أعلم أنّ فيها أمرٌ مختلفٌ هذا اليوم ، عرفته حينَ أشارت صديقتي «عهود» إلى شعرها ، فاكتشفتُ أنّ الاستاذة «لولوة» قد رفعت شعرها هذا اليوم على غير العادَة ، التزم الفصل الصمتَ حينمَا بدأت في الحديثِ تقول

– في البداية أودّ التعريج على الحادثة التي حصلت في المصلى أثناء المحاضرة ،

هنا انقبض قلبي وشعرت أنّها ستوبخنِي أو تقوم باستدعاء المراقبة . . أكملت

– جزى الله الداعية «مهرة» خير الجزاء واعلموا أنها لم تحضر إلا لتقديم علم نافع ننتفع فيه في دنيانا وآخرتنا ، وليس من الجيد التشكيك فيما تقوله الداعية أمام الملأ والجموع الغفيرة لأنكم كما تعلمون يا بنياتي هنالك عقول تحاول انتهاز الفرص للحصول على مشككات تجاه الداعيات والتوعية الصحوية ، والأجدر مناقشتها بشكل انفرادي علها إن كانت مخطئة تصححه بدون أي إحراج يخدش كيانها أمام الجميع ، بغض النظر عما كانت تقوله الداعية «مهرة» فإن لكل شخص نظرته تجاه الأمور وإن اختلفت أنا وهي فإننا نجتمع كلنا في نقطة واحدة ألا وهي الإصلاح التوعوي لكن يا بنياتي ، أعتقد أن الداعية مشكورة أساءت فهم الحديث ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين سُئل عن معنى نقصان العقل في الحديث الشريف أجاب بـ «أليست شهادة المرأتين بشهادة رجل» وليس الأمر كما صورته هي وذكرت بأنه عدم كمال العقل الأنثوي

الذي كرمه الله تعالى ، الشيء الآخر فكرتها في زرع الخوف من الجنس الآخر وكأنه كائن فضائي غريب يهدد وجود الأنثى على هذه الأرض وإعطاء الأذن المبدئي بأن كل ما يفعله الرجل «الذئب» من أمور خاطئة كأنه شيء وارد ، حين نقول انتبهوا من السارق سوف يسرق واحذروا من القاتل سوف يقتل بفكرتها هذه كأنها تخبرنا بأن الرجل بأمر مفروغ منه سوف يكذب وسيجرك للرذيلة ، المجتمع الكامل الذي يفكر بهذه الفكرة يعطي الرجل النظرة المتوقعة منه والأذن الأولي لممارسة هذا الخطأ وكأن الفتاة التي تسير بالشارع مباحة له ولا يفترض على النساء سوى الهرب!

كان كلامُها عذبًا يغسلُ ما كان في قلبي من شكّ ، ونورًا يفتحُ أمامي أبوابًا مغلقَة ، أزاحت عن خاطري كل الكلام المكوّم الذي عجزت عن قوله بطريقة مرتبة وكأنها كانت تعلم بكل أفكاري فرتبتها وحسنتها وذكرتها بطريقة لبقة ومنطقية ، علمت أن الأستاذة «لولوة» لم تكن مدرسة توحيد بسيطة فحسب ، كانت قدوة حسنة تركت في صدري وصدور صديقاتي بذرة حسنة أثمرت وأينعت مع الأيام ، ونمّتها لنا في كل مرة كانت تناقشنا عن أمور لا نقوى على مناقشتها لعدم تقبل فكرتها أو الخزي منها ، كان الحظ مبتسمٌ لي حين شاءت الأقدار أن تدرسني لمدة فصلٍ دراسي واحد ، ثم خطفتها الأيام عنّا ولم نعلم أين ذهبت .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-١٨-

الفقيراتُ هُنّ الجميلات كالورد في ساحة المعركة!

محمود درويش

على ذكر سيرة الجميلات التي ذكرهنّ الأديب القدير محمود درويش ، أظن أن سيف يؤمن بما قاله الأستاذ محمود عن الجميلات ، وآمن بفكرة ساحة المعركة حتى ظن أن المركبة التي أجيء بها ذهابا وإيابا نحو هذا السوق تشبه الحرب الخفية التي شنّها ضدي باختلاف أنها حرب باردة لا قتال فيها سوى تبادل النظرات بطريقة مقلقة جداً ، صقر المصنف كمحرم لي في هذه المركبة ليبعد الشبهات بيني وبين سيف لا يهتم! وغير مدرك لتلك العيون المتعلقة على مرآة السيارة تتفحصني حتى أخمص قدميّ ، أظنه لو علم بما يقوم به سيف من توجيه سلاح العيون نحوي لن يكترث! حاولت بدايةَ الأمر مقاومة حرب العيون التي بدأها سيف وواجهته بنفس سلاحه حتى كسر كل أسلحتي فأعلنت راية الخجل مستسلمة ،لم ينتهي عمّا يفعله بل زادت حدة ما يقوم به أكثر حين بدأت أتجاهله ،لم يكن سيف في بداية الأمر مهتما بالكائن الجالس في المرتبة الخلفية أبدا بيد أنه أصبح ذا عيون متعلقة على المرآة بشكل

مفاجئ وكأنما اكتشفني فجأة دونما سابق إنذار ، ولست بالشكل المهيأ بأن أجذبه فجأة ، فبرقعي الواسع مع عباءتي الحرير لا يعطي انطباع سوى أني غير مؤهلة لتقبل النظرات ، حتى قميصي الكحلي المزهر بورود صفراء بالتأكيد سبب وجيه للهرب من هذه الفتاة النحيلة التي تملك عينين جميلتين فقط! لكن ما قيمة جمال الورد في ساحة المعركة؟

دخلت المنزل وتركت مهمة تنزيل البضاعة على عاتق صقر وصديقه ذو العينين المحدّقتين ، كانت بنات عمتي في استقبالي استقبالاً حافلاً ، فالمنزل قد فرغ بمن فيه ولا أحد غيرهن أمام التلفاز يقلبن قنواته بملل فمنذ حضور عمتي سمح لنا الوالد القائد باستعماله يوميا حتى وقت عودتهم اعتبارا أنه كرم الضيافة المعطاءة ويستحق الشكر والثناء على عطائه النبيل ، اتجهت نحو غرفتي لأبدل ملابسي وأستحم بشكل سريع . . وحين خرجت كان الوضع ذاته . . فاطمة مستلقية تلعب بضفائرها الطويلة وعبير تمد يدها كل دقيقة لتغير القناة ، جلست جانبهم محاولة إضافة روح جديدة لهذه الجلسة التي لا أمارة فيهَا أنّها ستغدو جميلَةً أبدًا ، بدأت بسؤال اعتياديّ :

- أين أمي؟

تجيب فاطمة

- خرجت مع أمي نحو أحد الجارات حسبما أعتقد

- آها ، هل تناولتن الطعام؟

(تلتفت عبير)

- بعض الحلويات التي أحضرها ياسر للصغار

- ياسر موجود؟
- في غرفته

توجهت نحو غرفته دققت الباب بلطف ثم فتحته دون أنتظر إذن الدخول ، وجدته عاكفا يقرأ كتابا كبيرا لدوستويفسكي ، نظر لي وابتسم بلطف :

- ماذا تريدين؟
- أردت الاطمئنان فحسب
- ماذا؟ تخافين ان تلتهماك الطفلتان اللتان في الصالة؟

«أبتسم»

- نوعا ما
- وهل اطمأن قلبك الآن؟

أتجاهله وأسحب الكتاب من يده واقلبه بين يداي ، ويبدوا أن حجمه الثقيل دفعني لإرجاعه بين يديه

- يبدو أن البنات قد أرهقن الملل ، وأنا اشعر بالجوع قليلا
- والمطلوب؟
- حاول أن تبدو بمظهر الأخ اللطيف وتذهب لإحضار عشاء من البوفيه الموجودة نهاية الشارع!

(يبتسم)

- وهل الأكل من وسائل الترفيه؟ أقصد هل الطعام يقاوم الملل؟
- الأكل اللذيذ بمثابة المتعة اللحظية التي تنتهي بمجرد امتلاء بطنك
- ولحظات قياس الوزن أيضا؟ هل تعتبر متعة لحظة؟

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- لا تسأل نحيلة عن متعة الوزن الزائد ، ولا تسل بدينة عن وزنها الزائد أو الناقص أيضا

- الأجدر بي حذف مفردة الوزن وما يخصها بشكل نهائي مع الفتيات

- هذا أفضل

(يقوم من فراشه بعدما كان مستلقيا)

- سأقوم بإحضار ثلاث وجبات فقط ، اخاف أن أؤجل أكثر فيكثر العدد

- شكرًا

أبتسم وأغلق الباب خلفي ، أذهب نحوهن وهن على الحال ذاته ، أخبرهن أن ياسر سيحضر لنا عشاءً ، وهذه مناسبة سرية لا تتكرر دائما ويجب التكتم عليها .

***

- الرجل الذي يظلّ واقفا في مكانه ينظر نحو هدفه ولا يتقدم ، رجل جبان

قالتها أريج ونحن في طريقنا نحو الجامعة ، لم يكن مزاجي مؤهلا لمناقشتها حول موضوع فيصل ووقوفه اليومي على هذا الحال لمدة أشهر ، لكنني فتحت الموضوع معها ويجب إنهاؤه :

- لنضع له أسبابا تجعله واقفا طوال هذه المدة ، لنفترض أنه يخشى أن لا أتقبل وجوده!

- لمى ، هو يخشى التقدم خطوة واحدة للأمام! خطوة واحدة لن تكسر رجولته ولن تهزم قوته ، إنما هو مستمتع في لعب دور الشاب الجذاب وينتظر منك التقدم نحوه!

- وهل أتقدم؟

- دعي لعبة الخطوات للرجل يبدأها ، خطوة بخطوة والبادئ أظلم!

- وإن ظل على مكانه متأملًا بي من بعيد

- عليك تغير مكانك حتى يفقدك ، فالرجال يبحثون عن الأشياء التي لا تُملك بين أيديهم وإن حصلوا عليها ، بحثوا عن شيء بعيد آخر ، لا تُثمن الأشياء إلا حين يصعب حصولها .

- أتظنين أنه يخشى أن يحصل علي؟

(تقهقه ساخرة)

- لا بالتأكيد إنّ ما يفعله لمجرد التسلية . . شيئان لا تثقي بهما الحظ والرجل كلاهما ليسا على حال واحد .

- باعتقادي أنه يظن إن تقدم خطوة واحدة حينما أعطاني رقمه في بادئ الأمر

- لو كان مهتماً فعلاً لما ظل عاكفا ينتظر صدقة مكالمتك

- وماذا بيده أن يفعل إن كنت تجاهلت رقمه وتجاهلت وجوده

- أن يأتي ويتقدم نحوك ويخلق مجالا للحديث . . . حتى لو كان حديثا أحمقا ، ليس هنالك شيء أغبى من الوقوف في مكان واحد لمدة اشهر .

أصمت وأشيح بوجهي نحو النافذة ، وجود هذا الـ «فيصل» يقف في عنق أيامي حسبته قد يكون وعلى سبيل الخيال والافتراض شيئا يضيف على مرارة روتيني شيئا ، أمرًا

يفصلني ولو للحظات عن هذا الملل الحياتي"! يضيفُ عبقًا من لذة! لكنه صار شيئا لاً يستساغ ، استنزاف المشاعر الذي حضي به هذا الـ «فيصل» يكاد يخقني من هول الشعور المكروه ، في لحظات باغتني بها مع نجاة الصغيرة ، ويسرق من «أبو نورة» بعض الصدف الفكرية حين يجيئني مع صوته حين يغني «أعترف لك إني فعلاً ما عرفتك ما عرفت أوصل مع قلبي لحل وما فهمتك» ، كان من الأجدر ألاّ أترك لقلبي الشغوف بالمشاعر فرصة واحدة يتمادى بها ، ويتركني أحاول جاهدة إخماد شرارة أشعلها فيصل .

***

كل بدايات الأشياء تبقى جميلة تحكمها الدهشة الأولى كونها المحكم الأساسُ في كل التجارب الجديدة التي تُخاض .

اتساع عينَي عبير وشهقة فاطمة الخفية كانتا تعبران عن الدهشة الأولى فعلاً ، حين كنا نرى فلما على جهاز أريج المستعار ، عن طريق الخفاء والتستر . . نجلس متراصين على السرير . . ظهورنا تلاصق الجدار وأقدامنا ممددة بشكل عرضي ، الباب مقفل بإحكام خشية أن يباغتنا أحد ونحن نرى فيلم «تايتنك» للمرة الأولى لعبير وفاطمة والمرة المائة بعد المليون لي ، فضلت التأمل في وجه عبير وفاطمة على أن أرى الفيلم ، تفاعل تعابير الوجه مع الأحداث ، الضحكات العفوية ، ابتسامة إعجاب لموقف ما ، لمعة العيون السعيدة حين يقوم «جاك» باحتضان «روز» ، وعبوس الوجه أيضا كان له نصيب من التأمل حين يتحدث «كال هوكلي» بتعجرف . . كل شيء

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

في عبير وفاطمة بدى طبيعيًا بلا تصنع أو شيء آخر يحكم تعابيرهما . . بدتا لطيفتين جدا ، صغيرتين على التعامل الجاف ، وتستحقان اللطف ، ابتسامة عبير الخجلة حين رأت مشهد التقبيل ، وضحكة فاطمة في المشهد ذاته ، أتاحت لي رؤية الشخصيات الموؤودة في ذاتهما ، وبكاؤهما حين علمت «روز» بأن «جاك» قد فارق الحياة ، بكتا دون امتناع أو توقف ، استمرتا على ذرف الدموع والشهقات البكائية حتى انتهاء الفيلم . . ومن بين الدموع تنفرج ضحكة امتنان وإعجاب لهذه اللحظات المسروقة من أهالينا جميعا ، من الأم الغاضبة الجالسة في الصالة الزرقاء بجانبها أمي ترتشفان الشاي وتأكلان الفستق يحفهما إخوتي الكبار ، وبقاء فاطمة وعبير في غرفتي بعيدا عن الرجال ، حتى وإن كانوا يصنفون كأقرباء يبقى الانفصال بين الرجال والنساء طالما لا يعدون كمحارم لهم عادة تم توارثها ، أغلق شاشة الحاسب المحمول وأنظر إليهما مبتسمة :

- ترى ما الذي كانت ستعيشه روز على ظهر السفينة لو أن جاك لم يفز بالرهان؟

«تجيب فاطمة»

- ستغرق بالتأكيد ، فليس هناك جاك آخر يقوم بإقناعها وعزفها عن فكرة الانتحار

«تشاركنا عبير»

- هل يولد الحب في القلوب فجأة؟ يومٌ واحدٌ قضياه جاك وروز سوية أصبح حبًا رمزيًا أسطوريًا يحكى على ألسنة العشاق؟

- إنما هي الدهشة الأولى للإعجاب ، كل التجارب الجديدة تبدو مذهلة جدا ما دامت تحكمها الدهشة الأولى!

«تسترسل عبير»

- ماذا لو لم تغرق العبّارة؟ هل سيكون حبهما في المقام ذاته؟

- ما زلت أشكك في حب الإثنين ، لا يأتي الحب سِراعا ، فالحب لا يُصنع ولا يُخلق ، إنما هي بذرة في القلب تنميها الأيام نبضة نبضة . . حتى يتشكل حبٌّ قوي الأساس

«تلتفت فاطمة نحوي بانفعال»

- وماذا تسمين حبهما؟ ووفاء روز حتى عمر المائة؟ أليس الحب وفاء؟

- جاك وروز خطفتهما دهشة الحب لا الحب ذاته ، حتى باتا مندفعين كل واحد تجاه الاخر ، متجاهلين معنى الشعور ومرحلته متحسسين جماله فقط ، أقصد أن الإثنين كانا تحت وطأة الاندهاش الأول ، كلٌ منفتن بالآخر تحكمهم تجربتهم الأولى التي يعيشها الاثنان ، ولذة الشعور لا يصنف كحب خالص مادام قد ولد ومات في اليوم ذاته ، الحب لا ينمو بعدد الساعات المحسوبة ، ما ينمي الحب هو الشعور المتفرد الذي يعيشه المتحابان على مر الأزمنة ، في تغير النظرة الحياتية للطرفين المتحابين ، الحب شعور سام . . والسمو هو الارتفاع ، وكل الأشياء المرفوعة لم توجد عبثاً في السماء إنما تدرجت حتى ارتفعت حتى اعتلت حتى سمت في مكانها العالي .

تتضاحك الاثنتان وأعلم من ضحكاتهما أنهما ايقنتا

بوقوعي الخالص بكل ما تحدثت عنه ، أحاول إغلاق مجرى الحديث وأنا أقوم من مكاني وأتجه للباب خارجة للصالون الأزرق ، تاركة إياهم بظنونهم يتحدثون كما يشاؤون .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-١٩-

أمي غاضبة جداً ، وأنا أحاول فرك عيني بعد النوم الطويل الذي حظيت به ، أحاول التجاوب مع غضب أمي التي تقف فوق رأسي وعلمتُ بعد التركيز الشديد ومحاولة الاستيقاظ من النوم المسيطر على جوارحي أنها غاضبة علي لأني «وقحة» بحد قولها ، ولأني وقحة لم أستيقظ لأودع عمتي ولا أبناءها وبناتها ونمت طوال الصباح حتى الظهيرة ، كان المفروض أن يعتريني شعور سلبي نظراً لتوبيخ أمي وغضبها وتوبيخها لي قبل أن أستقظ حتى ، لكن خبر رحيلهم نزع كل شيء يحاول أن يضايقني وابتسمت ببلاهة ، سعيدة برحيلهم ولولا أن أمي بقيت واقفة تعيد وتزيد في موضوع وقاحتي ، لرقصتُ رقصة الفرح ذاتها . . لكني خفت أن تغضب أكثر وأصبح ضحية الغضب .

حين خرجت من غرفتي أحمل كتبي بيد وحقيبتي البالية بيد أخرى ، كنت أستطيع أن أضع الكتب في الحقيبة لكن وددت أن أعطي لأمي خبرا أني ذاهبة لبيت أريج كما هي العادة عن طريق الكتب التي أحملها ، كانت غاضبة جداً وهي تشتم والدي سبعين مره ثم تلعنه سبعين أخرى لكونه لم يسدد فاتورة الكهرباء فتم فصل الكهرب عن منزلنا الصغير ، كانت تمسك بيدها قطعة كرتون وتهف بها على نفسها وهي عاقدة

الحاجبين تنتظر حضور أحد إخوتي لتُوليه المشكلة ، فيما استغللت أنا المشكلة بعدم قدرتي على المذاكرة في هذا الجو الحار جدا ويتوجب علي الإسراع نحو منزل أريج للمذاكرة بزعمي قبل الذهاب نحو عملي الشريف ، لم تلقي لي بالا فكانت مشغولة جداً بالشتم واللعن وتحريك الكرتون بشكل أسرع من جهة أخرى ، خرجت من المنزل واضعة عباءتي الحرير على كتفي ، وبرقعي الواسع يلتصق على وجهي من شدّة الحر ، لم يكن مفترضًا أن يطرأ على بالي أبي ومقولته تلك التي سمعتُه يحدّث بها أحد الجيران يومَ كنتُ طفلَةً ألهو في الشارع «بلدٌ يخرج فيه التمر لا تتوقعِ الكثيرَ من أجوائه» كنت واقفةً في منتصف الشارع إلاّ قليلاً أشاهد أبي بعينَي طفلَة تشاهدُ والدها ، ما زلتُ أذكر نظرته تلك التي جعلتني أعود لطًفولتي سريعًا وأركض لاحقة الأطفال نلعبُ في الشارع! منذ ذلك الحين فقدت الثقة أنّ أجواء هذه الديار ستكون جميلةً يومًا وبدأت أحاول التصالح معها ، وإن كنت لم أقدر على ذلك! مشيت وحدي من شارع بيتنا الضيق حتى وصلت نحو المسجد القديم في الركن ، انعطفت شمالًا حيث يوجد مم ضيق أعدُوه خافضة رأسي خشية أن يرتطمَ بأحد المكيفات القديمة التي تخرج من وراء الجدران البالية وتخر ماءً كما لو كانت أنبوبٌ مفتوح ، أصِل نحو الشارع الفسيح وقبل أن أحطّ رحلي في منزل أريج القابع في زاوية الشارع توقّفتُ عند دكان العم عوض ، أحمل بحقيبتي نقوداً سرقتها من عملي حين كنت أبيع الشاي خلسة وتهريبا ، كان يجلس والعمر قد بلغ به عتيا ،

يضغط أزرار الحاسبة الآلية بعنف ويصرف نقودا بشكل بدائي ، حين دخلت وألقيت السلام ، تهللت تعابير وجهه وزادت تجاعيد وجهه مع ابتسامته اللطيفة جداً حتى بانت أسنانه التي قد أكل عليها الدهر فتكسر بعضها والبعض الأخر اصفرّ!

- السلام عليكم ، «حي الله عمي عوض»

(يبتسم بعطف)

- يالله أنك تحييها ، «وينك يا بنيتي ما عاد تنشافين إلا بالزور»

- الظروف الظروف ،لولا منع الظروف لكنت ما زلت أمارس مهنة «الكياسة» بجانبك

(يضحك بصوت خشن ومجهد حتى بانت أنيابه المصفرة)

- «آمريني يالكياسة»

- ما يامر عليك عدو تسلم»

آخذُ كيسا بلاستيكياً شفافًا لونه أزرق ، أتجهُ نحو الحلويات كما لو كنت طفلة الخامسة ، التي كانت تتسلق الطاولة فتقف فوقها وتلتقط كل ما يحلو لها وتضعه في فستانها المرفوع من أطرافه وتقفز نحو العم عوض ويبتسم لها وهو يمسح على شعرها المنتثر كما الشمس ، تمنيت لو أعود طفلة وأقف أمام باب الدكان أمنع سيف وأصدقاءه من الدخول ، يداي الصغيرتان تسدان الباب قدر المستطاع وإذا ما حاولوا الدخول بالإجبار تجيئهم صرخة من العم عوض تهددهم بعدم لمسي وطردهم أحيانا ، وأحيانا أخرى يقنعني بدخولهم في قوله «هالمرة دخليهم عشاني بس» ، ثمّ أفتح لهم الباب وفي عينيّ نظرَة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

«أدخلتكم عشان العمّ عوض ، وإلاّ قادرةٌ على منعكم»!

أبتسم مادّةً له الكيس يحاسبه ، يأخذه وهو ينظر في محتوياته مبتسمًا :

- لم تكبري في اختياراتك يا لمى ، عصير التوت هو ذاته بيد أن علبته تجددت ، والحلويات الملونة شغفك منذ الطفولة ، حتى نكهة البطاطس بالملح والخل كانت نكهتك المفضلة!

أضحك وأنا سعيدة جداً لأن مكاني لم يبرح عن قلب الرجل المفضل لدي ، الرجل الذي لطالما تمنيت أن يصير والدي ، أو أحظى بالتبني من قِبله ، والحسد والغيرة لأبنائه كونه والدهم دون أن يكون هو والدي!

- حسابك تسعة عشر ريالاً

أمد له المال وأستلم الكيس من يده التي كانت تمسح على رأسي الصغير دائما ، صارت مجعدة ، وددت تقبيلها لكني خجلت جداً ، فكرة احتضانه كما كنت أفعل قديما كانت واردة لولا أني خجلت من نفسي ومنه ومن فكرة الشباب المدخنين خارج الدكان عني ، خرجت وأنا أقسم له أني سأعود للسلام عليه كل فترة بعدما كان يذكرني بعدم الانقطاع وزيارته كل وقت وآخر .

الكراهية تكلف أكثر من الحب ، لأنها إحساس غير طبيعي . . إحساس عكسي مثل حركة الأجسام ضد جاذبية الأرض ، تحتاج إلى قوة إضافية وتستهلك وقودًا أكثر .

مصطفى محمود

كرهي الأزلي لسيف دفعني للتحدث عنه عند أريج وشتمه بين حديث وآخر ، أخبرتها عن طريقته في اختلاس النظر بالطريقة المقلقة وكيف يتباهى بنفسه في كل مرة يحمل عني أكوام البضاعة ويضع كومتين من القماش فوق كتفية العريضين ويمر ويسبقني نحو مكان جلوسي المعتاد ، حتى اختياراته الموسيقية في الراديو مزعجة ، ورائحة الدخان المنبعثة من ثوبه النظيف جداً تكاد تخنقني مع أنها ممزوجة بعطر رجالي نفاث يصدع رأسي ، حتى صوت ابتلاع ريقه يثير حنقي ورؤية يديه ذات العروق البارزة وهي تضرب مقود السيارة حين يطرب بالغناء تجعلني أتمنى أن تتوجه نحو رقبته ويقوم بخنق نفسه ، شعره الذي يعتني به جيدا ويفرقه بين أصابعه كل خمس ثواني وددت لو يختفي فيصير أصلعاً أملس الرأس دميما ، وليس شعره الأسود فقط أود اختفاء سيف بأكمله . . .

«قاطعتني وهي تقهقه»

- هوني عليك يا لمى (تضحك من جديد) كرهك للشخص يجعلك ترين كل الأشياء به مستفزة

- صدقيني لو رأيته ستكرهين كل ما به حتى طريقة تنفسه ستودين خنقه بيديك

- ما الذي فعله سيف ليستحق كل هذا الكُره؟

- علاقة طفولية سوداء ، دامت معاركنا حتى مشارف المراهقة

- «يمممه منك يالهوّالة» كل هذا الكره من أجل علاقة طفولية سيئة

«أعقد حاجبي وأميل فمي بتعابير غضب مصطنع»

- نعم ، الأمر يستحق الكره لأن كل ما به يدفعني لكرهه أكثر

- الكره نوع من الاهتمام ، ويبدو أنك مهتمة للحد الذي جعلك تركزين بطريقة تنفسه

(يشتد حمقي وأضربها بالوسادة الصغيرة التي كانت بيدي ، تضحك من جديد وتُكمل) :

- من هذا الـ سيف الذي لفت انتباه لمى لدرجة الحمق من ذكر اسمه؟ ، أود التعرف عليه لإعطائي معلومات كافية عن الطرق الكاملة لاستفزاز الشخصية المتجمدة داخلك

- هههههه تتعرفين على من؟ سيف؟

- نعم سيف لمَ الاستنكار؟

- لأن ذلك مثير للضحك ، فعقليتي لا تستطيع استيعاب فكرة أن سيف سيكون لطيفاً للحد الذي يحادث به أنثى بلا

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

عراك او نزاع واستخفاف

(تبتسم أريج)

- أحب التحدي

- خسارتك معه فادحة ، لا يستحق إضاعة الوقت ولا الجهد ، ولا يملك مؤهلات رجالك لتستغلين ماله

- لا بأس فقط سأثبت لك أن الرجال جميعهم سواسية بما فيهم سيف!

أبتسم لا إراديا ، فكرة تخيل سيف يمارس عواطفه مع أريج على وجه الخصوص مضحكة جداً!

***

حين عادت عمتي إلى مدينتها عاد كل شيء في منزلنا إلى الرتابة التي اعتاد عليها ، ياسر مستلق على الكنب لا يفارق وجهه الكتاب المدبّب . . أمي تخيطُ ثيابَ إخوتي الصغار وتحاول ترقيع شقوقها ، ناصر منشغلٌ بهاتفه الذكي جداً بجانبه عمر يطل على هاتف ناصر بتعابير وجه منشدة ومتعجبة من هول الإعجاب ، سلمان مع والدي في حراج السيارات ، وصقر لا يعود في هذا الوقت المبكر ، أما فهد يحل دروسه ، وسعد نائم بوسط هذا الإزعاج كأنه جثة ملقاة ، بحكم أن التلفاز الذي كان يجمع انتباهنا جميعا حكم عليه والدي بالحبس من جديد فالكل يحاول الانشغال بأي شيء كان ، وحدي فقط كنت أقف أمام باب المطبخ بعدما وضعتني أمي حارسا لقدر حساء العدس المعد لوجبة العشاء ، أنظر إليهم جميعاً بعين التفقد . . الروتين الذي يعهده منزلنا بات متكررا كل شيئ هو

ذاته ، ما الذي سيتغير لو أضيفت على حياتنا بضعة أمور لتحسّنها؟ لو كنا نعيش في فيلا مناسبة للعيش بدلا عن هذا الحصن الصغير ، ويكون جدارنا مزينا بورق كلاسيكي ذهبي بديلا عن لون الزرقة التي تحف بيتنا من جميع الجهات ، ستكون هنا مكاني خادمة تعد عشاءً شهيا يتنوع به الدجاج واللحم والخضار دون أن يجبرنا الجوع على تجرع حساء العدس بشكل يومي متكرر كطعام المساجين ، مكان النجفات المحترق نصفها هناك ستنزل ثريات كريستال من السقف وكأنها ستسقط لكنها معلقة بشكل جيد جداً والسجاد الإيراني سيتوسط صالتنا بفخامة ، حتي وجوه إخوتي ستتغير ، وسيكون لياسر مكتبة خاصة بغرفته المليئة بالكتب ، قد يكتب كتابا يوما ما نظرا لانعكافه التام على القراءة ، سيكون لسعد جهاز هاتف ذكي أيضا مثل الذي يملكه ناصر ، وناصر سيحظى بسيارة تليق بمقام الشركة التي يعمل لها ، وسلمان لن يضطر للذهاب مع والدي ، حتى أنا سأكون أسمن قليلا وسأغير لون شعري ، وسأمتلك تسريحة مثل تسريحة أريج تملؤها العطور والمساحيق ، وفساتين لا تعد وثياب لا تنتهي ، حتى أمي ستكون امرأة أنيقة شعرها المليء بالخصل البيضاء سيكون أسودا من النعمة التي نعيشها ، ستستبدل القمصان المشجرة بتنانير تليق بمقام سيدة قصر ، وستبتسم أمي أخيرًا ، سيعودُ لوجهها الوضّاء نوره ، لن أكون مضطرّةً لمحاولةِ تذكّر متى آخر مرّة رأيتها مرتاحة البال ، لأنّها ستكون كذلك في غالبِ الوقتِ ، ربّما سيعود أبي للبيتِ مبكّرًا يرعى بعينيهِ أطفاله ، يشاهد معنا

التلفـاز! يكونُ مسـموحًـا أن نشـاهده كلّ يوم مـتى أردنا . . ابتسمتُ لآمالي كم هي متواضعةٌ «نريدُ التلفاز!»ً و . . .

- «حسبي الله عليك يالرفلا»

ألتـفت من توبيخ أمي وهي تطفئ القـدر غـاضبـة وتطلق سيلًا من اللعنات وراء بعضها ، قطعت حبل أفكاري . . هدمت بيتِي الذي بنيته وبقيتُ فيه للحظاتٍ ، كأنها تشدّ أفكاري من شعرها وتعيدها للواقع وهي تكمل :

- احترقَ العشاء وأنتِ تتأملينا يا غبية «تعود للشتم من جديد» ما الفائدة من وقوفكِ في المطبخ ما دمت ستحرقين لنا العشاء من سيطعم إخوتك جميعهم؟ وكم من الوقت سيمضي لإعادة طبخه قبل أن يأتي والدك «الزفت»!

تحمل القدر تجاه المغسلة وتلقيه بغضب وتخرج قدرًا آخر وتصب حبوب العدس المتبقية في العلبة وفوقه الماء وهي تشتمني وتتحسب علي! أنا آسفة يا أمّي . . كنت أراك مرتاحَة البال هناك في أحلام يقظتي ، كنت أحاول أن أسعدكم!

برودي يجعلني لا أكترث بعشائهم ولا بتوبيخ أمي ، ولا بالعدس الذي احترق ، إنما ظللت واقفة أنظر نحو أمي وأنا أعلم أن أمي لن تبتسم ولن تستبدل القمصان بالتنانير ولن أملك تسريحة أريج ، ولن نحظى بفيلا ، ما دامت أكبر هموم أمي العدس المحترق وكم من الوقت سيبقى لتسد أفواهنا بعشاء تعده لنا ولوالدنا المشتوم على الدوام .

تلتفت نحوي وهي تحرك القدر عاقدة حاجبيها وتراني ما زلت في مكاني أنظر نحوها ببرود يقتلها ، تُخرج المغرفة من

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وسط القدر وتهدد بها غاضبة :

- أغربي عن وجهي يا خرقاء لا يُعتمد عليك ، لم أطلب منك إعداد الطبخة كاملة فقط كان المطلوب منك الإنتباه للقدر لا للصالة وكأنك أول مرة ترينها في حياتك «من زينها يعني ولا من زينك ولا زين أبوك الله ياخذك أنتِ وأبوك» أغربي عن وجهي!

أبتسم على توبيخ أمي متضاحكة لإدخال أبي في جميع الأمور وقت التوبيخ والسباب والشتم وكأن كل الأخطاء تقع على عاتقه لأنه الممول الأول للشر في هذا المنزل ومترأس فكرة الخطأ الكبير عند أمي ولأن شتمه ولعنه شيءٌ بات مستهلكًا فلا أحد يدافع عنه أو حتى يتضايق من فكرة الشتم المتوجهة نحوه ، أهرب لغرفتي وأقفل الباب وأستعد لقراءة كتاب جديد وكأني أنسى كل الأشياء حين أقرأ فأهرب من الواقع وأحتمي بين السطور أعانق الجُمل وأتمسك بالأحرف وألمس الكلمات ولا أحد قادر على أن ينتشلني من هذا الأمان .

-٢٠-

إننا لم نعرف شيئا حتى الآن عن الحياة ، فكيف نعرف عن الموت؟

كونفوشيوس

مع أن فكرة الموت مجملاً ترهبنا ، إلا أننا في الواقع نحن نتمرن عليه يومياً وبشكل فعلي ودقيق جداً دون أن نعي ذلك أو أن نشعر ، لأننا نؤمن أنا قد لا نعود للعيش مرة أخرى حين نلقي بأجسادنا على السرير متهالكين ، ونعلم أيضاً أن المكان ذاته قد يكون آخر محطات الحياة ، نحن نستعد للموت بشكل مرتب حين نرتدي له ملابس مريحة ونطفئ الأنوار محاولين استقبال النوم بحفاوة بالغة ، يمر في ذاكرتنا شريط من أحلام قد يكون آخر ما مر في ذاكرتنا الحية ، لذلك فكرة الموت ليست رهيبة للحد الذي نخشى وقوعه ، نخشى أن يجيء دورنا ويخطفنا الموت من على هذه الدنيا ، الخشية كل الخشية تكمن في ما بعد الموت ، أين سنذهب وكم من الوقت يلزمنا؟ ما مصيرنا وكيف هي المرحلة الفاصلة التي سنشهدها ما بين الدنيا والآخرة؟ فكرة أننا لن نبرح عن حفرة ضيقة تلتقف أجسادنا ، نحن لا نخشى أن نموت ، فكل ما نخشاه هو المجهول ما الذي سنواجه حين نموت؟ وخوفنا من موت أحبتنا لأننا

نخشى أن يلتهمنا الفقد حين يرحل من نحب ، أن يعضّ علينا بأنيابه ، يلوكنا ألم الغياب وحسرة الفقد ، لا يملأ أحد مكان من سرقه الموت ، فكرة الموت ترهبنا بيد أننا نرهب من مشتقات الموت لا الموت ذاته ، نحنُ سنقدم على الموت لو علمنَا يقينًا ما بعده!

ماتت مريم ولحقها أطفالها الأربعة يطيرون تباعًا نحو الجنة ، التماس كهرب كان سبب حريق اشتعل في منزل مريم الصغير فاحترقت أختي المكلومة وأطفالها ، واحترق قلب أمي بكاءً وحسرة حين جاءنا فلاح باكيا يحمل في يديه مهداً صغير ينام به «وليد» ويمده نحو أمي ودموعه لم تجف بعد ، وصوته قد اختنق من أثر البكاء ويشهق كما الطفل الصغير ويخبرنا كيف حُرقت أختي وأطفالها إلا «وليد» حين أنقذته أمه بطريقة تشبه الحلم فلفت عليه كلّ غطاء ثم ألقته من النافذة على الجمهور المتفرج خارج المنزل المحاولً أن ينقذ المرأة المستنجدة . . التي تصرخ في الداخل وصياح أطفالها الأربعة من هول الخوف يخرق آذان الجماهير الغفيرة ، بيد أنه لم يقدر أحد أن يباغت النار ويلتقط الأطفال وأمهم ، حتى الدفاع المدني المتأخر عن الحضور لم ينقذ أختي فماتت محترقة تضم أطفالها جثة جثة ، التقفَ الناس «وليد» الباكي ، وأدركوا أنه صار يتيما حين سكت صوت أمه عن الصراخ وخفتت أصوات إخوته تدريجيا ، وسلموا الصغير لوالده الواقف في منتصف الجموع ينظر لمنزله بعين الفاجعة ويمسكه من حوله مانعين دخوله بين النيران المشتعلة ، لم يكن الوقت يستدعي البكاء فكل الذي استطاع

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أن يفعله فلاح هو فقدان وعيه حين خرج رجل الإطفاء من المنزل متأخرا خافضاً رأسه ممسكا خوذته بين يديه ويمسح على كتف فلاح قائلا « البقاء براسك الله يغفر لها ويجعل أطفالك من طيور الجنة .

كان بودّ فلاح أن يركض بين النيران حتى لو يحترق وأن يصل لمريم قبل أن تموت أن يجثو على ركبته يمرغ فمه في كفيها تقبيلا باكيا معتذرًا عن كل شيء خلقه لمريم سبب لها ألما ولو صغيرا ، كان يتمنى أن يقبل «محمد» ويحضن «غالية» ويعانق «دلال» ويمسح على رأس «حسّان» أن يراهم للمرة الأخيرة يبتسمون له ويرونه للمرة الأولى عطوفا حنونا ، لكن الموت كان أسبق . . خطفهم بغتة قبل أن يعتذر لمريم ولم يقبل أطفاله ولم يحضن بنياته ولن يرى وجوههم التي أحرقتها النيران إلا في ذكرياته ، ذكرياته التي ليست جيدة كما أعتقد!

«وليد» الذي يبتسم بلطف ويحاول مسك شعري بيديه الصغيرتين أحضنه وأنا أبكي كالمكلومين ثم أطلّ بوجهه ليعود للضحك من جديد وأعاود البكاء في كل مرة يضحك لي فيها هو لا يعلم عن كونه يتيما حتى الآن فاقدا لأمه الرحوم الباكية على الدوام خشية أن يموت صغيرها . . لكنهم ماتوا جميعا قبل أن يموت «وليد»! هو لا يدري ما ينتظره ، لا يعلم ما تخبّئ له الدنيا خلفَ ظهرها ، لا يدري أن ينتهي بهِ الخطوُ!

بكائي كان مراً حارقا يكاد يخلع جوفي من هول النياح ، يضغط عنقي فلا أقدر على التنفس ولا على الصراخ ، أسودٌ عميقٌ يخرج من عمق قلبي المفطور ألمًا ويشق فؤادي المفجوع

على موت المكلومة أختي ، شفرة حادة تقطع أوتار صوتي فيختفي الصوت مع كل نحيب يعانق حزني ، فاجعة الموت التي جاءتني مباغتة دون أدنى اكتراث لإنسانيتي أحدثت بي وجعا عميقا غائرا لا يبرأ ، آه يا أُختي يا روحي الممزقة يا عمر الأحزان المتراكم بك طيلة الستة وعشرين عاما ، انتهت ختام سنونك بنارٍ أحرقت أفئدتنا حزنا مثلما أحرقتك حية حتى الموت ، نشيجٌ حزني لا يشرحه تعبير ولست قادرة على استنشاق الهواء حتى لو حاولت ، أكاد أختنق من البكاء الدامي من ألم في قلبي ينبض بشكل متسارع ، من صداع يهاجم جمجمتي بشراسة ، أرتجف ولا أعلم لماذا! أسقط مغشيا علي كأنما أهوي إلى سابع أرض وتجذبني قوة خارقة للأسفل ولا أستطيع النهوض من جديد . . أقع أرضا يرتطم رأسي بالجدار بقوة ، أشهق بقوة أحاول استنشاق أكبر كمية من الأوكسجين ، أمسكُ الأرض كأني ألوذ بها أن تلفظ أحبابِي ، أن تخرجهم لأقول لهم «أحبّكم» للمرّة الأخيرة فقط! على مهلٍ أيّها السائرون عليها تحتَ هذه الأرض أختي ، تحت أقدامكم عصافيرٌ من الجنّة ينامون! لم أطق أن أقبّلهم قبلة وداع ، هونًا عليهم دونكم جسدِي ، أين باب الأرض لأنزل لسردابها أتفحّص النائمين هناك وأوقظ أختي من جديد ، «استيقظي استيقظي ، هيييييه وليد يبكِي! لا ترأفينَ به؟» ، «أم مشعان» بيدها التي تخبرُك من خشونتها كم مرّ عليها من ألم وسنين ، بحنوّ الجدّاتِ تمسح على وجهي بماء قد قُرئ فيه ، جانبها خالتي «حصة» تذكر اسم الرحمن علي بوجه خائف . . تقرب

«أم مشعان» الكأس نحو فمي وتجبرني على تجرع الماء ، أبتلعه بصعوبة بالغة وتخور قواي من جديد ، صالتنا الزرقاء قد عمّها السواد ، كلها نساء يرتدين العباءات قد جئن يقمن بواجب العزاء ، أرى من بين النساء أمي تشهق باكية تحضنها جدتي تردد خلفها التهليل والتكبير ، بنات خالاتي يقفن أمام الباب الداخلي يستقبلن النساء وهن يرتدين طرحًا سوداء ووجوههنّ قد اسودت حزنا ، أعود للصراخ الباكي من جديد وتشد على ذراعي خالتي «حصة» وتجرني نحو غرفتي وهي تمسح على رأسي ولسانها لا ينفك عن الذكر . . تساعدني على الاستلقاء في سريري وتقرأ علي القرآن حتى غفوت بشكل هادئ .

لم يكن الحزن غريبا في هذا المنزل الصغير بيد أنه جاء ومعه صحبة جديدة يجر معهم الغياب وممسكا بيد الفقد وتسبقهم الفاجعة ، يعانقون جدران المنزل ويعبثون بنفوس أصحابه ، يتلاعبون بقلوب المكلومين ويستوطنون أفئدة الباكين منهم ، لم يتركوا قلبا إلا وقد زادوه هما ولا عينا إلا وقد أذرفوهَا دمعا ، رؤية الناس التي تجهش بالبكاء تحث على ذرف الدموع من باب الإنسانية ، كان المنزل كله نساء يجهشن جماعيا بالبكاء ، أمي تتقدمهنّ تضرب على رأسها حسرة وتصرخ باسم ابنتها الأولى رفيقتها وصديقتها وعمرها الضائع معها ، تستنجد بجدتي أن تكذب خبر الوفاة وترتجي خالتي بأن تحضر لها مريم ، لم يكن هنالك أحد قادر على كبح دموعه وهو يرى المرأة العجوز تبكي بشكل مهول مفجوعة الحال تحسرا ونحيبا . . تنادي بكل قوتها وتصرخ بكل صوتها لكن مريم لم تلبي نداءات أمها

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الحزينة للمرة الأولى في حياة أمي تمارس مريم العصيان ولا تجيب .

حين اشتد سواد الليل عشاءً خرجت نساء الحارة وبقيت جدتي وخالاتي وبناتهن يرتبن المكان ويحاولن قدر المستطاع المحافظة على الهدوء كي لا أستيقظ أنا الشبه نائمة في غرفتي ولا أمي التي نامت وعينُها لم تنم في غرفتها وجدتي العجوز جدا تستلقي بجانبها تعبة ومجهدة ، إخوتي كانوا في عزاء الرجال في مسجد الحارة مع والدي المنكسر بشكل مؤثر جدا ، علمت فيما بعد أن والدي خر باكيا وقت الدفن وسقط على الأرض يحمل تراب قبر ابنته ويتمتم بلغة غير مفهومة ، لم يستطع النزول للقبر لفتح كفن مريم فما كان من صقر وياسر إلا أن نزلا سويا وفتحا كفنها وسدَّا اللحد باللبنِ والطين! أيديهم التي حملت مكعبات اللبن والحجارة وسدت فيها فتحة قبر أختهما الأولى كانت نفس الأيدي التي تماسكت قديما حين كانوا يركضون صغارا في الحارات والشوارع يتضاحكون جميعا وهم يهربون من ناصر وسلمان يلعبون بطفولة بالغة البراءة ، صقر وياسر هم من حملوا الأطفال أيضاً ودسوهم في قبورهم والدموع تجهر في عينيهما يحاولان منع أنفسهما من الجهش بالبكاء كما يفعل ناصر بين الرجال ، الذي سقط مغشيا عليه من هول البكاء الحارق ويحاول سلمان المتشبع بالبكاء أن يسنده واقفًا وعمر من الجانب الآخر . . إخوتي السبعة جميعهم قد ذروا التراب فوق مريم وتركوها وحيدة في مكان جديد مظلم ولم يأبهوا أن مريم تعاني عقدة الظلام منذ الطفولة

حين كانت لا تنام إلا حين تعمل الإضاءة وتقلق حين تغيب الشمس خشية الظلام ، لكنها تعانق السواد وحدها حين أداروا ظهورهم عنها خارج المقبرة ، وضلت مريم في مكانها . . وحدها فقط مع الظلام .

***

انتهت أيام العزاء الثلاث الأولى بيد أن الحزن لم ينتهي بل يزداد أكثر في كل مرة يبكي فيها «وليد» وتتمزقُ قلوبنا حزنا حين يضحك مناغيًا يلعب لا يعلم بكل ما يحدث حوله ، حزينة لأنه لن يذكر وجه أمه ولا رائحة عطرها ولن يشعر بحضنها حين تحتضنه وتهدهد له أغاني النوم «نام يا وليدي نام واهدي لك جوز الحمام يا حمام يا حمام قولوا لوليد ينام» ويغفوا تدريجيا مع صوت همسها وملمس أصابعها على خده الصغير ، ولم تترك له سوى ملامح وجهها التي تشبهه تماما عيناها المدورتان تحفهما رموش كثيفة تظن أنه يرمش بطريقة بطيئة من كثافتها ، أنفها الدقيق جدا وحاجبي الهلال النحيلين ، لون شعرها الغجري . . كأنها تركت لنا وليدا لنذكر وجهها مع ملامح وجهه الصغيرة جداً ، تسعة أشهر قضاها بين أمه وإخوته ليست كفيلة بأن يذكر فيها ابتسامة مريم ولا أصوات إخوته وهم يلاعبونه ويناغونه ، وليس قادرا على استيعاب حبهم له ومشاجرتهم أيهم يحمله في حضنه أولاً ، أنا حزينة وأشعر أن الحزن أكل من عمري حصة كبيرة مشبعة ولم تكفه بعد ، لم أنطق منذ يوم العزاء الأول تاركة لدموعي المجال لتسيل دون أن أحاول منعها حتى مع محاولات خالاتي

الفاشلة ، اللاتي مازلن يجئن من الصبح حتى الليل لمحاولة خلق شيء يشبه الحياة في منزلنا المتشح برائحة الموت ، تجلس بجانبي «شهلاء» واضعة يدها فوق بطنها المنتفخ وهي تلهث من تعب الحمل الأول تنظر لوجهي المملوء بالدموع وهيئتي التي تشبه هيئة المشردين . . بجامتي القطنية مع شعري التي حاولت خالتي «لولو» جاهدةً في تحسينه . . وعيناي المحمرتين المنتفختين . . تجيئني يدها تحمل منديلا تمسح به وجهي وتقرب رأسي لحضنها وتهمس بأذني

- ابكي ، وأخرجي كل ما بجوفك من ألم مع كل دمعة ، ابكيها حتى تفيضي دمعا لا تمنعي نفسك من البكاء!

أشد بيدي على ملابسها وأشهق بصوت مرتفع وأجهش بكاءً من جديد ، أستمع لصوت بكائها الهادئ وهي تضمني وتطبطب على ظهري ، تغضب خالتي حصة وهي تجرني من حضنها!

- «حرام عليك يا شهلاء» لم نصدق أن تهدأ المسكينة

ما زلت في مشوار البكاء حتى حين جرتني من حضنها إجبارا وأمسكت وجهي بين يديها وهي تنظر نحو عيني الغارقتين دمعاً

- اسمعيني اسمعيني

تحاول أن تسند جسدي المتهالك تجلس بجانبي وتلف رأسي نحوها ممسكة إياه بقوة . . تصوب عيناها نحو عينيّ . . تمسح دمعي بإبهامها وأهدأ قليلا ، أحاول التنفس بعد نوبة البكاء التي قطعت نفسي ، يتحول وجهها حزينا وأرى في

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

عينيها دمعاً يحاول الهرب :

- بكاؤك لا يجدي ، لن يكون الدمع فداءً لعودة مريم ، إنما تجهدين نفسك وأمك ومن حولك بحالتك هذه ، أدركي ما حولك فمريم لن تعود أبداً!

كان كلامها قاسيا جداً بحق قلبي الحزين ، بحق أملي بأن كل ما يمر بي مجرد كابوس سأستيقظ منه ، سأحمد الله أنه حلم وأركض لمريم التي تجلس أمام التلفاز بهدوء وأحضنها ثم أشكي لها حلمي المرعب حول فقدها وتبتسم وتضمني كما لو كنت صغيرتها الوحيدة وتتمتم لي « كان حلماً يا صغيرتي كان حلماً » بيد أنه لم يكن ، لم يكن . . لم أستيقظ من الحلم ، لم تعد مريم ، كلّ الوجوه التي حولِي ليست هيَ ، لا يجدي أن أطيل النظر للبابِ ، ليسَ حلمًا . . كان واقعِي المرير!

-٢١-

أتحسب الحياة سهلة؟ كلاّ ، الحياة شيء صعب ، العالم مثل الليلة الحالكة ، لابد لكل إنسان أن ينير سبيله لنفسه ، يجب أن يكون قويًا ، وإن أعوزتك القوة يجب أن تكون ماكراً ، إن من كان صغيراً وضعيفاً يجب أن يفشل .

مكسيم غوركي

أضع رأسي على الطاولة وجهي مصوبٌ نحو النافذة الزجاجية المطلة على الساحات الواسعة ، أتأمل المارّين بجانب النافذة وأسرح بفكري قليلا ، أرفع عيني نحو السماء . . بات الجو يصبح حارقا جداً الشمس تقترب كثيراً تكاد أن تلاصق الأرض وننصهر جميعا . . آخذ نفسًا عميقًا وأعتدل بجلستي . . أمد شمالي أنظر للساعة بنظرة كسولة لعلها تحدث معجزة وينطلق الوقت سريعا وأخرج من هذا الفصل السجن ، السجانة تقف أمام السبورة تشرح بحماسة دون اكتراث لتعابير وجه الطالبات المتململة . . أضع يدي تحت خدي مللاً وأتأمل حركاتها ، تعابير وجهها ، حماسها في الشرح دون أن أعي ما تقول ، تتجول عيني على ملابسها الأنيقة . . وأسرح بها بدافع الضجر الذي يكاد يخنقني . . تُرى كم عانت حتى وصلت

لهذه النقطة؟ كم مضى عليها من الوقت حتى أصبحت دكتورة في جامعة عريقة بقسم ليس سهلاً أبدًا ، كيف حوّلت نفسها لهذا المنصب واستطاعت الحصول عليه واستحقته بجدارة بالغة ، كيف كانت أثناء الجامعة! هل تراها أطالت النظر مثلي الآن في دكتورةٍ حديثها مملٌّ جداً وهي لا تنتبهُ لأيّ كلمة تقولها ، هل أخوها يتأخر عليها؟ هل كانت الفتاة التي تتهرّبُ من . . . قطعَ حبل أفكار تأملي فيها انتهاء حديثها الطويل جداً ، خرجت تحمل حقيبتها الأنيقة وخلفها باقي الفتيات يتضاحك بعضهن سويا والنصف الآخر يتفقدن أحوال هواتفهن ، فيما بقيت في مكاني أنظر إليهن بتجمد بالغ بروح مطفأة وبرود نزع مني الحياة . . تدخل أريج وهي تعاكس التجمع عند باب الفصل محاولة الوصول إلى مكاني الخلفي وأنا أرمقها بالتجمد ذاته . . تصفق بيديها مبتسمة :

- «صحصح . .صحصح معايا يا واد»

أبتسم وعيناي مرهقة جداً . . تمسك يدي بحماسة

- هيّا سنعود لمنزلي لدي مفاجأة . . .

- ليست لدي رغبة في المفاجآت ، أرغب بالنوم فقط

- لمى حبيبتي منذ ثلاثة اسابيع وأنتِ على الحال ذاته ، تنامين حتى موعد الجامعة ثم تعودين للنوم من جديد

- هذا أفضل

- يجب أن تتعايشي مع حياتك المتبقية ، لا فائدة من النوم لمدة يوم كامل!

- لا أرغب في مواجهة الحياة ، فالنوم بوابة الهرب نحو

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الحلم . . نحو عالم آخر . . سفر مريح جداً

- موت مريم ليست نهاية الحياة ، تعالي أعددت لك مفاجأة ، قد حدثت أشياء كثيرة من بعدك . . توجد هنالك الكثير من القصص لم أروها لك . . دعينا نخرج سويا كما كنا نفعل من قبل

- . . . ولكن

- واجهي نفسك قبل أن تواجهي الحياة ، يجب أن تعتادي على ما أصابك ، كل شيء حدث كان قد قُدر قبل أن تُخلقي أنت وقبل أن تولد مريم . . الله اختار أن تموت مريم بهذا العمر وهذا اليوم وبنفس الطريقة إنما ما تفعلينه يعدّ سخطا على الخيرة التي اختارها ربك!

(أبتسم . . مضحكة أريج وهي تقوم بدور الواعظة . . لا يليق بها أن تتحدث عن أشياء تشبه هذا الحديث الوعظي . . ثمّ تضرب كتفي مبتسمة) :

- أعرف ضحكاتك ، ابتسامة الشماتة هذه أميزها جيدا

أضحك بصوت خافت . . تضمني أريج بطريقة دراميـة وتهمس في أذني «ايه اضحكي»

***

بعد الفاجعة التي وقعت علينا جميعاً ، أثرها القوي كسر الحواجز الموضوعة بين إخوتي ، أصبحوا لطفاء بشكل ملحوظ هادئين أكثر من المعتاد ، الموت هذب أرواحهم وقوّى العلاقة بينهم أكثر ، كأنهم خافوا أن يخطف أحدا منهم من جديد دون أن يكونوا قد تركوا له ذكريات جميلة دون أن يعبروا عن

شعورهم نحوه عن حبهم الذي لم يخبروا مريم به ، عن ابتسامات أطفال مريم التي اختفت دون أن يلاعبها أو يغنوا سويا أغانيهم المفضلة ، قد سبب لهم الموت رهبة الفقد . . صاروا يسألون عن بعضهم ، عن تأخّر صقر وغياب سعد وطول نومي . . جميعهم صاروا هادئين جداً بما فيهم أبي القابع في غرفته منذ آخر يوم عزاء ينام ويأكل وحيداً ، هشم الموت قوته الجبارة وقتل مواطن الشر التي كانت تستهدف أطفال مريم الصغار ، كان ضعيفاً حتى خشت أمي عليه من أن يلحق بابنته فصارت تلازمه كل وقتها في غرفته ، تارة تقرأ عليه القران وتارة تحدثه عن أخبار العالم ، ولا نراهم إلا لماما . . جميع أخواتي كانوا يحاولون التفاعل مع الحياة ويحاولون مرارا تعويض الشق الذي أحدثه الموت في هذا المنزل ، أن يصنعوا حياة جديدة ويخلقوا العيش بعد أن صار الموت هو الطارئ الوحيد ، عاد سلمان للإستضحاك من جديد ، وبات ناصر عطوفاً أكثر وحنونا جدا ، صقر يلاعب وليد كأنه يعوض ما فاته مع أطفال مريم ، سعد وعمر متصالحان جدا مع أننا ما عهدنا منهم إلا النزاعات والمضاربات المتكررة وفهد الصغير يحاول أن يعوض وحدته الجديدة قدر المستطاع ، بيد أن ياسر لم يكن مثلهم كان حازما شديدا متوترا بشكل مرهق . . لم يعد يقرأ الكتب عاقداً حاجبيه وخارجًا على الدوام على غير العادة . . . علمت أنه يحمل هما آخر فوق همه وعلمت ذلك من فهد الصغير الذي أخبرني متأخراً بأن ياسر حزين لأن غرفته لم تسلم حين كان المنزل يغتصّ بالنساء . . حينها أمسكت فهداً من يده وجريته

نحو غرفتي وأقفل الباب خلفي . . أجلس على السرير وأنظر نحوه وهو يعبث بكتبي ودفاتري :

- أخبرني ما الذي حدث بشكل مفصل

- يوم العزاء الأول كنت قد تعبت جدا من الزحام واشتد الربو بي وخاف ياسر أن أختنق . . عدنا إلى المنزل سويا . . أنا دخلت غرفتي وهو توجه نحو غرفته ، لكنني لم أعرف ما الذي حصل حين سمعت صوت ياسر يرتفع ثم جاءني غرفتي بعد دقائق غاضبا جدا أغلق الباب خلفه وجلس على سرير عمر واضعا رأسه بين يديه!

- ألم تسأله ما السبب؟

- كان غاضبًا جدا وجهه قد احمرّ ، خفت فخرجت من الغرفة ورأيت شهلاء ابنة خالتي تبكي وتحضنها خالتي وتمسح على ظهرها أمام باب غرفتنا أي عند باب غرفة صقر وياسر . . حين اقتربت منهم أكثر سمعت شهلاء تقول أنها كانت متعبة جدا وأرادت أن تستلقي لكنك نائمة في غرفتك فاتجهت لأقرب غرفة لترتاح ، لكن من حسن حظها أنها كانت غرفة ياسر وصقر ، فياسر لا يحب أن يدخل أحد غرفته بلا استئذان ، وأظنه غاضبٌ لهذا السبب أنا أعرفه لا يحب أن يـ . . .

(أقاطعة بحماس)

- وهل علمت بما حدث في غرفته؟ أقصد ألم تسمع ما الذي قاله حين ارتفع صوته

- لا

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

أشـيح بوجـهي . . أفكر بالاثنين مـعـا ، هذا اللقـاء الأول للاثنين بعـد الحـادثة القـديمة جـداً ، كـيف عـرف ياسـر بأنهـا شـهـلاء؟ فقد تغيرت تماما وزاد وزنها مع الحمل وطال شعـرها وتغير لونه وتحسن حالها وبدت بعمر أكبر ، وددت لو بمقدوري سؤال ياسر عمّا حدث لكني أخشى من ردة فعله حول هذا الموضوع الحساس بالنسبة له ، استطاعت شهلاء أن تلبث في فكر ياسر بعد أن لبثت في قلبه ،لم يقدر على نزع صورتها من عقله مثلما عجز عن انتشالها من قلبه ، حتى مع علمه بخبر حملها الذي جاء متأخرا! كان الفضول يسيطرُ عليّ أكثر من الخوف تارةً ، وتذكر ردّات فعله غير المتوقعة تارةً أخرى!

***

أعود للسوق بعد الانقطاع عنه شهراً كاملا إثر ما ألمّ بنا ، كل شيء كما هو باختلاف أوجه الناس المارة ، أنا التي ظننت أنّ الدنيا توقفت عن الحركة لحزني ، أنّ السوق بأكمله توقف لأنّ مريم فارقت الحياة . . أنّ الحياة لا يجب أن تستمرّ أكثر! أعودُ للسوقِ من جديد لأكتشف أنّ عجلة الوقت لا تتوقف هيَ تدهسُ الكثيرين لكنّها لا تتوقف ، لا تهتمّ بحزننا ، لا تفكر في أن تطبطبَ على كتف الحزين وتمسح دمعة من فقدوا أحبّاءهم! أتذكر حينَ مشاهدتي الحشودَ التي تغمرُ السوق مقولةَ «الغد لا ينتظر دعوَة» ، يعاودني الحزنُ قليلاً . . والجو يزداد حراً . . يضطرني أن أفعل كما تفعل البائعات جميعهن يحملن قطعا من الكراتين محاولين جلب الهواء نحو وجوههن في تحريك الكرتون يمنة ويسرة بشكل متسارع . . تخف حرارة الجو

قليـلا حين تغيب الشـمس . .لكن الزحـام يزداد أكـثـر وتكـثـر الأنفاس من الازدحام في هذا السوق الشعبي القديم ، الساعة تشير نحو الخامسة والنصف عصراً . .«أم مشعان» و«وضحى» يتبـادلن الحديث بصوت مرتفع وتشاركـهن «نوير» بين الحين والآخر ، لكن لا رغبة لي في الحديث . . أشعر أن روحي فارغة ومزاجي سيئ والحر هنا يزيد من عطشي . . أتكئ على الجدار مرهقة ، كيف صارت كل الأحزان التي تحاصرني قبل شهر تمامًا صغيرة للحد الذي يجعلني أستحقر نفسي حين كنت أحزن عليـها ، بداية من بكائي لعدم توفر احتيـاجاتي المادية نهـاية بتضايقي من عملي في السوق ، كيف حول الموت كل أحزاني إلى شيء تافه واستحل مكانها ليرقد على صدري هماً ثقيـلا لست قادرة على تجاوزه . . تغير لون الحياة حولي .

الموت يعطيها لونًا آخرًا يشبه الرماد . . أخبرتني «شيماء» زميلتي في الفصل حين جاءتني في الفصل وعزتني متأخرةً بأني سأمر بمرحلة انتقالية فقط وسأتقلم عليها بعد مرور فترة بسيطة لأن الإنسان حين يموت ينتهي معه الحيز الذي كان قد أخذه في حياتك قبلاً ، نفتقد وجوده حتى يُفتقد ذكره . . في البداية سيكون طارئ الفقيد شيئا داميا يزهق روحك ، ثم يخف الألم تدريجيًا في كل مرة يعدو عليك يومٌ بدونه . . حتى تكتفي بآخر المطاف بذكر اسمه يتبعه دعاء صغير «الله يرحمه» وتكملين مشوار حياتك ، ولا أنكر أن الفقد سيكون في قلبك مزهقا وقاتلا . . لكن ستتجاوزين كل ذلك إن حاولتِ .

أعـتـدل بجلسـتي بعـدما أقـبل علي رجل يسـبـقـه طفله الصغير مفتشا بين الألعاب الرخيصة يحاول البحث عن شيء يعجبه ، يخرج لعبة من بين الألعاب مبتسمًا محدثًا فوضى عـارمـة في بضاعـتي وينظر نحـو والده ، يجيـئني صوت الأب الجهوري :

- بكم هذه اللعبة يا «خالة»
- عشرة
- سوف آخذها بخمسة
- أحرقت نصف السعر يا «خال»
- خمسة وإلا لن أشتريها

أنظر نحـو الطفل ، أود سـحب اللعـبـة من يديه ثم أضـربـهـا بوجه والده

- «هاه خمسة؟»
- سبعة ولن أبخس حقها أكثر

يخرج من جيبه خمسة ريالات ويمدها نحوي

- خمسة تكفي

يرمـيـهـا ثم يسـحـب ابنه واللعـبـة ! وأبقى في مكاني غاضـبة . . لا حيلة لدي لأخذ حقي من السـارق وابنه ، أضع النقـود في مكانها غاضـبـة جدا ، وودت لو كان بإمكاني فعل شيء . . . أي شيء . . ألحقه بخمسته وأدسها في فمه مثلا ، أو حـتى اللحـاق به وخنقـه وأصـرخ بوجـهـه أطالب بحـقي البخس ، لكني ما فعلت شيئًا سوى النظر إليه حانقة حتى غاب بين الجموع ، وأشتمه بقلبي فقط .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٢٢-

ينتابني شعور الكره لكل مخلوق حي يتنفس في هذا الكوكب الفسيح ، حتى الحلزون النائم منذ سنين ثلاث ، تحت أغصان شجرة قديمة وسط غابة واسعة داخل أراضي أفريقيا . . أنا أكرهه ، أكره العصفور الذي يطير بجناحيه لا أحد يعاتبه ، أكره الفلاّحَ في مزرعته البعيدة متعبٌ تحتَ الشمس! لا رغبة لدي للمقاومة ، أود أن أسقط أرضًا أن تجذبني الأرض الهاوية أن أتأرجح بين السماء والأرض ، أن أختبئ في جحر قديم لأفعى سامة ، أن أفقد الوعي ، أدخل غيبوبة طويلة . . أستقيظ منها كائنًا آخرًا لا يمت لي بصلة ، تتبادل روحي مع حياة أخرى جديرة للعيش ، مهيئة لممارسة التفاعل مع الكون ، حياة أخرى ليست محصورة بخيارات محدودة ، لست ملزومة باختيارات ذات نطاق ضيق مفروضة اجتماعيا غير منطقية ، على الأقل كما تبدو لعقلي المزدحم بهذا الصخب! أودّ لو كنت شخصا آخرًا يقطن فوق هذه الأرض . . ستكون فرصي لإختيار طرق العيش المناسبة لذاتي أكبر وأوسع ، لا أكون مجبورة في اختيار واحد فقط لأنه الخيار الوحيد المتاح لي ، أن أتنفس هواءً غير الذي يدخل لرئتيّ كلّ يوم ، أشعر أنّ داخلي مضطربٌ أكثر منّي ، فوضى عارمَة أستطّيع أن أشعر بها تمشي في داخلي وتهدمُ كلّ ما حاولتُ يومًا ترميمَه!

كنت أفكر في ذلك منهمكة منهكةً في تغسيل الصحون بعد الغداء ظهرا ، منذ أن صار أبي مكسور القوى مهدودًا للحد المثير للشفقة صارت أمي تلازمه في أضعف حالاته . . أمي انشغلت بأبي الحزين ، توليت مهمة المنزل كاملاً وحدي أغسل الثياب والصحون وتنظيف المنزل بالكامل ، أعملُ على ترتيب فوضى الغرف . . أخبر ياسر أن يرتّب غرفته ليخفّف الحمل عنّي وأحاول أن أقنع البقيّة . . حينًا يرأفون بحالي وحينًا أقوم بها لوحدي ، الغداء تتكفل به أمي ، والعشاء من نصيبي . . بادئ الأمر مع الأعمال المتراكمة والضغوط التي أواجهها وضيق الوقت المحاصر بي أتمنى لو أبي عاد كما كان ، لكنني سرعان ما تراجعت عن أمنيتي التي كان الروتين الجديد سببا في تمنيها ، أبي الذي لطالما كان المحرض الرئيسي لشعور الألم في منزلنا إلا أن رؤيته هزيلا للحد الذي تطعمه أمي بيدها . . شيئا يؤلمني بدافع الإنسانية ، بدافع مشاعر الابنة التي حتم القدر أن يصير هذا الرجل والدها ، لكن ما يلبث أن يتلاشى هذا الألم مع أول مشتت يحدث لإنتباهي ، أنهي غسيل الصحون . . أخرج من المطبخ أتوجه نحو غرفتي وأنا أمسح الماء من على يدي التي باتت مؤخرا متقشرة جدا . . أحمل زجاجة حليب لوليد النائم في الصالة الزرقاء ، أحمله نائما وآخذه نحو غرفتي ، يتم وليد شهره العاشر غداً بيد أنه ضئيل الحجم . . أحمله برفق وأرج الزجاجة جيدا وأضعها في فمه الجائع ، أنا الكارهة لكل الكائنات الصغيرة والتي تخاف من الأحجام الضئيلة والأطفال ، أصبحت مسؤولة عن كائن صغير تربطني به علاقة وثيقة ومسؤولية تامة تتوجب

علي تقبل الأمر وإلقاء فكرة الخوف بعيداً حتى يكبر هذا الصغير المحتّم عليه أن يعيش بهذه الطريقة البائسة ، يُفتح باب الغرفة تدخل أمي بهدوء وتلتقط الصغير من على حضني :

- استعدي الآن للذهاب للسوق ، سيمرّك صقر وسيف بعد صلاة العصر

- متى سأحصل على إجازة من السوق؟

- في حال امتلكنا المال الكافي لسد حاجتنا

- بهذه الطريقة لن أحصل على حقي في الإجازة أبدًا

- كفي عن التذمر وانهضي لتبديل ملابسك وجهزي أكوام البضاعة عند الباب ليأخذها صقر إلى السيارة ، تحركي!

أنهض بملل ساحبةً قدميّ لتنفيذ أوامر أمي ، يعتريني شعور سيئ أن أحمل كل هذا الرفض في داخلي . . أن أنطق الرفض على شكل كلمات . . أن أحاول فرض حقي في الرفض . . ولا يأخذ رفضي بعين الاعتبار ولا حقي له معنى في قاموس الأشياء المفروضة بالإجبار ، أقنعت نفسي ما فائدة التضجّر ما دمت لن أغيّر شيئًا! قمت ثقيلة الخطى . . أحمل الدنيا على ظهري ، وأرتّب الأغراض أتجهّز للذهاب للعمل . . هل هو عملٌ حقًا؟

***

وسط السوق الفسيح في هذه المدينة الشاسعة ، المدينة التي تلبس الصحراء وتتنفّس الغبار في دولة مناخها شديد الحرارة صيفًا ، هل كان الصيف أطول هذه المرّة؟ احتراقٌ في داخلي وفي خارجي وفي الأجواء! وفي الرصيف الذي يحتفظ

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بأشعة الشمس يعاقبنا ونحنُ لا حول لنَا ولا قوّة! في مدينتِي القابعة في الجنوب الغربي لأحد القارات الثمان، الموجودة على ظهر كوكب صغير، داخل مجموعة شمسية، على حافة مجرة واحدة من عدة مجرات، أجلس أنا . . أمامي قماش ممدود فوقه بضاعة مهترئة أتربع جالسة والملل يأكل وقتي وظهري يستند على الجدار الرخامي . . أحاول قتل الملل، أدندن أغنية في رأسي، أشتهي الرقص حتى مع عدم قدرتي على ممارسة الرقص وجهلي التام بكيفيته، الآن في هذا الوقت وهذه اللحظة أود أن أرقص . . أن أقوم من مكاني والموسيقى تشق طريقها نحو أذني . .أن أقفز برشاقة وأمد يداي وأدور في الرقصة ذاتها . . أن أغمض عينيّ مبتسمة أهز رأسي بهدوء انتشاءً من طربي الخالص مع الأغنية التي تداعب أطرافي وتراقصني . . أمد قدم واحدةً وأقفز في الثانية وألتف حول العامود بشكل متناسق . . أتحرك كما لو كانت الموسيقى تخرج من جسدي . . أعزفها عن طريق رقصتي الهادئة وصوت موسيقى يانِي التي تتحدّث تتغلل في أعماقي، أن يبدأ الكونُ في الاستجابة لرقصي . . تقتربُ كالاماتا حيثُ سواحل البحر المتوسط، أن أشاهد أريج بين الحضور تصفّق لي مبتسمةً هي التي لا تنفكّ تسمعنِي معزوفاته! أن يكونَ انتقالي من الرقصَ على عزفه أنيقًا يليقُ بصوتِ «هبة طوجي»، صوتها الذي يتحول لصوتي أغنّي بكلّ حبّ كلمات «منصور الرحباني» . . تدور حول محوري وكل شيء خاص بي أنا فقط الجمهور والأغاني والموسيقى وآلة الكمان في يدِ الرجل المسنّ، الوردة التي في معطف قائد

الأوركسترا ، المنديل الذي في حضنِ عازفة البيانو ، كلّ شيء هنا حسبَ اختيارِي أنا لـمى! أغمضت عينيّ أدندن بصوت خافت وجوارحي تستمع لي بإنصات وكأن الكون حولي أصابه الصمم وبقيت أنا وحدي أغني :

«يا حبيبي
عند أبواب المدينة ينتهي النسيان
وأنا والليل أنا والقرصان
والمحبون على أرصفة البحر
بحار من سكينة
تركوا الشارع يبكي
تركوا الأرض الحزينة والمصابيح الحزينة
أبحروا . . صاروا سفينة
أترى نحن هربنا؟
أم تراها هربت فينا المدينة؟»

لكن البحر هاج قبل أن أكمل رقصتي ، وقبل أن تنتهي أغنيتي ، عصفت بنا رياح قوية ، واندثرت ملامح المدينة ومات القرصان وبقيَ الشارع يبكي حتى الأرض الحزينة . . واحترقت المصابيح ومات المحبون غرقا ، حين فتحت عيني كان الكل يصرخ مرعوبا . . رأيت «وضحى» تركض أمامي . . «أم مشعان» تولول وتهول . . بعض الرجال يركضون ويصرخون «بلدية بلدية» ، «نوير» تلم بضاعتها بشكل فوضوي وتسحبها معها هربا . . أرى رجالا من بعيد يسحبون البضائع ويرددون «مخالفة للقانون» . . أبلع ريقي بذعر الخوف يتملكني لم أعد قادرة على

الحراك ، وصقر وسيف قد ذهبوا منذ وقت . . عاجزةٌ عن حمل البضاعة كاملة ، ولا أستطيع تركها فأكون خاسرة في الحالتين . . أشعر برغبة في البكاء مثلما تبكي «أم مشعان» أمامي . . البائعون هنا يساعدون بعضهم قبل أن يأتي عليهم الدور وتأخذ البلدية بضائعهم البسيطة . . أقف في مكاني بلا حيلة ، أخاف الهربِ وأخاف تركَ البضاعة . . قلبي يخفق لا أملك الوقت الكافي للاتصال على صقر لينقذني فرجال البلدية سيحسبون بضاعتي خلال دقائق قصيرة . . سأخسر ستبكي أمي . . سنضطر للتدين من جديد . . وتتراكم علينا الديون . . سيصرخ بوجهي أبي ولن يتردد في ضربي . . سيخيب ظن إخوتي بي ، سينصدم صقر حين يأخذني بلا بضاعة . . وسيضحك سيف على غبائي ، بدأت أجهش بالبكاء من ضعف الحيلة علّ بكائي الحزين يثير في نفسوهم شيئا من عطف فيتركون الفقيرة الباكية . . .لكن سرعان ما توقفت عن البكاء حين رأيت رجلاً نظيفًا معه رجل آخر يمسكون طرف القماش ببضاعتي ويطبقونه على الطرف الآخر ويجرون البضاعة كامله نحو محل الذهب بشكل سريع . . أمعن في النظر . . هذا «فيصل» يلتفت نحوي وينادي «تعالي قبل يمسكونك» . . ألحقه بلا تفكير ، لا أفكّر كيف أصبح شكلِي ونقابي المنهزِم أمام دموعِي ، مضيتُ خلفه كما لو أنّه آخرُ أمان لي ، ملجئي الأخير . . طوق النجاةِ الذي أرسله الله إليّ! يقفلُ الباب خلفه بهدوءٍ يبعثُ على الطمأنينة . . والرجل الآخر يدخل البضاعة في الغرفة الخلفية للمحل نفسه .

لا شيء قادر على إيصال المعنى تمامًا ، كالنظرة!

عابث

نظرات الإمتنان نحو فيصل الخجل خلف طاولة البيع أعمق وأبلغ من أي حرف سأنطقه . . نظراتي التي تحولت من الارتعاب إلى الامتنان أوصلت معنى الشكر كاملاً إلى قلب فيصل ، أو هكذا فهمت . . ظللت ساكنةً في مكاني صامته لا أجرؤ علي التحدث . . فيصل يعبث بهاتفه والرجل الآخر في المخزن الداخلي . . أخرجت هاتفي للاتصال على صقر للمرة الألف لكنه مقفل . . يتوجب علي الانتظار حتى الساعة الحادية عشرة ليقدم صقر ويأخذني بما أن هاتفه مقفل ولا أعرف رقم سيف . . ولا أود الاتصال بأمي ستهلع فقط . . بقي ساعتان على قدوم الحادية عشرة . . وملزومة الآن أن أقضي الساعتين تماما في هذه الأريكة الجلدية المريحة جدا . . فكرت في بادئ الأمر بالانتظار خارجا حتّى مجيء صقر وصديقه يأخذون بضاعتهم من المحل نفسه . . لكن خروجي لن يفيدني شيئاً ما دمت محكومة بالبضاعة الممنوع علي بيعها لمخالفتها القانون . . . أنتبه نحو فيصل وهو يتقدم نحوي حاملاً معه كوبا زجاجيا يضعه على الطاولة أمامي بهدوء :

- تفضلي

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

(أعاود النظر نحو وجهه من خلف برقعي)

- شكراً

يعود وراء طاولة البيع وينظر نحوي وأنا أمسك كوب شاي النعناع حائرة كيف سأخلع برقعي أمام فيصل وأشربه . . أم أمد الكوب من تحت البرقع ،

- أنا آسف لمباغتتك بهذه الطريقة . . كنت أحاول المساعدة

- شكراً لمساعدتك

- عفوًا

يعم السكوت مرة أخرى . .أشعر بعينيه تتجهان نحوي ، وأنا أتعبث بالكوب وإصبعي يدور حول أطرافه

- اسمك لمى صحيح؟

(أرفع رأسي)

- كيف عرفت؟

- لسهولة الحصول على المعلومات في هذا السوق

- وهل أخذت المعلومات الكافية؟ مادام الأمر بهذه السهولة؟

(تختفي عيناه من جديد)

- لا . . ليست كل المعلومات سهلة الحصول

يرجع الصمت يسيطر علينا . . يخرج الرجل الآخر من المخزن وتتبدل نظراته نحونا ، كل واحد يتصنع الانشغال أنا بالكوب الذي احترت كيف أشربه . . وفيصل بهاتفه الأنيق!

-٢٣-

علم إخوتي بالذي حصل يوم الأمس ، تقبلوا الأمر على مضض . . في نفوسهم قهر المظلومين ولا يملكون ماءً يطفئ قهر ظلمهم ما دام الحريق في صدورهم مفتعلا وليسوا قادرين على صد مفتعليه ، لكن «سعد» أقام الدنيا ولم يقعدها حين علم كيف أُنقذت بضاعتنا من الهلاك . . غلظ الحلوف والأيمان بقتلي . . ونذر لله نذورًا عدة بأن يقتل فيصل وأقسم بعزة الله أن يحرقهم جميعا . . حتى مع دعوات أمي المرتفعة نحو السماء بأن يرزق الله فيصل على قدر نيته ويؤتيه الله خيرا كثيرا ، صقر عبر عن إمتنانه شخصيًا لهذا الـ فيصل ، حين وصل دون أن يجيب على اتصالاتي . . ورأى المكان خاليا من دوني جفّ ريقه خوفا لكن البائع الهندي لمحل القمصان المجاور لـ «بسطتي» أخبره عن مكان وجودي . . لم ينكر صقر أنه توقع مني شيئا فاسدًا لكن قلبه اطمأن حين رآني متكئة على الكنب الجلدي الأسود أتعبث بهاتفي وفيصل بعيد عني يحوطنا الصمت . . شرح له فيصل الأمر كله ، شكره أخي ببساطة دون اكتراث ومضى بي والبضاعة في يده ، لم يستطع أحد أن يكبح غضب سعد ودمه الثائر . . كان يفضل أن تلتقط البضاعة بما فيها وأن يمسكني رجال البلدية على أن يساعدني رجل غريب ويدخلني محله وحدي بين اثنين ، لم يكن يهمني غضب سعد ولم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أكترث بأسبابه وصراخه لكني خفت أن يفلت غضبه ويقوم بضربي لمجرد أنه أنقذني رجل ، لكني هربت لغرفتي قبل أن يقوم من مكانه .

أفتح النافذة . . حتى مع هذه الخيبة التي حلت على رؤوسنا جميعا إلا أن في قلبي شيءٌ يشبه الفرح ، ساعدني ذلك الشعور بهِ وإن كان طفيفًا على النظر للمشكلة بشكل إيجابي ، لن أضطر للذهاب أسبوعًا على الأقل ذلك يعني حصولي على إجازة اضطرارية من هذا العمل المثير للشفقة ، فكرة أن فيصل القابع في مكانه منذ شهور تحرك وتقدم نحوي بل وجرني إلى مكانه شيء آخر كفيل بأن يجعلني أبتسم ، تطرأ أريج فورًا على بالِي وتزداد ابتسامتي يجب أن أخبرها بآخر المستجدات التي حصلت . . لأرى فكرة خبيرة العلاقات العاطفية والنفسية والإنسانية الذكورية على وجه الخصوص . . حول هذا الموضوع ، لكن الوقت مبكر على الهروب خلسة إلى منزل أريج . . يجب أن ألبث حتى يتفرق جمع إخوتي وأن يهدأ سعد على وجه الخصوص ، لا أعلم كيفَ ستكون ردّة فعله إما رآني خارجةً أو حتّى كنّا لوحدنا في صالة مثلاً! يجبُ عليّ أن أنتظر حتّى تدخل أمي غرفتها ، ينام وليد ، أنتهي من تنظيف المطبخ وكي ثياب ناصر وترتيب الصالة و . . . آآآه ينتظرني الكثير قبل الذهاب لأريج! . .أمسك هاتفي لا أطيق الانتظار يجب علي أن أخبر أريج نبذة بسيطة عما حدث وأتصل بها وأخبرها بالبقية حين أراها . .لكن يبدو أن أريج منشغلة مع أحد رجالها المليون . .هاتفها مشغول على الدوام كما هي العادة . .

أرسل رسالة قصيرة «يتقدم البطل الصامت خطوات عدة! أحزري كيف؟»

تدخل أمي حاملة معها صحنًا حديديًا كبيرًا عليه ملابس مغسولة رطبة . . تضعها على الأرض بوهن العجائز وهي تمسح كفيها المبلولتين بالماء من أثر الغسيل ، نسيت مهمة الغسيل أيضاً يبدو أن فكرة ذهابي لأريج ستتأجل كثيرا!

- انشري الثياب خارجا قبل أن تغيب الشمس ، غسلتها بدلا عنك!

(أحمل الصحن الثقيل على جهة واحدة من جسدي)

- حاضر ، هل استيقظ وليد؟

- لا . . موعده اليوم في المستشفى الساعة الثامنة مساءً . . سأذهب به أنا وناصر سوية ، هذه المواعيد تزيد همي

- لماذا؟

- من المفترض أن يكون الموعد بشكل دوري شهري ، حتى يتم ثلاثة أعوام على الأقل ، لكن صعوبة الحصول على المواعيد في المستشفيات الحكومية تجعل الأمر متأخرا وأخاف أن يؤثر عليه كل تأخير ، ولا نملك المال الكافي لمعالجته في مستشفى خاص ، الأمر محبط بعض الشيء

(أتنهد من عجز أمي وقلة حيلتها)

- لا تقلقي سيكون الأمر على ما يرام ، لن يؤثر به التأخير شيئا ما دام لا يأخذ علاجا حتى الآن لصغر سنه . . سيضره التأخير لو كان في الأمر علاجا وتأخر عنه

(تبتسم أمي مرتاحة بشكل جزئي)

- هذا صحيح . . لا تنسي الغسيل يا لمى

أهز رأسي . . تخرج أمي وأتبعها أنا خارجة نحو المساحة الضيقة في فناء المنزل الصغير جدا ، أعصر القميص بقوة حتى يتقاطر الماء منه بشكل وفير وأمسك بأطرافه وأضربه بالهواء لتتناثر قطرات الماء منه على وجهي وأعلقها على الحبل البرتقالي . . وأمسح الماء من على وجهي بذراعي النحيل . . أتنهد وأكمل الملابس المتبقية وتنتظر دورها ، أحاول أن أبدأ بالغناء علّ الغناء يساعدني . . أبدأ أهمسُ «أجلسُ في المقهى منتظرًا ، أن تأتِي سيدتي . . .» أتمايل مع تذكّري أداء كاظم لها ، أكتشف أنّي مع غنائي السيء أبذل جهدًا أكبر من لو قضيتُ نشر الغسيل صامتةً ، أضجرُ من ضعفِي ووفرَة الغسيل ، أكمل جبل الملابس بينَ يديّ صامتةً!

***

تربيتي كانت تحثني على الهروب من جهنم لكنها لم تهدني لطريق الجنة بشكل صائب ، المبتغى الأول هو الهرب من العقاب والنار وعذاب القبر ، فرض عليّ الاغتسال من كل الخطايا والذنوب والتماس الغفران لكافة الذنوب والآثام التي مارستها أو فكرت في ممارستها فقط ، كانت «جهنّم» هي المرادف الأول ليوم القيامَة حين يذكره أحدٌ! كنت طفلة الثامنة تخاف النار ويرعبها الموت ويهولها القبر وتبكي إذا ما هددوها بالعقاب الإلهي ، أخبرتني معلمتي مرارا أن الكذاب مصيره النار يحترق فيها . . حين كانت تسألني عن سبب يجعلني لا أحل واجب الإملاء وأجيبها كذبا . .أمي مريضة ، وما زلت

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

أذكر أمي حين كانت تضرب إخوتي بعصاها النحيلة يوم وجدت حلواهم المسروقة من دكان العم عوض وهي تصرخ «السارق تنقطع يده» ، كانت فكرة الترهيب والخوف من العقاب الإلهي هي المسيطرة على أذهاننا جميعا ، مع أن فكرة الترغيب النافع أكثر تقبلا من الترهيب الضار ، الاختلاف بسيطٌ بينَ الترغيب والترهيب ، أن تقول . . الكاذب مصيره النار/الصادق سيدخل الجنة ، فكرة الجنة أرق وأجمل وأكثر ترغيبا لفعل الخير عوضا عن الشر ، لكني لا أخاف النار بل أخاف غضب الله وليست رغبتي الأولى الجنة . .إنما كل ما أرغبه هو رضا الله وحبه لي وهذا الشيء سيصيّر كل أموري دنيا وآخرة إلى سلامٍ وأمان .

أضع عباءتي الواسعة الحرير على كتفي أمسكها بيدي كي لا تسحب الأرض معها ، أشد على برقعي . . أفتح باب الحديد المطل على الشارع بحذر الهاربين خلسة وصوت هذا الباب العجوز سيفضحني كأنه ينادي بصوت أكل عليه الدهر «انظروا الهاربة ستولي هربا» أشتم الباب وودت لو يفهم ما أقول كي يكف عن البكاء في كل مرة أحاول الهرب ، أطل برأسي وأتمنى من كل قلبي أن ينعدم وجود إخوتي في هذه اللحظة . أضع قدمي هاربة وأعدوا باتجاه المسجد القديم . . لأعبر الممر الضيق بجانبه ، صوت ترتيل الإمام يطمئن خوفي ويهدئ من نبضات قلبي المتسارعة . . أخيرا عبرت الممر دون أن ينتبه أحد ولا حتى رجال الحارة المارين المتجهين نحو المسجد . . منزل أريج يقبع في زاوية الشارع الفسيح هناك ، يجب أن أعدو من دكان

العم عــوض المغلق من أجل الصــلاة لأصل أريج بشكل مختصر . .

بيد أن التجمع الشبابي أمام الدكان مثير للقلق ومن بينهم سـيف يتكئ على الجـدار وينفث دخـانه بوجـه أصـحـابه المتـضـاحكين ، . . شـددت على عـبـاءتي وتحـسـست برقـعي ومشيت بشكل سريع . . سأعبر الكثافة الدخانية بين كومة الرجال المدخنين هناك وسأصل منزل أريج المفتوح على الدوام ، لـم أسـأل يومًـا لـمَ بابُهم مـفـتـوحٌ دائمًـا ، أمـشي بخطوات متلاحقة ، يدي تمسك عباءتي على صدري واليد الأخرى تحمل الجزء السفلي من العبـاءة الطويلة . . أعدو من أمامهم يصمت الجميع تتعلق الأنظار نحوي ولا سيما سيف الذي عـرفني بالتـأكيـد لتكرر شكلي الرهيب أمامه بشكل يومي ، يجب أن أقطع الشـارع البـسيط المقـابل للدكـان من الجـهـة الجانبية . . لكن السيارات لا تتوقف عن العبور ويجب علي الوقوف حتى تعبر آخر سيارة فأقطع الطريق . . هذا ما جعل فرصة نظر المحدقين نحوي تزيد أكثر ، تنتهي السيارات المليون العابرة وأسرع نحو الباب وأقفله خلفي . . أتكئ عليه آخذ نفسا عميقا . . نفس الانتصار ، انتصار الهاربين من كل شيء بحثا عن سبل المتعة المرفوضة المحرمة علي . . وأخالف شرعهم المفروض وأستبيح الحرام لذاتي من أجل بضع وقت أقضيه بعيدًا عن جو المنزل! أصبحتُ أعرف كيف أسيرُ إلى غرفة أريج بأقصر الطرق ، تستقبلني عند الباب الداخلي . . ندخل سويا لغرفتها الأرجوانية أنزع عباءتي ألهث وألقي بجسدي على

سريرها الواسع وتقف هي في زاوية غرفتها تعد الشاي الجاهز على الطاولة ينتظر الإعداد فقط ، قبل أن تأتي بالشاي في يدها أقومُ إلى تسريحتها الممتلئة بالعطور الباريسيّة أعدّل شعرِي . . آخذ عطرًا جديدًا أبخّ منهُ قائلةً «ما شاء الله عطر جديد ، هديّة أيضًا؟» تقتربُ إليّ أكثر ، تمد لي كوبا وتجلسني جانبها على السرير :

- ليس الآن ، لا أطيق الانتظار أكثر ماذا حل بالبطل الصامت؟

- دور البطولة يا أريج ، أنقذني من البلدية بشكل سريع . . حمل البضاعة بكف والكف الأخرى حملني بها وطرنا سويا بعيدا عن الأشرار . . حتى إذا ما انتصفنا في السماء علقني على أحد السحب أستريح فيها ويعود ليحارب الأشرار في الأسفل!

(تنظر لي بوجه متجمد)

- كفي عن لعب الأطفال وأخبريني ماذا فعل «سوبر مان» حقيقة وواقعا!

أعتدل في جلستي . . وأستعد لأحكي حكايتي وهي منصتة إلي كما لم تنصت لي من قبل ، وهذا الشيء أشعرني بالتميز قليلا . . أني أملك حكاية تحكى ورواية تروى تنصت لها أريج وأحكيها أنا وحدي لا تقاطعني ولا تستطيع الحصول على مثلها أبدا ولا يهمني .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

الرجال الذين أنجبونا كماسحات فارغة لتحمل أسمائهم الواهية ، لنكون عكازًا لأرذل عمرهم فقط . . هل يستحقون حبّنا؟

سنا البدر

يستلقي أبي بوهن على الكنب المهترئ في الصالة الزرقاء ، صوت مذيع الأخبار يعمّ المكان ، مع أن اليوم ليس بجمعة لكن قوانين أبي باتت بلا قيمة مؤخرا . . أراقب وجه أبي المحمر من هول الحمى التي باتت لا تفارقه . . جانبه أمي تبدل بين الخرق الموضوعة على رأس أبي ، تارة تغمرها بالماء الممزوج مع الخل ، وتارة تضعها على جبهة أبي المتعرقة . . يرتجف وأسمع صوت اصطكاك أسنانه . . أنظر إليه بوجه بارد لا أحمل مشاعرا معينة تجاه هذا المنظر الذي يفترض أن أكون به حزينة أو أملك شيئا من التأثر ، لكنني لست بتلك المثالية . . أنا لا أحبه!

يجلس في حضني وليد الصغير يلعب بفنجان الشاي ، يلعقه ويقلبه بين يديه الصغيرتين . . صار وليد يجلس أخيرا دون مساعدة وقد أبهج جلوسه أمي حتى بان ذلك في وجهها وضحكتها كأنه أول طفل تعرفه يجلس ، لم ترزق بجملة من الأبناء جميعهم تعلموا الجلوس أيضا ، ضحكت حين رأيت أمي البارحة تصفق فرحة متهللة وتنادي علينا لنرى ما الأمر الذي يستحق كل هذه الفرحة العامرة . . خرجت من غرفتي

حين رأيت ياسر يقف ضاحكا وفهد يصفق بجانب أمي وأبي المستلقي على الكنب كما حاله الآن مبتسمٌ ابتسامة تعب . .

- وليد صار يجلس

قالتها أمي ملتفته نحوي ونحو ياسر ،تفاعل ياسر مع فرحة أمي وحمل وليد وصار يطيره بيده نحو الأعلى ، وصوت ضحكات وليد ترتفع . . ابتسمت حزنا وأنا أرى أمي تنظر لياسر ووليد بعينين تملؤهما الدمع مع ابتسامة سعيدة جدا . .يئن أبي من جديد . . يقطع علي ذكرى البارحة . . أمي قلقة جدا وهي تسمي عليه وتنفث على وجهه . . تحمل ماء بيدها وترفع رأسه بيدها الأخرى تحاول أن تسقيه الماء بصعوبة . . أنزل وليد من على حضني متجهةً أساعدها حملت الكأس عنها وصرت أسقيه ويدي الأخرى تحت فمه كي لا يسقط الماء عليه فيبرد أكثر . .

- اتصلي على أحد أخوتك ، حرارته لا تنزل أبدا وهذه الخرق والماء لا تجدي أبدا يجب أخذه للمستشفى

أمسك هاتفي القديم جداً ، اتصلت على سلمان ولم تمضي دقائق إلا وقد جاء مسرعا ، اقترب نحو أبي وهو يئن متعبا . . تحسس جبهته بيده ثم صار يلمس أجزاء جسده متأكدًا من حرارته . . نادى ياسر بانفعال ، خرج ياسر مسرعا من غرفته :

- ما الأمر؟

- تعال وساعدني في حمله ، أبي مريض جدا سنذهب للطوارئ

يرمي ياسر مفكرة ما كان يمسكها بداخلها قلمٌ . . حملا

أبي سوية وخرجا الاثنان مسرعين إلى السيارة ، خلفهما أمي تسحب عباءتها . . تركض وراءهما بهلع وهي تردد «يا رب سلّم سلّم»!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٢٤-

الله يتفهم تكرار أخطائنا وتشمل مغفرته زلاتنا مهما تفاقمت في السوء ، البشر لا يفعلون ذلك ولن يسامحوك أكثر من مرة مهما بلغت محبتهم لك .

أحلام النهدي

لست مثالية للحدّ الذي يجعلني أشعر بشيء من السوء تجاه أبي حين حمله إخوتي ، لم أكن مهتمة جدا لأني حقيقة لا أحبه ولا يهمني ما الذي سيحصل ، إلا أن في قلبي بضع إحساس بسيط يحاول أن يدركني معنى الشفقة لكني لم أدركه بعد . . لا أستطيع بعد ثلاث وعشرين سنة قضيتها بين يدي أبي أتلقف الألم بكل قسوة . . أن أجد شعورًا واحدًا في قلبي له . . فطرة الحب التي يجب أن تتوجه لأبي قتلها هو في كل مرة كان يضفي علينا نوعاً جديدا من الحسرة والخوف ، مات حبي المفطور قبل أن ينضج . . ولا تُحيى الأشياء بعد موتها إلا بالمعجزات . . ولا أجد في أبي سوى العجز فقط .

أحمل وليد على جهة واحدة من جسدي . . أتجه مسرعةً نحو المفكرة التي ألقاها ياسر بلا استيعاب قبل خروجه . . أسرقها خلسة وأهرب نحو غرفتي حتى مع خلو المنزل

بأكمله . . أقفل الباب خلفي ، أضع وليد على الأرض ، أجلس تأكلني الحماسة لقراءة ما كتب . . كل الأشياء صارت تدور في رأسي . . عما يكتب ماذا يكتب لمن يكتب ، لكن كل شيء عكس أفكاري حين فتحت المفكرة الكبيرة وأنا أرى رسومات كلاسيكية جميلة جدا بالرصاص . .الصفحة الأولى عينان جميلتان لكنها لم تكتمل بعد ، الصفحة الأخرى العينان ذاتهما باختلاف أنها اكتمل وجهها . . كانت فتاة حسناء جدا عابسة وعيناها متجمدة أشعر وكأنها تخترقني ، بدأت أتصفح المفكرة القديمة بنهم وأنا معجبةٌ جدا بفن أخي . . كل الرسومات كانت عن فتاة واحدة لا تبتسم ولم أرها قبل الآن . . جميلة جدا ، أتقن ياسر في إبراز ملامحها . . الشفاه الممتلئة ، الدقن النحيل مع عظام الفك السفلية البارزة ، أنفها ليس حادا جدا أضاف لملامحها شيئا من البراءة . .ما اسمها يا ترى؟ ما الاسم الذي اختاره لها ياسر مثلما اختار ملامحها؟ هل اختار ملامحها حقا أم انها شيءٌ واقعي!

يرن هاتفي برنة مزعجة تقطع تأملي والانسجام التام مع رسومات أخي الرسام الجديد ، رقم غريب . . لابد أنها أريج صاحبة الأرقام المتجددة على الدوام هربا من رجالها السابقين ، أغلق المفكرة وأرد وأنا أرمي نفسي على وسادتي اليتيمة

- أهلاً

- . . . أهلاً

(ليست أريج ، صوت ذكوري جديد . . . ، أعتدل بجلستي)

- نعم؟

- لمى؟

- من أنت!

- هدئي من انفعالك، أنا فيصل الرجل في الدكان المجاور لك في السوق هل عرفتني؟

(يخفق قلبي)

- امم . . . نعم عرفتك ما الأمر؟

- لا شيء أردت الاطمئنان فحسب . .منذ ثلاث أيام لم أرك . .هل أنت بخير؟

- نعم شكراً لاهتمامك، كيف استطعت الحصول على رقمي الخاص؟

- ألم أخبرك مسبقا عن سهولة الحصول على المعلومات في هذا السوق؟

(أبتسم بلا شعور) يكمل حديثه كأنه لم يكن ينتظرُ جوابًا :

- هل أزعجك اتصالي؟ كنت سأطمئن فحسب

- لا . . . أنا بخير، لكن يجب أن أغيب فترة بسيطة عن السوق حتى لا يتكرر ما حدث في المرة الأخيرة .

- نعم . .غالبيتهم فعلوا ذلك، لكنني لم أفتقد من الغالبية سواك

أصمت ولا أعرف بماذا يجب أن أرد على كميات اللطافة الموجهة نحوي، لست معتادة على اللطف بهذا الشكل ولا أجيد التصرف مع الغرباء، مع ذلك لست متضايقة مما يفعله

معي أحببت اهتمامه ، قلبي يخفق بسرعة! أشعر أنّ الهاتف بدأ يحترّ أو أنّني نقلتُ الحرارة في قلبي إليه ، أرتبكُ . . أبدأ بتحريك أصابعي وسط شعرِي ، ويُكمل حديثه الهادِئ وصوته الذي بدى أجمل في الهاتف!

***

«أشهق بانفعال»

- كذابة . . «احلفي»

تبتسم ابتسامة انتصار كفيلة عن الحلف ، وتلزمني التصديق :

- أخبرتك قبلا أن الرجال سواسية بما فيهم سيف . . . ، الذي عجزت عن تقبل فكرة أنه يملك أية عواطف أصبح الآن لا يطيق الليل دوني .

- أتحسبينه صادقا؟

- لا أرجو منه صدقا ، عواطفي معه مزيفة من الأساس فما المشكلة لو تزيف عاطفيا من أجلي! المهم أن سيف شخصيا يحادثني بطريقة عاطفية ، كذب أم صدق في مشاعره . . لكنّه يفعل!

- لست متأكدة بعد أنه سيف فعلا ، أظنك قد أخطأتِ برقمه ، يوجد شيء خاطئ لا أعلم ما هو . . .

- سأثبت لك أنه سيف !

- كيف؟

- ليس الآن . . المهم كيف حال سوبر مان؟

(أتنهد وأستلقي متضاحكة)

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- لطافته تقتلني . .لطيف جدا

- حين تقولين عن رجل ما لطيف . . فأنك تحولين مسمى الاعجاب لمسمى اللطافة كونك لا تجرئين على بوح الإعجاب لذاتك بهذه السرعة

- ما شاء الله محللة نفسية وأنا لا أعلم آنسة أريج؟

- لا . . خبرات سابقة . .

- متمرسة في المجالات العاطفية

(تبتسم بفخر)

- وبكل تواضع . . . بيد أني لم أحب أحدا

- لأنك لا تملكين الثقة الكافية للحب . . تجاربك العديدة تنقص من ميزان عواطفك حتى أصبحت مستهلكة

- العواطف لا تُستهلك . . .

- بل تستهلك حين تمارس زيفا

(تقف وتتجه نحو المرآة . . تبحث عن شيء ما بحماسة)

- ماذا تفعلين؟

- سأثبت لك أن العواطف غير قابلة للاستهلاك ما دامت مزيفة وليست واقعية

(تأخذ عطرا تمده نحوي)

- انظري لهذا العطر . . تخيلي أني أرشه على جسدي . . خيالا فقط تخيليه . . هل تستطيعين شم رائحته؟

- لا بالتأكيد

- لا يا لمى . . تخيلي رائحته

- كيف تتخيل الروائح؟

- إذا تخيلي أني أستخدمه يوميا على هذه الحال . . أني أضعه على جسدي يوميا بطريقة خيالية دون أن يلامس العطر ذرات الهواء أبدا . . هل سينتهي العطر؟

- امم لا أستطيع الإجابة على الأسئلة المحصورة

- بالتأكيد لن ينتهي . . لكني لو فعلت ورششته حقيقة وواقعا

«تملؤ جسدها عطرا حتى كادت تخنقنا»

- هل تشمين رائحته؟

(أسد أنفي بيدي)

- قصدك هل اخترق العطر مخيخك؟

- ههههههه ،لو أني أستخدم العطر يوميا على هذه الحال؟ . . هذا ما يسمى الاستهلاك . . حين يصير شيئا حقيقيا

- لكنه سينفذ

- غبية غبية ، العطر سينفذ . . والعواطف تزداد في كل مرة ينبض بها قلبك تجاه من يحب . . ستتكاثر وتتفاقم وتتوالد وتنقسم عبر الانشطار حتى!

- هههههههه فهمت فهمت

(تبتسم بمرح)

- سأموت وأنا أخبرك بكل شيء . . يجب أن تتعلمي بنفسك لن أدوم لك!

***

بعد المكالمة الأولى بيني وبين الرجل النظيف . . أصبحنا نتبادل الرسائل القصيرة البسيطة مؤخرا . . «كيف حالك؟» ، « الحمد لله بخير . . أنت؟» ، «سعيد» .

ومع كل مرة يجيئني رده أشعر بأنه لطيف جداً ولطافته تزيد من حماستي معه . . لا أعلم عن صحة ما قالته أريج عن مسمى الإعجاب المؤول إلى لطافة لمجرد أني لم أستطع الاعتراف بعد بالإعجاب القوي تجاه هذا الـ فيصل . . لكن الأصل أني معجبةٌ بلطافته !! أشعر أني لا أستطيع فهم ذاتي مع وجوده . . أتبعثر قليلا فعواطفي جديدة في هذا المجال الواسع والمخيف حرفيا . . لكني لست إلا في البدايات . . أستطيع الهرب إذا ما كان الأمر مرعبا فعلا . . أنا أخاف المجازفة بشيء لا أثق به . . ولا أثق بعواطفي . . ولا بقلبي . . ولا بمشاعر متوجهه نحو أحد ما . . إن استنزفت في حق أحدهم صعب علي إعادتها حيثما كانت . . فإن خرجت العواطف من القلب على هيئة مشاعر . . لا تعود كما كانت ، فإن عادت حبا يخفق النبض ذلك مرعب ، وإن عادت كرها يسكن القلب . . ذلك أشد رعبًا !

«رسالة»

عادت البائعات مكانهن سواك . . . متى سيجيءُ دورك في العودة؟

«رد»

لا أعلم . . لكني مرتاحة بعدم عودتي حتى الآن

«رسالة»

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

أنا عكس ذلك

أبتسم . . يعبر عن ذاته بشفافية كاملة ، أشعر بحماسة كي أعود للسوق . . هل سيبقى في مكانه متفرجا أم سيتحرك هذا البطل الصامت ما دامت بينا أحاديث تختلق ، كان يستطيع من المرة الأولى حين تسلف مني الخمسة عشر ريالا . . أن يبدأ بجميع المحاولات حتى يصل إلي . . لكنه انتظر حتى تصالحت معه الظروف ضدي واتفق الكون معه علي . . على أن يكون بطلي الصامت الذي أنقذني من رجال البلدية وأنقذ أهلي من الدين . . وأظن أن تفاعلي معه وتبادل الحديث كشيء ما يشبه الشكر . . وخجلة عن ردهِ ما دام أنه أصبح مؤخرا بـ «سوبر مان» .

أخرج من صومعتي . . متجهة نحو الصالة الزرقاء حيث يجلس أبي متأملا التلفاز على قناة تبث فلم وثائقيا وأستطيع أن أحلف الآن أنه لا يفهم ما يقول . . لكنه متحمس بطريقة ما ، أمي تقصر ثوب سعد ليصبح مقاس فهد وعينٌ على الثوب وأخرى تراقب والدي الذي منذ خروجه من المستشفى أصبح قليل الكلامِ لكنّ صحته تبدو أفضل! تسفط طرف الثوب من الأسفل حتَى يصل طول الثوب كاملا مناسبا لطول فهد . . وتخيط الجزء الذي تم سفطه ، وتفعل بالأكمام كما فعلت بطرف الثوب أيضا . . فهد مستلق على الأرض ينظر إلى الشاشة بملل الأطفال ، وياسر يلاعب وليد الضاحك . . والبقية مختفون ، أجلس بجانب أمي وعيناها مركزة حول الإبرة والخيط!

- متى سأعود للعمل في السوق؟
(تلتفت نحوي باندهاش)
- هل تطلبين حقا الذهاب بكامل قواك العقلية والجسدية؟
(أبتسم)
- هداني الله كما دعوتِ لي دائما
- الحمد لله ربي استجاب دعواتي
- في المرة المقبلة ادعي بكنز يا أمي أهم ذلك من هدايتي
(تقرصني)
- استغفري ربك . . ما الفائدة من مال الدنيا ما دام الله لن يهديك وتخسرين الآخرة
(أتحسس قرصة أمي وأنا أضحك)
- «ااخ» هذا مؤلم أمزح
(تخفي ابتسامتها البريئة)
- «تستاهلين»

-٢٥-

الحرية لا وطن لها ، الحرية سماء ، والسماء وطن الجميع

محمد السالم

اخترت أن أكون حرة ، رغم أنف هذا المكان المحاصر بي أن أهرب متى ما تحين لي الفرصة ، إلى أي مكان . .أن أرتدي برقعي وعباءتي السوداء وأتسكع في طرقات الحارة قبل موعد استيقاظ أبي وعودة إخوتي . . لأن المنزل يكاد يبتلعني! ملابس الغسيل تسخر مني تنظر إلي بعينين ضاحكتين ساخرة من تعابير الملل على وجهي وأنا اغسل الكم الهائل من الملابس ، المكواة أيضا تحاول قتلي . . حين كويت اليوم ثوب عمر سقطت المكواة على قدمي . . لم أحترق لكنني خفت منها رأيتها تبتسم علمت أنها ستقتلني في المرة المقبلة . . أرى النافذة تشير لي من بعيد تحثني على الهرب . . والباب يفتح أحضانه يحرضني على ذلك أيضا ، كانت كل المعطيات حولي تصرخ في وجهي «اخرجي ، تنفّسي» لم أكن مستعدة لتحمل مسؤولية منزل كامل وحدي . . كانت مريم تساعدني وأمي تتكفل بغالبية الأمور ، أنا عاجزة عن كل شيء يخص ترتيب هذا المنزل . . لماذا أنا؟ لم لا يأتي سلمان يغسل صحون الغداء ، ويكون الدور

على ناصر لغسل الملابس ، وصقر يمسح النافذة ، أما ياسر المسكين لن أحمله مسؤولية شيء لأنه يساعدني في الحقيقة ، وسعد وعمر سيتكفلون بالكنس ، وفهد الصغير سيكون مسؤولا عن وليد . . وأنا سأستلقي أمام التلفاز مثلما يفعلون وقت الظهيرة وأتركهم يمارسون أعمالهم المنزلية وحدهم دون مساعدتي ، من فرض على الإناث أمور المنزل وترك التسلية للرجال؟ من الظلم أن يترك عاتق المنزل على الفتاة النحيلة تحمل صحنا حديديا مليئًا بالملابس الرطبة الثقيلة ، بينما الرجال يتوسدون الكنب أمام التلفاز بحجة أن هذا العمل لا يناسبهم ، أقصد إخوتي جميعًا ما عدى أخي اللطيف ياسر ، الذي يساعدني في نشر الملابس خارجا ونتبادل الأحاديث رغم صمته الطويل .

كنا في الفناء الضيق بجانب المنزل أعصر الملابس من الماء وينشرها هو على الحبل الأرجواني القديم . . أخبرته عن مفكرته التي جاءت إلى غرفتي عن طريق الخطأ بالطبع ولست من سرقها خلسة !!

نظر إلي مبتسما

- هل أعجبتك؟

- جداً . .من تكون هذه الجميلة؟

(ينشر الثياب ولا يلتفت لي)

- أحد الجواري اللاتي أمتلكهن .

- هههههههه «بشويش يا السلطان سليمان»

(يبتسم بلطف)

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- يبــدو أنك عــاشق لجـاريتك جـلالة السلطان سليــمـان القانوني

- شيء من هذا القبيل

- ما اسمها؟ روكسلانا؟ الكساندرا؟ أو هُرم؟

- لا لمى . . .

- هاهاها . . . متى سترسمني؟

- لا أستطيع رسـمك . . يكفيني رسـمت لمى واحدة وهذا كافي

- ما أبغضك

يضـحك ويمسح الماء الذي في يده على وجـهي . . أزداد حمقا ويهرب إلى داخل المنزل متضاحكا على مزحه الثقيل . . أمسح الماء من على وجـهي بغـضب وأنا أتفف منه وفي قلبي امتنان صغير لأخي اللطيف .

أفسِد وحدتي ، قاوم رغبتي الشرسة للانزواء بنفسي وأقترب ، الفراغ من حولي يكبر . . يكبر . . وأنا أضيع في التيه

أحلام النهدي

هذا ما حاول فعله فيصل مؤخرا . . أفسد وحدتي بالمعنى الحرفي لذلك ، لم أعد أدرك الفراغ حينما كانت رسائله تصاحبني . . الشفافية المتفرد فيها تجعله يكتب أحاديثا طويلة دون أن يلقى رداً لذلك . . يكتب لمجرد أن يكتب لي . . أحيانا أرد عليه بتعليق بسيط . . لكن في الغالب أحاديثه تخترق صومعتي الخالية من أحد . . كسلحفاة صغيرة ظلت تخبئ رأسها في ذاتها . . حتى أخرجت رأسها صدفة فأدركت الحياة مؤخرا خارج محيط صدفتها . . لم يكن مثيرا جدا لكنه أثار بي شيئا من البهجة التي تعانقني حين يأتيني صوت الرسالة من هاتفي تنبيها لولوج إحدى حكاياته الجديدة في هاتفي . . وأنا الفتاة المتصحرة عاطفيا ما كانت تأتيها سوى رسائلٍ من شركة الاتصالات الخاصة برقمي تخبرني عن موعد انتهاءً رصيدي إذا ما باشرت شحنه من جديد ، أستطيع تخيل شكله وهو يكتب رسائله . . تختفي عيناه إذا ما صار مبتسما . . حين يكتب لي عن حكاية مضحكة حصلت له مع رجل المرور الذي صادفه في الطريق ، يعض ظفر إبهامه بشراسة حين ينغمس في فكرة ما محاولا خلق مجال آخر للحديث . . حتى أتفه

الأشياء جعل منها شيئا يحكى عنه ، وأستلطفه أنا . . تركيزه التام مع كل تعليق مني لا يجيئه كثيرا ، تتسع حدقة عيناه حين يحادثه أحد وتتفاعل معه جميع تعابير وجهه . . أستطيع تخيل كل ذلك بلا شك ، لأن عيناي لازمت شكله لأشهر عدة وهو يقف متفرجا بجانب الباب . . حفظت شكل عينيه الصغيرتين . .عضة الإبهام . . وتعابير الوجه المتفاعلة مع المتحدث ، تأملته كثيرا حتى لازم خيالي وأدركت انفعالاته عن بعد دون أن أراه أمامي ، قررت مشاركته الحكايات والتعابير . . ولم أقرر ما الذي سأكتبه له . . وبدأت أكتب :

«مرحبا . . يومك سعيد يشبه حكاياتك . . كم كان يلزمني من الوقت لأعدو سور الجرأة وأكتب لك بهذه الطريقة المشابهة للحرية المطلقة؟ امم . . تعجبني فكرة الرسائل حتى مع أنها مطورة إلكترونيا ولا تُقرأ على ورق لا يضمها خطك . . لكن باعتقادي أن الحروف المكتوبة على شكل رسائل تلامسنا بشكل أعمق ، أكثر من أنه لو استمعنا للحروف استماعا . . لأن الكلمة المسموعة لن تستطيع إعادة لحظة الشعور بها . . بعكس الكلمة المكتوبة في كل مرة ستقرأها ستشعر بالإحساس ذاته كما لو أنك قرأتها للمرة الأولى ، قد يزداد إحساسك أكثر بعد اللحظة الأولى . . أتراني أكتب هرطقات لمجرد الحديث؟ لا أعلم . .قد يكون كذلك»

تركت هاتفي القديم على سريري بطاقة إيجابية بالغة ، ورحت نحو مسجلة أبي القديمة الذي صارت ملكي مؤخرا ولن يستطيع أخذها مادام في هذه الحالة البائسة ، أبحث بين

الأدراج عن شريط قديم لـ «طلال مداح» . . أنغمس في البحث جاهدة عن أغنيتي التي أود استماعها هذه اللحظة والآن . . وجدته منزويا تحت دفتر قديم . . أضع الشريط في المسجلة وأنا أحفظ أماكن ومواقع الأغاني عن ظهر قلب . . أضغط الزر الفضي وفوقه شكل مثلث . . أستمع ، لا ليست هذه الأغنية . . . .أستمع من جديد ، ولا هذه . . أستمر في إعادة الشريط حتى أصل لأغنيتي المنشودة . . وجدتها أخيرا أغنية «اسمع حياتي» . . أرغب سماع المقطع الثاني على وجه التحديد . . أضغط الزر الفضي الآخر وأقدم الشريط بطريقة بدائية . . أقف عند مقطعي المطلوب . . آآه أخيراً . .

«أسمع حياتي لا تسيئ الظن بيّا
حكم ضميرك قبل ما تحكم عليّا
علقت نظرات عيني في العيون المستحية
علمتني ، فهمتني ، معنى كلمة جاذبية . . . يا عنيّا»

أخذت أتراقص وأعيد وأزيد في المقطع ذاته ولم أنفك عن ذلك ، في كلّ مـرّةٍ كنتُ أندمجُ في الأغنية أكثر . . كنتُ أتشبّث بصوتِ الأرض أكثر ، كان صوت طلال نبيذِي الفاخر تلك الليلة وأدمنته! ما زلتُ أذكر مهووسَة الأغاني أيّام الثانويّة «روان» تقول أنّ صوت طلال نبيذٌ فاخر لا يجوز احتساؤه كلّ يوم ، نعم يا روان هذا اليوم ليس ككلّ يوم . . اليوم بدأت أعبثُ وأطيل الحديثَ ، بدأت أطيل الهرطقَة! اليوم ليسَ كبقيّة الأيام . . أحسنتِ يا روان!

***

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أود أن أكون أمًا روحية لكل مضطهد في هذا الكوكب ، أن أساعد كبير السنّ النائم على حافة شاطئ البحر في إحدى جزر الكاريبي ، أبتسم لبائع الخبز المنهك في أفغانستان ، أحضن الطفل الفلسطيني الباكي بين جنديين إسرائيليين وأنقذه منهم ، أقبل رأس السيدة العمياء في الفلبين ، أبني بيتاً لعائلة فقيرة في كيرلا الهنديّة ، وأشتري الطعام لجماعات الصومال ، أن أجلسَ على الرصيف مع المتعب في ضجّة القاهرة أخبرهُ أنّه لا أحد يستحقّ ، أن أطبطب على كتف ابنة الجيران التي يضربها إخوتها أمام الجميع في الشارع ،لكني هنا . . . أحمل الأمنيات داخل غرفتي / قلبي وأحكم الإغلاق . . محاصرة في هذا المكان تفوق الظروف أحلامي وتسحقها بلا اكتراث . . أظل عالقة في هذه المنطقة بين أكوام من البشر في حي فقير بعيد منزو وسط مدينة صحراوية قاحلة مجهولة . . لا تعرفني سيدة عجوز عمياء ولم يدركني طفل باكِ . . ومازال المسن نائما حتى مات هذه اللحظة!

لكن القدر رمى في وجهي طفلا رضيعا يعوضني عن أمنياتي المسحوقة ، كأنه يخبرني أن أكتفي بكوني أمًا روحية لهذا الكائن ذو اللعاب السائل أمامي . . وليد سيتم شهره الحادي عشر ، أسنانه على وشك الظهور ومع كل حركة جديدة تكتشفها به أمي تُحدث حفلة صخب بسيطة لعدة ثواني احتفالا بحركة وليد الجديدة ، تفرح أمي كثيرا حين تراه مبتسما . . تصفق له فيقلدها فتشع ابتسامتها فخرا بحفيدها المتبقي الوحيد . . تعلمه التشهد فيقلدها بأصبعه الصغير وهي

تردد «لا إله إلا الله» حتى إذا ما حرك اصبعه احتضنته وملأته بالكثير من قبلات الجدات الحانية . . ويظل فخورا بأصبعه المتشهد ولا يغلقه من جديد . . إلا أن أمي أجهشت بالبكاء حين بدأ وليد المناداة بالأسماء فصار ينادي «ماما ، بابا»!

ظنت أمي أنه يفتقد أمه وصارت تبكي بكاء المكلومين في كل مرة ينادي فيها وليد «ماما» . . حاولت إقناعها أن الأمر ليس كما تعتقد إنما ينطق الحروف سهلة المخارج فقط ولا يقصد المعنى للحروف نفسها ، فحين ينادي «ماما» كانت مجرد محاولة لتقليد الكلام فأخرج الصوت من حنجرته الصغيرة وحرك فمه بعشوائية ولأن أسهل الحروف هي الباء والميم والدال واللام . . فأن معدل كلماته لا تزيد عن أربع كلمات . .ماما بابا دادا لا! بيد أن أمي لم تقتنع بمعلوماتي وآمنت أنه مفطور على حب أمه واشتياقها حتى لو أن ذاكرته قصيرة المدى لا تتذكرها . . لكن حب الأمومة فطرة إلهية يزرعها الله في صدور عباده . .أسألها وأنا أحاول بذل جهدي في إقناعها لتكف عن البكاء اليومي . .لأنه إذا ما اقتنعت . . . ستبقى أمي تبكي حتى يكبر وليد ويتعلم الحديث بشكل تام وصحيح ويخبرها بنفسه أنه لا يقصد أمه وأن الأمر مجرد محاولة لتعلم الكلام والتقليد

- حسناً تقولين أن حب الأمومة فطرة إلهية يزرعها الله في صدور عباده؟ ماذا عن الأبوة؟

- هما نفس الشيء ذاته . . بيد أن الأمومة تفوق مراحل الأبوة يا بنيتي

- أتعنين أن حب الأبناء لأبيهم ليس شيئا فطريا؟
- بلى
- أنا ابنة لأبي . . . ولا أحبه!
- أبوك من بدل بذرة الحب الفطرية بالكرة داخل صدرك الحاقد . . .
- بالفعل . . مريم نزعت بذرة الحب الفطرية من داخل صدر وليد حينما رحلت ، بيد أنها لم تزرع بدالها شيئا . . بل تركت لنا الخيرة في أمرنا لنزرع في صدره ما نشاء ،

تصمت أمي . . تطأطئ رأسها وتسحب طرف شالها الأسود الطويل وتمسح عينيها وتدعو الله بصوت خافت . . وهي تنظر نحو وليد ، كأن في الأمر حكمة حين جعل الله قلب وليد مثقوبا . .ففقد من ثقبه حبه لأمه وترك لنا الخيار لنعوضه عمّا فقده . . إن كان حبا فحب ، وإن كان كرها فكره .

-٢٦-

- «أهلا . . يومي سعيد بسبب رسالة اجتاحت هاتفي بكل معاني الفرح ، ماذا عن يومك؟»

- «عكفت أقرأ ما كتبت لساعات وأكثر ، قد قالت لي أمي مرة عن حديث يشبه حديثك . . لكن بطريقة مختلفة ، قالت لي أنها قرأت لأحلام مستغانمي تتحدث في أحد رواياتها عن أن فرحة الرسائل قديما تضاعف فرحة المكالمات الهاتفية الآن . . مع أن المكالمات تستطيع تحسس صوت المتحدث ، وفهم لغته وطريقة تعبيره ، إلا أن الرسائل تجمع كل شيء في ظرف واحد . . الفرحة المصاحبة لظرف الرسائل القادمة من بعيد المنتظرة منذ عدة أشهر . . لا تشابهها فرحة الأصوات التي تستقبلها الأذن ، الورقة التي كانت بين يدي الكاتب تتحول هي نفسها ليد المكتوب بكل شعور كان يحمله كاتب الرسالة ، بخطه وأنفاسه التي عانقت ما كُتب . . أخبرتني أمي أيضا أنها تستطيع حفظ الورق المكتوب لسنين ، لكن مع هذا التطور لا شيء تستطيع الحفاظ عليه سوى في الذاكرة . . بالمناسبة أنا وأمي علاقتنا قوية جدا لأنها لا تملك من الأبناء غيري . . وتملك ابنتين . . أنا ابنها المدلل إن صح التعبير وطفلها الأول . . حين جاءت رسالتك ابتسمت بشكل ملفت حاولت أمي معرفة السبب لكنني أخذت الأمر سرا بيني وبينك ، سأخبرها

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

حين يحين وقت ذلك . . أنا ذاهب الآن لأشتري شيئا ما من «ستار بكس» أحب موكا الشكولاتة البيضاء الساخنة حتى مع هذا الجو الحار . . هل تحبينها معي؟ سأحضر لك واحدة . . .»

أنا في السيارة في طريقي للسوق ، أقرأ رسالته للمرة الأولى . . إضافة للمرات الألف مسبقا . . أبتسم كثيرا في حديثه عن أمه تتضاعف لطافته . . أرفع رأسي . . أوجه نظري نحو المرآة سيف منشغل بهاتفه كما هو حال صقر . . هل تكون فعلاً أريج صادقة واستطاعت تشتيت انتباه سيف عني وتركيزه عليها وحدها؟ لست متأكدة فعلا بأن أريج قادرة على أن تحوز على وقت سيف ، ليس لأن أريج عاجزة عن ذلك ، بل لأني أنا العاجزة عن تخيل سيف بشراً طبيعيا سويا يملك شعورا عاطفيا واحدا ، قد يكون كذلك وكرهي له جرده من إنسانيته وعواطفه الفطرية بحسب ظني ، أطردُ سيف من ذهني وأعود للإسراف أكثر في قراءة الرسالة! نصل للسوق الذي لم يتغير منذ أن هربت منه خوفا ، وعدت تدفعني له الحاجة الملحة ، خلفي صقر وسيف يحملان أقمشة مكورة ملئت بالبضاعة التي ظلت حبيسة الأقمشة طيلة فترة مكوثي في المنزل . . يضع سيف وصقر البضاعة على الأرض وهم يتبادلان حديثًا ما ويتركان لي مهمة الترتيب ويرحلان سويا يتضاحكان على شيء أجهله ، لا يكترثون بالنحيلة التي عجزت عن فك عقدة القماش بأصابعها الهالكة ، حاولت قدر استطاعتي لكن هذه العقد العنيدة معقودة بشكل قوي جداً أعجز عن فكها . . أمد القماش نحو فمي لأفكها بأسناني وأسحب العقدة الأخرى بيدي . . ممسكة

قطعة القماش بقدمي ، ضاربة عرض الأنوثة بعرض الحائط ، ما الذي يلزمني بالأنوثة في سوق يجرد مني كل شيء؟ أشعرُ أنّي كائنٌ متوحّش . . أضحكُ على نفسِي وأعودُ لإكمال الفعل الوحشيّ الذي أفعله!

أنتهي من مهمة الترتيب على عجل . . أمسك يديّ بعدما احمرّتا من أثر محاولة فك العقد ، أنظر إلى مواضع الألم وأضغط عليها محاولة تخفيف الألم البسيط ، يدي مؤخراً صارت تدل على تعاسة الفتاة خلف البرقع ، محمرة وآثار التقرح الناتجة عن التنظيف اليومي واضحة جداً ، لست حزينة لأن يدي تحولت لشكل جديد لكني أخاف أن يكون بادئ الأمر يدي وتأكلني الأعمال بنهم كما أكل التنظيف اليومي يدي التي كانت جميلة -أرفعً رأسي نحو محل الذهب كمحاولة لتشتيت الانتباه- فيصل لم يأتِ بعد كما هو المعتاد ، عادة الرجال النظيفين هنا لا يظهرون مع الشمس ، أعتقد أنها من البروتكولات الخاصة بهم .

***

آخذ نفسًا عميقًا أسرقه خلسة من هذا الهواء الحار حولي . . يدخل جوفي ساخنًا جدا أستطيع تحسسه يخترق صدري مثل نار ملتهبة ولا تخرج منه . . الشمس تقف عامودية على رأسي والزحام أمامي يزيد من الهواء القذر المنبعث نحوي . . الهندي البائع في دكان الجوارب أمامي يفتح علبة ماء باردة ويرشها فوق رأسه ويشرب بقيتها . . وعيناي مصوبة نحو ما يفعله وأبلع ريقي في كل قطرة ماء باردة تسكن جوفه . .

الهواء الساخن كما لو كان مجفف شعر كبير اعتلى سماء الرياض وبات ينشر هواءه ليجففنا حرفيًا ، يجفّف المزاج المعتدل ، يجفّف نهر الابتسامات التي كنت منبعها في السيارة حين كنت أقرأ الرسالة ، هذا الجوّ لا يساعدك أن تكون في مزاج جيّد حتّى للتنفس ، كيفَ بغيره؟ أشعر أن عيني ستذوب وتسقّط في حضني وهذا البرقع المربوط على رأسي بطريقة بدائية يساعد في تعرق وجهي شبه السائح . . أم مشعان تهف بقطعة كرتون وهي تردد «ياالله النجاة من النار» وجانبها وضحى الشكاية قد وضعت رأسها على الجدار بطريقة دراميه صامتة . . أقوم من مكاني بعدما حرّصت أم مشعان على الانتباه لبعض دقائق لبضاعتنا المحترمة . . أمشي باتجاه الآلة الكبيرة والمهترئة للمشروبات الغازية . . أدخل ريالين وأضغط بطريقة عشوائية . . كأن الشمس تصرخ فوق رأسي «استعجلي» أسحب علبة خضراء باردة . . وددت فتحها والقفز بداخلها ، تمنيت لو تشربني علبتي الخضراء بدلا من أن أشربها . . أن أجد مكانا يحتويني داخل المشروب البارد . . أن يحتضنني هذا البرد عن أذى الشمس الغاضبة!

أسير تجاه بضاعتي ممسكة علبتي اليتيمة بإحكام خشية أن تقفز مني وتولي هربا ، أرمي ثقلي في مكاني منزوية وأفتح علبتي ، يجري المشروب في حلقي أغمض عينيّ حفاظا على لحظة اللذة الخالدة ، النعيم اللحظي ، أبتلعه بكل فجاعة الفقر داخلي . . أستنشق نفسا طويلا بعد لحظة النعيم التي حظيت بها ، عدتُ للسوق وعادت هذه الأشياء البسيطة تشعرني كم

آمـالي بسـيطة وكم سـهلٌ إرضـائي! أرفع رأسي جـهـةَ مـحل الذهب ، فيصل جاء فجأة كيف لم أنتبه لوجوده وهو يتأملني أشرب بطريقة أبعد ما تكون عن التحضر وأقرب ما تكون إلى الهمجية ،لكنه يبتسم! وأجهل إن كان يبتسم علي . . أم لي ، في الحالتين أنا أجهل تماما ما التصور الذي يحمله عني هذا الـ فيصل . . كيف يستطيع التفاعل معي بشفافية وهو لا يرى مني سوى عينين تظهران خلف البرقع ويدين نحيلتين . . كيف لم يتصور مثلا أن أسناني قد تكون متسوسة وسيئة ، وأن لي أنفا قد يكون دائري الشكل أحمر كأنه أنف مهرج . . وشعري قد يكون حكاية أخرى ، كيف وثق فيصل من عينيّ؟ أم أنه لا يهمـه معنى أن يكون المرء جـمـيـلا؟ أبتسم مع تساؤلاتي الحمقاء! كيف افترضت لمجرد الافتراض أن فيصل يراني بعين الحب! قد يكون الأمر ليس سوى شفقة على البائعة البيضاء المتوسطة بين سيدات كبيرات بالسن . . يرفع يده يحرك أصابعه كإشارة تلويحية نحوي . . أخفض رأسي أنشغل بشيء ما . . أحاول تجاهله ،لو أن إحداهن رأت تلويحة يده تلك لكان الآن الخبـر وصل أمي وتفشى لأخوتي وقطعت يد فيصل وأُكلت أصابعه انتقاما! ولا سيما أنا . . يقترب نحوي وأنظر بذعر نحو أم مشعان ومن جاورها . . لا أحد مكترث! يجيئني صوته وهو جالس أمامي

- الحمد لله على السلامة
- الله يسلمك «
- «نوّر السوق»

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

أبتسم . . . وأعاود النظر نحو وضحى المتأملة بنا!

- أنت تلفت الانتباه . . .

(يتصنع الدهشة)

- أنا مجرد زبون !

يسحب كومة مسابيح ويضعها أمامي . . يتصنع البحث عن شيء آخر . . يسحب بعض البساكيت القديمة ويكومها فوق المسابيح ، ينظر نحوي يبتسم . . . وأتوه أنا مع التجاعيد الثلاث حول العينين . . أضحك بصوت خافت أعد حسابه بشكل سريع وأجهزه في كيسة صغيرة!

- ثلاثون ريال!

- ولأني زبونك الدائم؟

- تسعون !

- لأنك تعرفين أني سأظل دائما؟

- لأنك تلفت الانتباه

يعاود تصنع الدهشة ذاتها ويكرر جملته «أنا زبون» ، أضحك . . يبتسم . . وألتفت بسرعة نحو السيدات بجانبي ولا أحد يكترث بالهزيلة الضاحكة والوسيم المبتسم هنا .

***

أخشى الأشياء غير الناطقة وأتفهها يثير الخوف داخلي ، أرتعب أحيانا إذا ما حدقت طويلاً بفيش الكهرب أمامي . . أشعر أنها عيونٌ تخترق الجدار وتتأملاني بصمت . . مثل قاتل مأجور ينتظر فرصة ليقوم بقتلي بعينيه المتكهربتين ، أنا حمقاء ولا يحزنني ذلك لأن من الحماقة أن تنكر حماقتك ، قد تكون

الحماقة فطرية أيضا . . كأن يرث الإنسان شيئا من غباء أو بعضا من حماقة ، وهذا ما استطعت التأقلم معه والضحك عليه أحيانا ، حين كنت أتخيل الأشياء تتفق ضدي ويتآمر الكون كي يطيح بي ، أن يُغلق الباب على إصبعي الصغير عمدا ، ويقهقه ساخرا وأنا أضم يدي أنظر نحو الباب بغضب وأفكر بالانتقام . . أن يصيح ديك جارنا قاصدا كل القصد إزعاج لمى النائمة في غرفتها . . إنه من المضحك أن تسخر من الأشياء التي كانت تسبب لك شعورا سيئا حتى وإن عظمت سخافتها ، كبرت أنظر للأشياء نظرة الحياة بحماقة بالغة . . أتفاعل مع الأشياء كما لو كانت ستفهم ما أعنيه . . يوم أعطيت سريري قصيدة كتبتها من أجله آمنت بداخلي أنه فهم معاني الحب الموجهة نحوه واحتضنني من جديد ، كان السرير يستحق مني بعض الشكر والامتنان كونه البوابة الأولى نحو الحياة الأخرى في الأحلام . . كانت الحماقة قد ولدت معي وتغلغلت داخل رأسي .

أذكر أني سرقت سمكة صغيرة من مطبخ جدتي وركضت بها قاصدة إنقاذها من هول القدر والفرن إلى آخر مغسلة في المنزل . . سددت منفذ المياه وعبأت المغسلة وألقيت بسمكتي المسروقة مبتسمة جدا أن سمكتي عاودت للحياة ولم أكترث لبنات خالاتي وسخريتهن ومحاولات إقناعي أن السمكة قد ماتت قبل أن تصل لهذا المنزل ، أنظر إليهن بكل ثقة في هذا العالم وأسخر من غبائهن في داخلي . . كيف تكون سمكتي قد ماتت وهي تطفو أمامي الآن مفتوحة الأعين؟ يا للغباء .

أتذكر حماقاتي والسمك ليجيء أمامي بحر من لعابٍ! السيد وليد وراء الأمر وهذا الغرق . . يبدو لي سعيد جدا بلعابه الذي ملأ ملابسه . . كأن فمه أنبوبُ لعاب أو ما شابه . . كيف لهذا الكائن صغير الحجم أن ينتج كميات من اللعاب هذه . . أحمله على مضض لأغير ملابسه في غرفة أمي . . أمر من الصالة الزرقاء لا أحد فيها سوى ياسر وفهد كما هو المعتاد ولأن ياسر لا يملك سيارة فهو حبيس المنزل وهذا الشيء أقرب إلى قلبه حسبما أعتقد لأنه في كل الحالات لا يملك أصدقاءً سوى الكتب وزملاء الجامعة ، أطرق باب غرفة أمي بأدب ولا أحد يرد . . أفتح الباب ببطء . . أرى أبي واقفا أمامي يرتدي ثوبه الأزرق المعتاد هاما بالخروج ويغلق أزارير ثوبه بتركيز تام . . هل عاد أبي إلى طبيعته السابقة؟ . . أخشى أن يكون كذلك ، فثوبه الأزرق هذا هو كل ما تحمله ذاكرتي عن أبي حين يكون غاضبا ، يرفع رأسه نحوي ، أبلع ريقي بذعر . . لا يكترث بي . . يحمل مني فتى اللعاب ويمرغ فمه في خده متضاحكا ، ويضحك وليد بصوت مرتفع . . أبتسم بشكل لا إرادي . . هل كان موت مريم فداءً لأن يحيي الله قلب أبي؟ .

يدخل خلفي فهد مناديا

- لمى . .جاءت أريج وأدخلتها غرفتك

- حسناً سأبدل ملابس وليد وأصعد لها

يخرج فهد راكضا . . ويسلمني أبي حفيده الأخير وهو يمسح على رأسه ووليد يحاول التعلق به ورفضي ، يضحك أبي وأتأمل وجهه وهو يحمل وليد من جديد ويضاحكه ويطيره في

الأعلى وهو يردد «تبغاني؟» . .إنه لمن المحزن أن تنتظر ضحكة واحدة منذ ثلاث وعشرين سنة . . ولا تجيء الا متأخرةً . . وتكون من نصيب غيرك ، في السابق كان هدفي إضحاك أبي حتى أخذ اليأس مني موضعه وتحول هدفي إلى إرضائه حتى علمني الوقت أن أنزوي هربا حين يحضر ذو الثوب الأزرق لئلا أكون ضحية العقال هذه المرة . . يعاود أبي إرجاع وليد إلي ويقبل يديه ويشد خديه ويظل وليد يضحك سعيدا بألعاب جده . . يرفع أبي رأسه ينظر نحوي . . أبتلع ريقي مرة أخرى بعينين خائفتين . . يظل وجهه متأملا إياي . . أتصنع الانشغال بحمل وليد جيدا ، يذهب ويدعني آخذ نفسا عميقا يشبه الانتصار . . وودت لو يكتب التاريخ هذه اللحظة ولا أعلم إن كانت تستحق التدوين أم لا! لكنها مهمة بالنسبة لدى فتاة لم تعتد أن تلقى من والدها سوى الشتائم والسباب والضرب أحيانا ، آخذ ملابس وليد المتعلق بشعري . . أذهب نحو غرفتي وكلي شغف بالذي تخطط له أريج! فهي لا تأتي بلا موعد إلا إن كانت تخطط لشيء جديد وشيق!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٢٧-

- مستحيل
- مستحيل أن تأتي معي؟
- مستحيل أن يكون سيف قد طلب منك موعداً . . صدقيني أنت مخطئة بالرجل ، ليس سيف من تتحدثين معه
- غبية غبية . . .

«أقاطعها»

- هو لا يملك المؤهلات الكاملة لمقابلة الإناث !
- عن أي مؤهلات تتحدثين؟
- باستثناء وسامته . . لا يملك مؤهلات أخرى تجعله يجرؤ بأن يقابل فتاة . .
- الثقة بنفسه تلغي كل المؤهلات التي تقصدينها
- ما الفائدة من كل ذلك . . أخبرتني مرة ألا أخرج من أي لعبة بأي خسارة! وأرى الخسارة الفادحة بينك وبين سيف
- فائدتي التسلية . . انه مضحك !
- تبدلت مفاهيمك مؤخرا
- لم تتبدل بيد أن هذا الرجل يجعلني أضحك . . . وسأنتهي منه
- متى؟
- حين تتأكدين من وجوده في حياتي !

أشيح بوجهي وأنظر نحو وليد يعبث بشيء ما بين يديه . . تفتح أريج حقيبتها وتخرج منه قلم كحل وتصوبه نحو عيني استعدادا لتتزيني

- سنخرج الآن . . . أشعر بالضجر دعينا نأكل في مكان بعيد عن هنا

- هل سيكون هنالك أحد في انتظارنا

- من الممكن . .لكن سنعطف على أحدهم سآخذ منه شيئا ، سأشرح لك حين نصل هناك !

«تمسك وجهي وتبدأ برسم الكحل داخل عيني بطريقة متجمدة»

- لا أعتقد أن أمي ستوافق لي بالذهاب معك ما دام وليد . . .

(تقاطعني)

- لا بأس أنا سأطلب منها ذلك سأكذب كذبة بيضاء من صالحك لن تعتقد أننا سنذهب بعيدا . . اصمتي حتى أنتهي من تزيينك

لدى أريج سحر خاص يجعلها تصيّر كل الأشياء حسبما تريد ومثلما تريد تماما ، حتى أمي العنيدة تستطيع أريج أن تحول لاءاتها لابتسامات الموافقة الراضية ،لدى أمي اعتقادات خاطئة بالطبع تجاه أريج وأنها فتاة جيدة بشكل عام وحسنة المظهر والجوهر ، ولأن أريج المورد الأساسي لنصف ملابسي وأشيائي وحياتي تقريبا تعتمد على ما تقدمه أريج لي من خدمات أمي تظن أن من شكر النعمة أن تستقبل أريج

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بابتسامات عطرة وتؤيد آراءها وتنفذ أفكارها والموافقة على كل ما تود أريج أن يكون . . خروجي معها هذه المرة ليس شيئا صعبا حتى مع أن الوقت متأخر جداً على الخروج فالساعة تشير نحو الحادية عشرة والربع . . لكن أريج تضمن الموافقة بكذبة صغيرة تدر منها استعطافا ورضا خالصًا بل ودعوات متتالية لأريج تخص جانب التوفيق والنجاح والتيسير في جميع أمورها ، لم يأخذ الأمر مع أريج وقتاً طويلاً حتى سمعتها تشكر أمي وتعدها أننا لن نتأخر ، أنا الواقفة قربها بكلّ الزينة التي رسمتها على وجهي . . لا أدري أين سنذهب ولا فكرة لديّ!

***

أنزع برقعي كحركة أخيرة للتبديل الحاصل في سيارة السائق المخصص لأريج ، وأرميه فوق عباءتي الحرير التي استبدلتها بعباءة جديدة من عباءاتها داخل السيارة . . أبدل حذائي البالي وأدخل قدمي وسط كعب طويل مؤلم بعض الشيء . . أستنشق هواءً كافيا لأن يملأ رئتي . . أعيد ترتيب طرحتي ، أجلس بسلام بجانب أريج المنشغلة في الكتابة بهاتفها وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة ، أشعر بالخوف هذه المرة من هذه المغامرة التي أصرت أريج أن نخوضها . . وهذه المرة ستكون المغامرة ضعفين . . الأولى حين نقف نأخذ هدية أريج من أحد عشاقها من سيارته ثم نتجه نحو أحد المطاعم لتناول الطعام وينتظرنا عاشق أخر ، عشاق أريج المليون يرعونها رعاية صالحة وكأنهم مسخرون لها في هذه الأرض من أجل استمالة رضاها ، ألتفت نحو النافذة وعيناي تنظر لزحام الرياض

المعهود ، هذا الرجل المحدق نحوي هل سيفكر ولو بفكرة عابرة أن الفتاة التي خلف زجاج نافذة السيارة العالية الجديدة بعباءتها المزركشة ووجهها المزين بالمكياج ، هي نفس الفتاة التي ظلت تحدق في الزحام عصر اليوم في سيارة قديمة أخرى ترتدي برقعا واسعا وعباءة حرير وقميصًا مزهرًا وحذاء باليًا؟ أن الفتاة التي ستزور مطعما فخما تحمل حقيبة باذخه وأساور ذهبية ، هي ذات الفتاة التي كانت تجلس خلف «بسطة» متواضعة مغرب هذا اليوم في سوق قديم ، لا أحد سيصدق هذا التناقض الموجود بداخلي . . .

أشيح بوجهي عن النافذة ليس لأن هذا الرجال المحدق أزعجني بابتسامته ، بل لأن حقيبة أريج التي أعطتني إياها قبل قليل مثيرة للنظر أكثر من هذا المجنون الذي ما لبث يلحقنا ويردد الرجاءات الخالصة لأخذ الرَقم الموجود على شاشة هاتفه النقال وهو يحاول إلصاقه بنافذة سيارته بطريقة مضحكة بعض الشيء . .ولأن حقيبة أريج زرعت في صدري شيئا يشبه الحزن حين أخبرتني عن سعرها الحقيقي وأنه يفوق بضاعتنا وأسعارها كاملة ولو جلست شهرا كاملا أبيع تحت الشمس لن أحصل على نصف سعرها . . أصابني شيء يشبه الخيبة . . قطعة قماش صغيرة تحملها فتاة ما في مكان ما في العالم تساوي إيجار منزلنا الصغير الموجود على هذا العالم نفسه ،لم تتركني أريج أسرح خلف هذه الفكرة أكثر . . حين رفعت رأسها بشكل مفاجئ :

– شاكر توقف هنا

ينصاع السائق لأوامر أريج ويقف بشكل سريع في أحد المواقف المخصصة للمطاعم المتراصة بجانب بعضها في هذا الشارع المليء بالمطاعم الفاخرة والمتلاصقة كل مطعم يفوق صاحبه ، مع أني لم أتذوق شيئًا منها لكني أشعر بذلك عن طريق لوحته وشكله المرتب . . عن طريق العامل الذي يقف لدى الباب بمهمةٍ لا تتعدى أن يفتح الباب للوافدين بابتسامةٍ مصطنعة!

- هل سننزل هنا؟
- لا . . أنتظر أحدهم لأستلم منه هديتي
- هدية بمناسبة ماذا

(تبتسم)

- بمناسبة «لا شيء»

(يرن هاتفها ، تشهق بشكل درامي)

- أخييرًا
- ماذا؟
- أنتظر هذا الاتصال منذ أيام !

أصمت وتجيب هي بلهفة مفتعلة بعض الشيء أو هكذا شعرت وتتحدث بطريقة تجعل مني أود فتح الباب هربا والركض نحو الشارع ذو السيارات الخاطفة وجعل أحداها تمر فوقي ، تحول صوتها لصوت رقيق وكلماتها لكلمات ناعمة حتى طريقة نطق الحروف تبدلت وهذه ليست المرة الأولى التي أراها تفعل ، لكنها المرة التي وودت سحقها بحقيبتها الغالية لأني في العادة أنشغل بشيء ما ريثما تنتهي أما الآن لا شيء

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أنشـغل به سـوى الاسـتـمـاع نحـو الصـوت المائع والدلال المتـصنع . . تنظر نحـوي بعـدمـا بقـيت تحـادثه لدقـائق طويلة بوجهي المتململ والمتضجر ، تبتسم على ملامحي المتململة . . تحمل هاتفها الآخر غير الذي تحادث به ، وتشهق مرة أخرى وتنظر نحوي نظرات استنجاد خالصة

- «لحظة شوي دقيقة بس»

تسد هاتفها بيدها وتنظر نحوي

- انزلي بسرعة ، لقد جاء من ننتظره خذي الهدية بشكل سريع وعودي

أنظر نحوها بتعجب

- لا أعرفه ولا أعرف شكله

تلتفت نحو النافذة

- إنه هناك داخل السيارة السوداء «تشارجر»

- تشارجر مين؟

- غبية غبية ، لمى انزلي بسرعة الرجل ينتظرنا ، أخبريه أنك صديقتي وخذيها وتعالي لا أستطيع إنهاء المكالمة الآن

(يتملكني الغضب والخوف معا)

- كيف سيتنبأ أني صديقتك يا متخلفة

- أففف . . سأرسل له رسالة أن صديقتي بحقيبة ذهبية ذات سلسلة طويلة ستطرق النافذة وستأخذها منك

تعود لمكالمتها الأولى

- «أيوه؟»

تحمل هاتفها الآخر وتكتب بطريقة سريعة . . وتنظر نحوي

وتؤشر لي بالخروج بملامح غاضبة . . أنزل بغضب وأعبر عن غضبي بضربة الباب القوية للسيارة وأتجه نحو السيارة ذات الاسم الأحمق . . من يسمي سيارة بهذا الاسم . . تشارجر؟

***

زفير زفير . . لا أستطيع التنفس!

يحاصرني الموت ، الهواء لا يعبر جسدي ، رغم تنفسي بطريقة سريعة وبنبضات قلب متضاربة جدا . . أشعر أن صوت قلبي يدق الأرض . .العالم يسمع قوة النبض هذه ، قلبي الذي لا أسمع نبضه عادةً يقف ضدّي ينبض بأعلى صوته . . أشدّ عليه يا قلبي الزم الصمت وخوفٌ يحاصر عينيَ ?ولا يطيعني يظلّ يصرخ . . ،يزداد صوته وتبرد أطرافِي إلاّ هوَ لا ينفكّ عن الصراخ! الدنيا حولي تبيض تارة وتسود أُخرى ، أستطيع سماع صوت فك أسناني يصتك بقوة . . وشيءٌ ما فوق صدري ثقيل كما الجاثوم . . جبيني متعرق ولا أستطيع مسحه لأن يدي ترتجف بشكل أعجز عن تحريكها ، الدنيا تدور أشعر أن ما بجوفي من طعام سينتشر في الهواء الآن . . سأسقط . . سأغيب عن الوعي أشعر بذلك ، لكني أرتعد مرة أخرى من صوت قبضة ضاربة بحسرة على شيء ما ولا أستطيع الالتفات لأنظر مكان القبضة القوية ، شتّت الضربة عقلي . . تضاربت اللحظات السابقة في مخيلتي! أبدأ في بلع ريقي أستنجدُ به ، لا يجيب ، يا الله عطشٌ كأنّي لم أرتوي قط ، الضربة القوية بباب سيارة أريج . . غضبي والبحث عن التشارجر السوداء . . ضرب النافذة بثلاث طرقات . . الالتفاتة . . هنا حدث كل

شيء هنا تحول العالم لشيء ما يشبه الجحيم المضاعف . . النظرة المتعجبة ، محاولة الاستيعاب . . محاولتي للهرب لكنه كان أسبق بي حين شدني من ذراعي نحو وجهه حاول التأكد بوجه غاضب ونفس كأنه النار . . صاكّاً على أسنانه المخيفة جدا ويتحدث بطريقة تشبه الهمس من شدة الغضب ؟أشعر أنّي أحترق وهو يسأل! :

- لممى؟ «إيش جابك هنا؟»

خوفي وتعابير وجهي وصوتي الباكي كان دليلا مؤكدا من كوني لمى ، ارتجاف جسمي ساعده في جرّي نحو السيارة ذات الاسم الأحمق واللون الأحمق والحظّ الأحمق الذي لا أدري من أين استيقظ وما الذي أيقظه ، فتح الباب الجانبي ورماني بها بشكل قوي وأغلق الباب بشكل أقوى . . مضى ليركب من الباب الآخر وبقيت أنا في مكاني يمتلكني الذعر باكية بلا صوت . . . يأكلني الخوف والأسئلة! كيف عرفني سيف؟ كيف فعلت بي أريج ذلك؟ ما الطريقة التي سيقترحها إخوتي لقتلي؟ ما أنسب طريقة للانتحار قبل ذلك كله؟ كيف سأهرب الآن؟ كيف تحول «وانيت» سيف إلى تشارجر؟ كيف اختف الهواء من هذا العالم! أرجوك سيف افتح النافذة أكاد أختنق ؟أرجوك لا تقسو عليّ . . لا تخبر والدي وإخوتي ؟لا تتركني للموت! كنت أناديه في داخلي وعيني في يدي التي بدأت تتعرق وخوفي بدأ يتضح عليّ . . بدأت أفرط في الحركة أفرغ شحناتي وهيهات! تتوالد الخيبات أمامي وتتهاوى أمامي صور أهلي ، لا أحد سيفهمني! من سيعرف أنّني لا ذنبَ لي . . يمد يده

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

لأرتعد أكثر ، يتهيأ جسمي للكملة القادمة . . لكن يده توجهت نحو المذياع يقصر صوت الموسيقى يحاول تقصير صوت ذكرى وهي تنوح وتصيح بـ «وش أخباري؟» . . يلتفت نحوي ولا أستطيع معرفة تعابير وجهه كوني لا أجرؤ على الالتفات ، يعود لضرب المقوّد مرة أخرى ويهمس بطريقة غاضبة ، لست متأكدةً أنه كان همسا أم أني من هول الفزع لم أميز ما يقول ، سيف تحدّث قل أي شيء ، ولا مجيب!

ليست المرة الأولى التي أركب فيها مع سيف في سيارة واحدة ، لكنها المرة الأولى التي أركب فيها سيارة من نوع تشارجر والتي عرفت اسمها وشكلها للتو . . وسط هذا الزحام الذي يؤخر موعد قتلي ووصولي للبيت . . . هدوء سيف أظنه ما قبل العاصفة ، سيجرني بعد قليل نحو منزلنا وسيصرخ بأسماء إخوتي . . سيرميني أرضا ويركض سعد نحو المطبخ لإحضار سكين عريضة لنحري مع إمساك اخوتي جسدي كما الضحية . . وسيصرخ صقر بغضب بألفاظ الشتم والذم . . ستمر السكينة على عنقي ذهاباً وإياباً والدم الدافئ الخارج من رقبتي سيطفئ نار فضيحتهم . .أستطيع سماع صوت صراخ آلامي وهي تستنجدهم . . ورؤية ياسر مدهوش العينين ينظر نحوي دون أن ينقذني . . أرى وجوههم الآن حولي . . مقتضّين يحاولون جميعهم نيل شرف قتل العار وإبادة الدم الفاسد ، أبدأ أتحسس رقبتي بخوف . . ما زال وجهي مكشوفًا إلاّ من يدي التي تغطيه حينًا ومنديلٍ ابتلّ بالعرق والخوف والندم ، لم ينظر إليّ سيف . . بدأ جامدًا في مكانه وبدأت مع استمرار الطريق

أشعر بالموت يتسلل أطرافي رغم أنّي لم أهدأ ، بدأت أتذكر خيباتي وأحلامي . . وأبكي بصوتٍ قصير خشيةً من إثارة سيف وغضبه! يقطع خيالي صوت بوق السيارة ويد سيف الممتدة نحوه بغضب شديد . . يدخل الهواء رئتي من جديد . . اتحسس رقبتي! ما زلت هنا . .ما زلت في أولى خطواتي نحو الموت لم أُنحر بعد أنا حية لبعض الوقت . . .

هل يظن سيف أني مثل أريج تماما ليغضب هذا الغضب الهائل؟ كيف سأبرر له أني بلهاء أمارس دور مرسال الغرام منذ طفولتي؟

(بصوت مرتعد)

- سيف الأمر ليس كما تعتقد

ينظر نحوي بعينين يخرج منهما شرار غاضب ، يحاول قدر الإمكان التحكم بنفسه . . يعود رأسه للأمام من جديد يهمس بهدوء وعينين مغلقتين كأنه لا يريد أن يسمع نفسي كيف بتبريراتي وحديثي!

- أششششش !

اخترق حرف الشين عقلي . . الحرف الوحيد الذي نطق به منذ أن انطلقنا . . زادني رعبًا وعاد الإعياء من جديد حين رأيتنا نقترب نحو حارتنا الضيقة . . سأموت ، وقت صلاة الفجر الآن . . سيحضر جميع الذاهبين للصلاة شرف قتلي ، الإمام الذي يقرأ الفاتحة الآن سيقرأ الفاتحة على روحي بعد قليل! أشهق ببكاء بشكل لا إرادي وتتبع الشهقة نوبة بكاء قوية . . توقف سيف بسرعة على جانب الطريق وأغمضت عيني . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

ماذا الان؟ هل سيتصل على صقر ليأخذني؟ أم سيدفنني هنا في هذه الأرض الفارغة . .صوت ذكرى لا زال صامدا ويغني ، التفت نحوي بهدوء

- تغطي وانزلي لبيتكم من هنا . . .

أنظر نحوه بعينيّ ذات الدموع . . . يمد يده نحو الراديو . . يرتفع صوت ذكرى بشكل صاخب ، (يصرخ) :

- بسرعة !

أرمي الطرحة على وجهي بشكل سريع وأنزل من السيارة وأولي منها هربا حاملة كعب أريج بيدي وأمشي مسرعة نحو شارع حارتنا قبل أن يراني أحد بهذا المنظر المريب . . . صوت ذكرى يختلط بصوت الإمام وهي تصيح من وسط السيارة الـ «تشارجر» . . مع صوت شهقات بكائي . . كل شيء يشبه الحلم يشبه الكابوس وصوتها الذي صار شؤما زاد من كابوسي رعبًا

«رجعني لي أرجوك . . . حلفتك بربك
وش أخباري؟ . .هذي أخباري
لكن بسألك بالله شو الطاري؟»

-٢٨-

أريد أن أفـقـد الوعي ، أن يعـود الوقت ، أن أنسى ، أن أيّ شيء يجعل هذا الوقت يمضي بسـرعـة أو يعود بسـرعـة . . أن أنام ، لكنـي عـاجـزة عن مـقـاومـة شـعـور البـؤس في قلبي والاستسلام لكل شيء والتوجه إلى النوم . . قلبي المذعور مملوء بالخـذلان من كل الأشـيـاء التي تصير لي كـأنما الحيـاة تصب المصائب في يومي صبًا ، أستغفـرك يا ربي إن كـان مـا أقوله سـخطٌ على مـا كـتب لي ، لكني حـزينة مـخـذولة جـداً . . الخذلان الشيء الوحـيد الذي يكبر تدريجيا مع الوقت كلمـا اتسع حـجـمـه كلمـا زاد الألـم أيسـر الصـدر ، الألـم الذي لا يستطيع أي علاج مداواته ، كلما سكن في القلب أكثر كلما صعب الغفران أكثر . . وتعيسة أيضا وهذا البؤس الظاهر من عيني على شكل ارتعاب من مواجهة الجميع يدميني أكثر . . تحاصرني الأسئلة وعقلي المذعور عاجز عن إيجاد أجوبة تهدئ من قهري ، كيف فعلت بي أريج ذلك؟

ما حدث ، قد يحدث لأي فتاة أخرى على هذا الكوكب دون أن يصيبها مـا أصابني ، ولن تذعر كما أفعل الآن . . لن تجهش في البكاء على وسادتها الوحيدة ولن تخاف من الخروج من غرفتها خوفاً من ملاقاة أحدهمٍ قد يكشف أمرها . . لن تنتظر أن يقـدم أحـد إخـوتهـا حـامـلاً مـعـه الموت كـهـدية بين

يديه . . لأن الفتـاة الأخـرى على هذا الكوكب لا تعـد ذلك مشكلة كبيرة كما أعدها أنا . . ليس لسخافة الأمر ولا لعظمته بل لأن نظرة المجتمع حولها هي من تحدد عظم الأمر وبساطته باختلاف حرمة ذلك أو إباحته ، مجتمعي بشكل عام وعائلتي بشكل خاص يُعد هذا الشيء إثما عظيما مباح هدر الدم عليه لقتل العار الذي أحدثته بخلاف ما الذي فعلته بالضبط . . المهم أن شيئا ما خاطئا وقعت به عمدًا وتقصدا ويجر الخطأ إخوانه . ويختلف عقاب مفتعل الخطأ على حسب الجنس المخطئ ، فإن أخطأت أنا عقابي ضعف عقاب الرجل المخطئ الخطأ ذاته . . هذا لو عوقب فعلا! لأني في مجتمع ينظر لي نظرة المتهم ينتظر التبرئة . . ووقوعي الخطأ إنما هو تأكيد للنظرة السابقة فقط .

هذا اليوم الثاني من بعد المصيبة التي وقعت على رأسي بشكل مفاجئ ، والوضع مستقر نوع ما في منزلنا . . وكل في وضعه الطبيعي المعتاد والروتين هو ذاته . . لكنني لم أخرج بعد . . لم يكسر الباب عليّ أحدٌ حاملاً كفنِي في يديه ، ما زلت متقوقعةً في غرفتي أعدّ خيباتي وأعدّ قلبي للصدمة ، أن أفارق الحياة على يد أهلي ، على يد أبي التي اعتدت منها الضرب أو يد صقر التي اعتادت أن تمازحني بعنف! أو يد ياسر التي دائمًا ما تترك في يدي دفئًا حين يصافحني ، أو يد أمّي التي أتعبها العمل وبدأ عمرها يكبُر ، أشعر أن دمي يغلي داخل جسدي وددت لو أملك الجرأة البالغة للهروب كما المعتاد لبيت أريج وبدل أن تكون غرفتها ملاذا . . ستصير موقع الجريمة التي سأفعلها ضدها ،

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

وأحمل سكينا عريضا وأدسه في عنقها تعبيرا عن الغضب الناتج من الخـذلان المدمي . . عن الخوف الذي اعتـراني منذ سـاعـة الفاجعة حتى هذه اللحظة . . غضبي يجعلني أرتجف قهرا . . أريج تعرفني أكثر من أي شيء آخر كيف تحولت وحشا دميما حين رمت بي أمام طريق سيف قاصدة ذلك كل القصد ، وهي التي تعرف عن شعوري الأزلي تجاه هذا الـ سيف . . . وكرهي له لم يأتي عبثا . . أكثر الاشخاص بغضا في حياتي سيزف لي الموت بطريقة تشبه الانتقام!

أحـاول طرد فكرة الموت من رأسي . . أهز رأسي بطريقـة سريعة علّ الأفكار كلها تخرج منه ويصير رأسي فارغا كما عهدته . . ألتفت نحو هاتفي الذي فرغ شحنه منذ البارحة ، أقوم من مكاني لشحنه كأني أنتظر تبريرا من أريج يزيح عني نصف الوجع بداخلي . . علّ أريج لم تقصد ما فعلته وكل الأمر كان حادثا . . لكن أريج تعرف أن سيف هو القابع في السيارة اللعـينة ذات المسـمى اللعين . .آه رأسي يؤلمني وعـاجـزة عن التفكير أكثر . . وهذا الخوف الجاثم على صدري يجعلني عاجزة عن التنفس أيضًا ، يبدأ في العمل هاتفي ، أشتمه هو الآخر على تأخره ليس الوقت مناسبًا لكي يتأخر ، أحتاج أن أعود لقلقي بسرعة ، ليس لديّ متّسعٌ من الأمر ، وليس لقلقي الشفقة التي تجعله ينزاح عنّي ولو لبعض الدقائق! أمسكه بيدي كلي أمل أن أجد تبريرا ولو قصيرا من أريج أو شيء ما يشبه الأسف . . لو حتى وجهًا حزينًا فقط!

«١ رسالة واردة»

ولأول مرة تجيئني رسالة من فيصل وأشعر بالحزن بشكل مضاعف . . أقرأ الرسالة تمتلئ عيناي بالدموع حتى مع خلو الرسالة من أي شيء يبث الحزن . . لكن كانت أقصى أمنياتي شيء يشبه الاعتذار يعيد لقلبي توازنه! رميت هاتفي دون أن أغلقه وعدت لنوبة البكاء من جديد والقهر بداخلي يتحول لنحيب قوي ، وتسد منافذ الصوت وسادتي التي تقبلت صراخي دون أن تنطق . . واكتفت أن تستمع لشهقات الفتاة المذعورة والمقهورة!

«أهلاً وسهلاً . . مؤسف أن اليوم جمعة ولن أكون قادرا على اللقاء بك ، قبل قليل سألني أبي عن المسبح الذي اشتريته منك ديناً ، وأبدى إعجابه به ، أخبرته أنه غالي علي جداً حتى أني تدينت لأشتريه ههههه مسكين أبي لقد فهم العبارة بالمعنى الحرفي ، لكنه لم يدرك فعلاً ما أقصد ، بالمناسبة لقد تحدثت عنك اليوم عند أمي . . لكن لن أخبرك بما تحدثنا ، سأترك ذلك الحديث حين يتنسى اللقاء بك ، وسأخبرك بما قالت لي أمي . . أنا متحمس ماذا عنك؟»

***

- بسم الله عليك

تتحسسني أمي وهي تحاول حمل رأسي من الفراش . . تمسح على جبيني وتسمي بذعر الأمهات ، أحاول فتح عيني لكن الصداع القوي يمنعني من ذلك . . تمسح على رأسي وتذكر اسم الله كثيرا . . تبعد اللحاف عني وتلمس جبيني ورقبتي ، تشهق!

- حرارتك مرتفعة جداً . . .

تعيد رأسي نحو الوسادة وأنا خائرة القوى غير قادرة على التحرك . . تقوم من مكانها بسرعة وتعود تحمل معها قدراً من الماء تفوح منه رائحة الخل . . ترطب به خرقة قديمة وتضعها فوق رأسي . . أشهق من البرد وهي تردد اسم الله وأدعية الشفاء ، يدخل بعدها فهد يحمل كأس ماء وحبوبًا مسكنة ويمدها نحو أمي التي أوصته بإحضارها ، تجبرني على ابتلاع حبتين وشرب القليل من الماء ، أشعر بالبرد القارص مع أن جسمي يتصبب عرقا . . كأنما رأسي سينفجر في أي لحظة من شدة الوجع ، جسمي يرتعد ولست قادرة على فتح عينيّ!

تحمل أمي الخرقة عن رأسي وتعود لملئها بالماء . . وتعصرها جيداً ، أستطيع سماع القطرات وهي تسقط على القدر . . تعود لوضعها فوق جبيني الساخن وأشهق من جديد ، تنادي بصوت عال :

- ياسر يا ياسر

ينقبض قلبي من الخوف على تعبي ، تأخذني الأفكار الخائفة بعيدًا نحو القبر! ماذا لو كان قد وصل الخبر لأخوتي . . ما الذي سيفعله ياسر الآن؟

يدخل ياسر ضاحكا حاملاً معه وليد فوق كتفيه

- «سمي»

- لمى مريضة . . . اتصل بصقر أخبره عن عدم قدرتها على الذهاب للسوق اليوم!

أرتعد من فكرة الركوب مع سيف مرة أخرى . . وأبدا

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

بالبكاء بطريقة أقرب ما تكون إلى الأنين ، لا أملك الجهد الكافي للبكاء بصوت عال لكن دموعي كانت تخرج من عيني بلا صوت ، ينزل ياسر وليد من على كتفيه ويضعه أرضا ويتقدم نحوي يلمس خدي وأشهق مرة أخرى لكن هذه المرة ليس بردا إنما الخوف دفعني لذلك ،

- حرارتها مرتفعة جداً ، دعينا نأخذها إلى المستشفى
- بسيارة من سنذهب ، كل أخوتك ليسوا هنا
- سأحاول أخذ السيارة من أبي

يخرج ويحمل وليد معه ، وتبقى أمي تنفث فوقي ، أتنفس بشكل أسرع مع أني ارتحت نسبيا لعدم معرفة ياسر بالأمر بعد ، يدخل ياسر من جديد حاملاً مفتاح أبي ووليد بيده الأخرى . . يضع وليد على أمي :

- اتصلت بصقر وأخبرته ، أين عباءتها؟

يختفي لوني! . .عباءتي في سيارة أريج ولا أحمل معي الا عباءتها الملونة التي دسستها تحت السرير داخل حقيبة قديمة . . تقوم أمي تبحث عنها في مكانها المعتاد وراء الباب ولا تجدها . . تخرج من غرفتي ويتقدم ياسر نحوي ، يزيل الخرقة من على رأسي ويمسح على شعري . . لو علم ياسر بما حدث لكان الأمر مختلفًا الآن ، لم يكن ليمسح على شعري بحنان سيشده ويسحبه كما فعل في المرة السابقة ، تدخل أمي حاملة معها عباءتها وتحاول أن تلبسني إياها ويساعدها ياسر وجهد قليل مني :

- فلتبس عباءتي الآن واذهبوا قبل أن ترتفع حراتها أكثر

يحـملني أخي ببنيتـه القوية ، رأسي يسـقط على صـدره بضعف وتنزل يداي للأسفل بشكل هزيل . . ويمضي بي خارج الغـرفة متـجـهاً لسيـارة أبي الجالس في الصـالة الزرقـاء ينفث الدخان أمام التلفاز .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

هذا العالم بحر ، وأنا مصابة بالدوار

بثينة العيسى

قلبي يخفق ، أشعر بإجهاد كما لو أني ركضت ألف ميل تحت شمس حارقة . . كما لو كنت أغرق ويجذبني التيار للأسفل . . متعبة جداً وأشعر بحرارة دمي تفوح من تحت جلدي ، أفتح عينيّ ببطء ، يدي ممتدة فوقها مغذي ذو حبل طويل ، وعلى إصبعي السبابة شيء ما يقبض عليها . . وهذا السرير قاس جداً ، ألتفت ببطء . . ياسر يجلس بجانبي يعبث بهاتفه ما إن رآني قام من جلوسه وتحسس جبيني :

- سلامات سلامات

يفتح الستارة القصيرة لينادي الممرضة ، يعود ويقف فوق رأسي وتلحقه الممرضة الآسيوية ، تقيس حرارتي بشكل روتيني بالنسبة لها ، تفك الإبرة المدسوسة في أحد عروقي . . تفصل الشيء القابض على إصبعي . . وأستعد للنزول من السرير المغطى بالورق الأبيض ، أرى عباءة أمي الواسعة جدا تلتف بي وحتى طرحتها . . لكن بلا برقع أو شيءٍ يغطي وجهي :

- تستطيعين المشي أم أحملك؟

أرفع رأسي بتعجب ، يبتسم ويمسك يدي كمحاولة للمساعدة . . نمشي سويا نحو الباب وأنا خائرة القوى . . وددت

لو يعيد سؤاله من جديد لأوافق على عرضه ويحملني ويزيح عني تعب المشي بإجهاد ، نصل لسيارة والدي القديمة التي ما عهدتني يوما ركبتها سوى في طفولتي ، يفتح لي الباب كما لو كنت أميرة متنكرة ، يعود هو للركوب مبتسما ، يدير مفتاح السيارة عدة مرات حتى استيقظت من موتها واشتغلت وكأنها عجوز تلفظ آخر أنفاسها ، ونمضي باتجاه منزلنا

- كيف حالك الآن؟

- أحسن الحمد لله

- قلقت عليك جداً ، لم أكن أتصور أنك لا تتحملين المرض إلى درجة البكاء

- البكاء؟ هل بكيت حقاً؟ لم أبكِ!

(ينظر إلي متعجباً)

- بل أجهشت بالبكاء كما لو عدتِ لمى الصغيرة الباكية

- لا أتذكر فقرة البكاء

(يبسم ضاحكا)

- لا بأس المهم أنك من سيغسل ثوبي المليءُ بالدموع وأشياء أخرى ، فأنت من أعدم نظافته حين ألقيت برأسك علي وأجهشتِ باكية

أبتسم بطريقة مصطنعة لينتهي الحديث ، فلا أملك الجهد الكافي لتبادل الحديث ، أنا بالكاد أملك جهدا للتفكير ومحاولة التذكر متى بكيت؟ آخر شيء يتذكره عقلي . . حين حملني من السرير إلى السيارة ، أحاول استيعاب ما الذي حدث حين وصلنا للطوارئ لكن عقلي متوقف بعض الشيء ،

ماذا لو كنت أتحدث بعقلي اللاواعي وفضحت نفسي بنفسي أمام ياسر؟ ، ألتفت نحوه أرى وجهه وهو يقود . . لا أظن ذلك فمازال مبتسما بعض الشيء ، ينظر نحوي وتتسع ابتسامته أكثر ، لا لا لم يعرف ياسر شيئا بعد .

نصل إلى المنزل وألم رأسي لم يبرح بعد يجعلني أعقد حاجبي من الوجع ، أسحب عباءة أمي وأنزل من السيارة ، ويمسكني ياسر من ذراعي وندخل البيت القديم سوية ويغلق ياسر الباب خلفنا! لم أكن يومًا أعتقد أنّي أعود للبيت أنتظر حكمًا بالموت ، أنّي أعود له وفي بالي أنّهم سيعلمون بأمري ويعتبرونني عارًا يجب التخلّص منه ، أعودُ للبيت مرهقةً كما خرجت ، في داخلي روحٌ تتكسّر أمام الريح والغبار ، طفلةٌ أكلت الصحراءُ ضحكتها ، مطعونة في ظهرها من أقرب صديقاتها ، أقفُ في منتصف «الحوش» ألتقط الغبار من الأرض لداخلي لعلّي أستنشقُ بعض طمأنينة ولا أفعل ، يتوقفُ معي ياسر يتأمّل ملامح وجهي المتعبة ، نقف عند مدخل الصالة أتّكئ على كتفه برأسي وينظرني بابتسامة ويحاول أن يلاطفني بقوله «ستغسلين ثوبي لا تحاولي التمثيل أكثر» أبتسم بضعف وأردد داخلي آهات يردّ صداها جوفِي الفارغ من كلّ شيء إلاّ القلق!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٢٩-

الحياة لا تليق بي هنا ، أنا غير مؤهلة للتصالح مع مجتمع ثائر لمجرد اللا شيء ، لدي كامل الاستعداد للتنازل عن كل الأشياء المتاح لي التنازل عنها والهرب بعيداً ، لأن هذا المكان ليس لي ، أنا غير صالحة للعيش هنا .

قلبي فارغ ، وفي حلقي حشرجة بكاء أكافحها كي لا تفضح أمري أمام أمي التي بقيت تنظر إلي بذعر الأمهات الطيبات ، حتى مع تحسن صحتي لم تدع لي أمي سوى الراحة عن كل أعمال المنزل والتكفل بحمل وليد فقط ، لا أملك المثالية الكافية لأعارض عرضها المريح ، استلقيت على أريكة الصالة القديمة ، يجلس فوقي وليد الصغير يأكل بيده ويتحدث بلغة الأطفال المزعجة جداً ولا سيّما اللعاب ، على الأريكة الأخرى يجلس ياسر ينظر إلي بنظرة الاشتباه ويرسم بكراسته ولا أعلم إن كان يرسمني أم يرسم غيري لكن عيناه المصوبة نحوي توحي بأنه يرسمني بشكل دقيق ، عمر وسعد يجلسان أمام التلفاز يتابعان التلفاز متضاحكين على الفيلم الكوميدي المعروض ، لست قادرة على مشاركتهم الضحك لأني أشعر بأن دمي يحترق تحت جلدي بعض الشيء ، وفي جوفي ألف غصة من بكاء حبستها قصدا . . خوفا من افتضاح أمري ، بعد بكائي الفجائي على صدر ياسر البارحة يجب أن أعيد ضبط

نفسي وضبط مواعيد البكاء ، فالوقت المخصص للبكاء هو الليل قبل النوم حين أدس وجهي على وسادتي لتسد صوتي وأبكي حتى تباغتني الأحلام سريعا ، ومؤخرا لم أعد أرى إلا كوابيسًا على هيئة سيف وهو يسير بي في طريق طويل في نفس السيارة الحمقاء وحين نصل لمنزلي تتحول السيارة إلى تابوت أسود أستلقي فيه وحدي أستغيث . . وسيف يقف خارج النعش ممسكا به حتى إذا ما حاولت الخروج منه أغلق النعش فوقي ليحاصرني الظلام وصرخاتي غير المسموعة .

- «هيه لمى وصمخ»

ألتفت نحو عمر وهو ينادي

- ألا تسمعين؟

- ماذا تريد!

- ألا تسمعين أمي تناديك من داخل المطبخ؟

أقوم من مكاني حاملة وليد معي وأتجه للمطبخ ، تقف أمي أمام الفرن تحرك قدرا كبيرا ، أقف في مكاني بصمت لم تعرني انتباها ، يناغي وليد بصوت طفولي فتلتفت نحوي وتنتبه لوجودي ، تؤشر على صحن خضروات قد تم غسلها

- جهزي السلطة والدك سيتعشى هنا الليلة

تمر من أمامي وتحمل وليد مني مبتسمة وتناغيه وتضاحكه وتخرج وتترك لي مهمة تقطيع السلطة ، أمسك السكينة القصيرة بيدي وأبدأ بالتقطيع بلا اكتراث ، أحاول تجاهل شعوري والاندماج بتقطيع الخيار بنفس الحجم بالتساوي ، لا سيما الطماطم تاركة البصل في الأخير لأترك لي مجالاً كافيا

للدموع المتساقطة واتخاذ البصل عذراً كافيا للبكاء لنفسي ولأمي ، منذ أن لامست السكينَ حبة البصل انسكبت دموعي التي حاولت حبسها طيلة اليوم وابتلاع عبرتي الباكية منذ أن استيقظت صباحا ، ولم أعطي نفسي مجالا لمسح وجهي بل أطلقت العنان لعينيّ التي عانت من الكبح طويلا ، ماذا يعني أن تكون غير قادر على البكاء بالطريقة التي ترغبها أنت؟ وتكتفي بأكثر الطرق خفية وتهربا . . الحرية لديك معدومة ، لا لنفسك ولا لشعورك ولا لدموعك المهدورة أيضا!

أنا لا أبكي على شعوري السيئ الطارئ فقط ، بل لأني مصدر النحس الكوني . . لأني دميمة بعين الحظ ولا يستطيع النظر لي ليبتسم بوجهي ، لأن هذا العالم كله يعيش بالطريقة المفترض عيشها . . سواي! أقف هنا بكل تعاسة هذا الكون أقطع بصلا أبيضا في مطبخ قديم ووجهي مغمور بالدموع وعاجزة عن التوقف أيضا وفي صدري ألف غصة من بكاء .

أرمي السكين بسخط واضعة يدي على وجهي وتجذبني الأرض نحوها وأسقط جاهشة بالبكاء أكاد أختنق من شهقاتي ، ولم أكترث لأخوتي خارج المطبخ إن سمعوا نياحي أم لا . . لأن الجمرة العالقة في صدري قهرا لست قادرة على كبحها سرا ، لأن الألم في حلقي جراء ابتلاع البكاء يدفعني لأن أجهر بدموعي ، لأن عقلي عاجز عن التفكير بأي شيء غير البكاء ، لأني موجوعة فحسب ، وكل المشاعر السيئة التي أحملها الآن يختصرها الوجع كله في كلمة موجوعة .

لم أعي أن أخوتي كانوا يقفون متفرجين على حفلة البكاء

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

عند باب المطبخ ، سعـد وعـمـر ينظران بعين الدهشـة ، وفـهـد مذعورٌ من صوت البكاء الجديد ، وحده ياسر من تقدم نحوي وضـمني برفق وتركني أبكي كـالمكلومين على صـدره ، طاردا الجميع خارج المطبخ ، ويمسح علي بهدوء دون أن ينطق!

عندما يخذلك أحدهم لا تقف بمنتصف الطريق تنتظر كتفا تبكي عليها ، المخذولون لا يحبهم أحد . . أبصق على ذكرياتهم وأكمل طريقك بابتسامة

سنا البدر

هذا ما حاول شرحه ياسر حين حاولت جعل الأمر مجرد مشكلة تافهة بيني وبين أريج وكأنها المرة الأولى أن نقع في مشكلة ما ، يعلم ياسر أني أكذب ، وأعلم أن ياسر لم يصدقني ، لكنه يحاول تجاوز الأمر حتى أهدأ من نوبة البكاء التي تكررت عليه للمرة الثانية ، حاول تغيير الموضوع حين بدأ يريني رسوماته الجديدة ، وحاول تعليمي أساسيات الرسم واقترح أن نرسم فراشة كما كنا نفعل من قبل ، حين كان يطلب مني التحدث عن أمر ما يسأله فأرفض ، ويرشوني برسمة فراشة أنيقة على كراستي ، أعتقد أن ياسر يطلب مني التحدث بطريقة غير مباشرة كما كنا صغارا ، لكن الأمر مختلف هذه المرة ، ينظر إلى عيني التي تتهربان من النظر إليه ، يبتسم بهدوء ، تتجه يده نحو ذقني ويصوبه نحوه بطريقة بطيئة :

- تكلمي ، سأقف معك في جميع الحالات مهما كان الأمر

تقف الدموع في عيني وأحاول ابتلاع غصتي بالبكاء ، أمسح دمعتي التي سقطت مني خلسة ، دموعي وتعبّري أكدت لياسر أن الأمر لا يقف عند مشكلة سخيفة بيني وبين أريج ، بقيَ ينظر نحوي حتى تماسكت . .لا أضمن ما الذي سيفعله ياسر إن كان قد جعلني مرة أشرب ورقا وماء ، فما الذي سيفعله حين يعلم ما حدث بيني وبين سيف؟ إن كان سيجبرني على أكل سيف حيا وأمضغه بأضراسي كما فعلت مع الورق فأنا مستعدة أتم الاستعداد أن أخبر ياسر كل شيء بل وأكذب أيضا في سبيل قتل سيف ، وسأبدأ بأكل أريج كمقبلات . . سأستمتع أيضا في وجبتي الشهية ، سأنزع قلبهما بيدي وأقضمه بين فكي كتفاحة خضراء طازجة مثل طعم السكر ، سأبتلع قلبهما كما أبتلع غصتي وأمسح أثر الدماء عن وجهي مثلما أمسح دمعي عن وجنتي وأرش الملح فوق الدماء لأستلذ بالطعم وأنتشي لحرقة الألم فوق أجسادهم ، سأفعل معهم كما فعلوا بي بطريقة انتقامية تتيح لنفسي الحاقدة الانتصار على الاثنين ، على أريج حين وضعتني في هذا المأزق ، وعلى سيف وكأنه شريف مكة! لكأنما الأمر مباح عليه وحرام على الآخرين ، أن يستعد ويتزين ويأخذ سيارة حمقاء لأجل اللقاء بفتاة وإهدائها هذا شيء مباح عليه ، لكن أن تأتي فتاة لاستلام ما خطط له هو هنا يقع الشر كله على الفتاة فقط دون أن يكون له نصيب في الخطأ ، هذا إن كان يصنفه كخطأ !يمد ياسر يده نحو حاجبي يفردهما بإبهامه مبتسما

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- توقفي عن عقد حاجبيك يكادان أن يتلامسا ، ما الأمر الذي يستحق كل هذا الغضب؟

أبتسم مع ابتسامته ، خائفة من ردة الفعل التي سيبديها ياسر ، لكني اخترت أن أخبره بكل شيء منذ أن كنت في سيارة أريج حتى حين انفجرت باكية هنا وحدي أرتعد خوفا ، أنظر نحو وجهه الذي بدى متحمسا ، أبلع ريقي . . قد يكون مصدر قوتي وأماني وقد يكون غضبه نهايتي ، لكني لن أتراجع سأخبر ياسر بكل شيء . . .

- حسناً ، بدأ الأمر حين خرجت مع أريج منذ أيام . . . . .

***

أركض نحو المخزن الصغير ، أفتح الباب الحديدي بكامل قوتي ، كميات الغبار المهولة التي استعمرت أنفسي سريعا أجبرتني على السعال بكل استسلام واضعة يدي على أنفي وأحاول بيدي الأخرى مقاومة الهجوم الكاسح وإبعاد الغبار عن وجهي أهز يدي يمينا وشمالا كأنها سلاح حاد ، آخذ نفسا عميقا بعدما عقد الغبار معي هدنه بسيطة ، أو هكذا ظننت ، أقلب بصري باحثة عن حقيبة قديمة ، أحمل اللحاف الثقيل المملوء بالغبار وألقيه جانبا . . لا شيء تحته ، أدفع المكنسة القديمة من أمام الرف ، لا أجد أي أثر لحقيبة السفر الجلدية بنية اللون ، أتسلق على الرف كما لو كنت طفلة متصابية ، وجدتها . . . إنها هنا في أعلى رف في هذا المخزن المكتوم بالغبار ، أسحب الحقيبة نحوي بكل غباء هذا الكون ، تسقط وأسقط قبلها ، أقع على ظهري وتسقط الحقيبة فوقي بشكل

سريع ، اعتقدت أنها تعاقبني كوني أجبرتها على النزول ، لكن شكلها الحزين غير اعتقادي عنها . . بدت بائسة جدا حزينة وتنتظر العطف ، صُنعت لأن تكون حقيبة سفر عصرية تجرها فتاة أنيقة فوق أراضي فرنسا وتطير في سماء ألمانيا وتعانق المطارات الفخمة ، لكنها «نحيسة» مثل حظي ، فلم تغادر منزلنا إلا مرة ، وبدل أن تستقل الطائرة ، رُميت في سيارة جمس قديمة النوع لتسير بها من أقصى مناطق الرياض بؤسا وفقرا ، إلى أراضي رماح عند أختي المرحومة وزوجها المشؤوم ، حتى حدث ما حدث وعادت هنا تحمل ملابس الأموات وتحتضن رائحتهم ، وتعانق الأرفف الحديدية في مخزن قديم داخل بيت فقير منزوي . . يا للقصة البائسة وتعاسة الحقيبة الظاهر في جلدها المهترئ من عوامل التعرية البئيسة التي مرت بها ، اعتدلت في جلستي وتهيئت لفتح الحقيبة وحاولت التجرد من كل المشاعر في حال استقبلتني أغراض مريم وأطفالها ، قررت أن أكون صنمًا أن أكون بليدة المشاعر ، أن آخذ عباءة مريم فقط وأقوم بإعادة الحقيبة مكانها والهرب قبل أن تعرف أمي ، صوت السحاب العالق في الحقيبة بدى لي وكأنها تئن حزنا ، الملابس مرمية بشكل عشوائي متراكمه فوق بعضها البعض ، ولا سيما أدوات مريم المحببة ، وألعاب يتيمة اجتمعت في حقيبة الأموات هذه ، دمية دلال مع سيارة حسان وفستان غالية وثوب محمد ما زال على قذارته لكأنما محمد ارتداه البارحة ، أشعر بالبكاء وكأنما حلقي يحترق منه هذا البكاء لا يعرف وقتا للحضور يجيءُ مباغتا وكأنه صديقي! هو يلازمني

كملازمة الأصدقاء لكني أصبحت لا أحب الأصدقاء مؤخرا ، أبلع ريقي محاولةً دفع العبرة المحبوسة في حلقي إلى الأسفل فتنزل خاسئة تسكن صدري بحزن وقلبي التعيس لن يستنكر قدوم عبرة جديدة ، لطالما كان معتادا على العبرات الحزينة ، أسحب عباءة مريم الحريرية أستشفّها أبحث عن بعض منها أضمها على صدري فأخر باكية مستسلمة ، لو كانت مريم هنا اليوم لكنت في وضع آخر ، لطالما كانت هي ستري في جميع مصائبي منذ أن كنت أرفض الذهاب مع أمي للمدرسة خوفاً من أن يعرف الجميع أني ابنة «الفرّاشة» العاملة في المدرسة وأصير ضحية الخزي هناك ، كنت أحاول التأخر قدر المستطاع حتى تذهب أمي لوحدها ونصعد أنا ومريم الحافلة الصفراء مع «هديل» ابنة الجيران ، كانت مريم تختلق الأعذار لتأخري حتى مع علمها أني مستلقية على السرير أعد الوقت ليمر سريعا وتذهب أمي لعملها الذي يستوجب عليها الحضور باكرا قبل الجميع ، تارة تخبرهم أني أمشط شعري وتارة تخبرهم أني أبحث عن حذائي وكثيرا ما أخبرتهم أني أحل الواجب الذي نسيت حله ، حتى كبرت وكبرت أخطائي فحين أهرب من البيت لمجرد الهرب كانت تخبر أمي أنها أرسلتني للدكان سريعا ، حتى علمت أمي بكذباتها المتكررة حين صارت تكشفني عندما أعود خالية اليدين ، والكثير من الأشياء التي قدمتها لي كأخت حنون مبتسمة على الدوام وأنا مدللتها الأولى حتى بعدما سرقها مني فلاح ما زلت أستولي على الدلال الأولي . . بيد أنه انتهى ، وها أنا أجلسُ محاطةً بالغبار

يداهمني السّعال وتغرقني الذكريات والدموع ، أحاول أن أجفّف دموعي . . أرفع يدي المغبرّة دون وعي لعيني لألطخها بالغبار فتزداد الدموع أكثر! أينَ أنتِ يا مريم ، هذه الطفلة التي لا تعرف إلى أيّ الأماكن تستند ، لم يتبقى لها من قوّة تقابل بها هذا العالم المليء بالعقبات والعتبات ، أين ضحكتُك وقوّتك التي أستمدّ منها قوتي . . أضمّ عباءتها لصدري وأجهش في بكاء طويل يقطعه صوتُ أمّي تنادي! أسحب العباءة والبرقع بشكلٍ سريع وأعيد إغلاق حقيبة الأموات دون أن أرفعها لمكانها وأخرج راكضة نحو أمي وأحاول مسح أثر دموعي

- أين كنت؟ صقر وصديقه ينتظرونك في الخارج
- «أووف ، الله ياخذ صديق صقر أخذ عزيز مقتدر»
- استغفر الله!

أتجاهل أمي وألبس عباءة مريم وبرقعها بشكل سريع أحمل هاتفي بيدي وأركض باتجاه الباب ، سيف أمامي يحمل كراتين البضاعة وأقمشتها دون أن ينتبه للكائن ذو العباءة السوداء الحرير . . يركب السيارة يتبعه صقر ، أمشي ببطء نحو السيارة وأغلق باب المنزل خلفي ، عادةً أركب من الباب القريب لعتبة منزلنا ، أي أن أكون خلف سيف تماما ، لكني هذه المرة تعمدت أن أمشي تجاه الباب الآخر وأركب وراء صقر وكأني أحتمي به من ذو الحاجبين المعقودين ، ما إن اغلقت باب السيارة حتى انطلق صاحب السيارة «الوانيت» فخورًا بأثر الصوت الذي أحدثه وانيته من أثر السرعة ، وكأنه لم يقد منذ أيام سيارة تشارجر بالطريقة ذاتها دون أن يكون فخورا بشيء ، يتجاهلني

كما لو كنت ذرة أوكسجين زائدة ، أعلق عيناي على المرآة التي لطالما ظل يحدق بها كالمجانين ، لكنه يتعمد ألاّ يرى عيني من خلف البرقع ، أشعر بالخوف فعلا ، لكن شعور الكره يسيطر على خوفي ويجعلني أتمنى لو قفزت بينه وبين صقر وفتحت الباب الذي بجانبه وهو يقود بالسرعة الجنونية ذاتها ودفعته بقدمي النحيلة على الشارع فتدهسه الشاحنة الكبيرة التي خلفنا ، ويموت ويموت سره معه ، لكني لا أتحمل فكرة أني قد أموت قصاصا عن واحد أكرهه منذ أن خُلقت .

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٣٠-

تعيسة يا الله وهذا العالم يجردني مني! حزينة ولا أجد في قلبي أملاً يواسيني . . أو شيئا ما يربت على كتفي . . مثقلة بالوجع ولا أحد غيرك قادر على انتزاع ثقلي مني! أشعر بالغضب ، ناقمة على هذا العالم ، ويأكلني السخط ، أنا لا أستحق ما يحدث لي . . كل الأوجاع شربتها سلفًا . . لا طاقة لي لارتواء وجع جديد ، هذا الضيم يسكن جسدي ويهز أضلعي ولست قادرة على التحكم به ما دام يزداد في كل مرة أدفع فيها عبرتي الباكية ، حينها أشعر فقط أن الحياة ليست عادلة بما فيه الكفاية لتجعلني أبكي وقتما أريد وكيفما أريد ولأي سبب كان ، لأن السبب الذي يدفعني للبكاء هو الضيم الناخر في جوفي ، هو الحزن الذي اعتراني منذ أن خُلقت وانتسبت لهذا العالم غير المنطقي . . أنا تعيسة جداً وأكاد أشعر أن دمي يتحول لنار تحرقني من هول الغضب المصاحب لي في حزني الأخير . . . أستغفر الله أستغفر الله ، اللهم إني أعوذ بك من السخط على ما كتبت لي من الأقدار سيّئها والجيد منها ، وأستغفرك عن كل الغضب الذي يعتريني حين يشتد بي الحزن ، . . . أستغفر الله .

عاقدة الحاجبين أجلس جانب أم مشعان وبضاعتنا تتقدمنا ، أشعر أنّ الجوّ حارٌّ أكثر من المعتاد ، أسهو فيظهر الهواء طرفَ بجامتي القديمة حين يحرّك عباءة مريم الواسعة عليّ ،

غاضبةٌ حدّ أنّي لا أريدُ التجهّز لشيءٍ أريدُ أن أقابل هذه الدنيا بكلّ الغضب الذي بداخلي . . أمّ مشعان لم تعرني انتباها وبقيت تتحدث مع موضي عن مشكلة إيجار منزلها الذي يكاد أن يطردهم منه صاحب المنزل ، وعكفت أنا في مكاني يدي على خدي من خلف البرقع أنظر في وجوه الناس العابرين أمامي ، هذا العالم المكتظ بالناس الكثر العابرون هنا والمارون هناك والجالسون في زوايا السوق ، في صدورهم قلوب متشابهة وعقول مختلفة ، وأنا الوحيدة هنا أنظر إليهم من خلف البرقع لست متأكدة من نبض قلبي . . ولا أضمن ثبات عقلي بائسة والرتابة الحزينة تضغط أصابعها على عنقي ، أنا المجردة من المقاومة ومهيأة للاستسلام بشكل كامل ، متصالحة مع فكرة أن يخنقني الروتين حتى ألفظ نفس الحياة خارج جسدي وأنتهي من هذه الكآبة المتسلسلة مع حياتي تدريجيا بالصعود ، أخبرتني صديقتي «نهى» مرة أني ملكة الدراما . . وأني أجيد صنع التهاويل ، ومستسلمة جدا للطاقات السلبية التي تجعل من حياتي شيئا ما يشبه الكابوس التعيس ، لأن في عيني حزنا وفي شفتيّ الصامتة كلام لا يقال . . أنا ملكة الدراما الحزينة وعلى رأسي تاج من بكاء وفي يدي صولجان سحري معزز بقوى سلبية تبث في حياتي كل ما هو صالح للبكاء عليه والنياح من أجله ، أنا ملكة الدراما البئيسة في صدري بحر هائج أصله دموع مكبوتة ، وفي عقلي مجرّات من الكلمات لم تنطق ، ومئات من الصرخات المكبوحة ، أنا ملكة الدراما التعيسة خُلقت لأركض في الطرقات بنية التعثر ، ولا يحق لي الألم

على السقطات التي تباغتني، يكسحني الفقر ويلجمني الضياع.. ولا أحد يكترث بملكة الدراما تلك، بينما «نهى» التي لطالما نادتني بملكة الدراما بكل سخرية.. لم تعهد يوماً واحدا يشابه أيامي، لم تركض في طفولتها حافية الأقدام مع الصغار الآخرين ذو الأحذية الجديدة وعيونها تلتقط ألوان الأحذية وتدس عورة قدمها بقدمها الأخرى خوفًا من السخرية، «نهى» لم تشهد أبيها يلكم أمها ويمضي تاركا إياها تشهق بالألم والدموع، حتى أن «نهى» لم تضطر يوما أن تنام باكرا لأن الجوع جاء مبكرا هذه الليلة، نهى لم تجلس تحت الشمس مثلي تبيع بضعة أشياء قديمة موقنةً أنّ أغلب من يبتاعها يجاملونها ويشفقون عليهاً.. لأن نهى في منزلهم بركة ماء واسعة وغرفتها تساوي حجم منزلنا، ولديها حذاء أحمر أنيق وساعة ذهبية يوم أخبرتها بأن ساعتها جميلة أجابتني «هذي الساعة رولكس.. يعني تبيعك وتشتريك»! لأن هذه الرولكس تبيعني وتشتريني أصبحت أنا ملكة الدراما بحد زعمها! أنا لم أملك ساعة قط لكني أملك شرخا في قلبي من ضحك جماعي دار حولي من حديث ساخر ألقته «نهى» على فقري وانتهزه الجميع فرصة الضحك.. لم أملك سوى البكاء في دورات المياه المدرسية.. بقيت هناك أبكي ساعة! صغيرةٌ تشتُم ضعفَها ولا تدري من تلومُ عليه، تشكو فقرها ولا تلمك شيئًا تفعله حياله، تندب حظّها وهي الموقنة منذ نعومة أظفار حزنها أنّ هذا الوجع سيكبُر معها ليكونَ وجهها الذي تقابل فيه الهواء!

***

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

«رأيتك اليوم من بعيد ، لكنك لم تعيريني انتباها ، كنت متشوق جداً للحديث معك لكن يبدو أنك مرهقة أو هكذا أظن أحمل في صدري حديث لا أقوى على كتابته . . علّ عينك الجميلتين تسرقانه من صدري حين أراك ، بما أن العينين ذاتهما مارستا السرقة مسبقاً في الصدر ذاته بيد أنهما لم تسرقان حديثاً ، إنما شيء نابض . . يدق سريعا حين تسلهم عيناك ببطء»

في شفتيّ ابتسامة صغيرة شكّلها فيصل برسالته الرقيقة ، تنتهي أبجدية حروفي لا أجد رداً لكلّ هذا الكلام المنمّق ، بسيطة مثلي لم تعهد كلاما معسولا تجهل كيف ترد على المتمرسين ، أجّلت فكرة الرد عليه لكي لا يحسبني متحمسة جداً ، وانتظرت قليلا عل عقلي يخترع كلاما يشابه رقته لأرد عليه ، أسحب وليد المتقلب بجانبي وألاطف أنفه بأنفي . . يمسك شعري ويجره بشده مبتسما . . أصرخ بصوت منخفض بعض الشيء . . أحاول فك يده المتمسكة بقوة لا يستجيب أبعده عني وما زالت يده معلقه على جذور شعري بكل قوته . . تجيئيني يد من فوقي وتفك يده بالقوة وتسحبه مني ، ولأني خافضة رأسي باتجاه وليد القصير جدا لم أرى المنقذ إلا حين استعاد شعري حريته . . . رأيت والدي يحمل وليد وفي يده الصغيرة آثار الجريمة بقايا من شعري المنتوف ، ينظر والدي باتجاهه مبتسما ويجلسه بجانبه ويعاود النظر إلى التلفاز ممسكا فنجال الشاي الأحمر في يده ، بقيت عيناي محدقةً نحوه باستغراب هو يعلم أني أنظر إليه بعين الدهشة لذا بقي متصنماً

أمام التلفاز لا يبدي أي تعبير غير الانسجام المتصنع ، في البداية ظننتني أحلم . . لكني أيقنت واقعي حين سكب إبريق الشاي في فنجان آخر ومده نحوي ، ما عهدت يده تقدمت نحوي يوما إلا لتضربني . . لكنها اليوم امتدت لي مثل يد الآباء الآخرين . . بطريقة سوية جداً ، مسكت الفنجان من يد أبي التي ظلت معلقه وابتسمت بشكل ما أقرب للخوف ، عاد هو للتلفاز من جديد يرتشف الشاي ببطء منسجما مع مسلسل عربي قديم . . وكأن ما قام به للتو فعل روتيني اعتاد على القيام به ، ارتشف الشاي بصمت وظللت أتأمل وجه أبي الذي بدا هادئا جدا مع علمه المؤكد بعينيّ المتعلقة على وجهه بغباء نوعا ما .

تدخل أمي تحمل قدرا وبضعة صحون وتضع ما تحمل أمام أبي . . تلتفت نحوي

- «نادي أخوانك الموجودين . .للعشاء»

أقوم من مكاني متجهة لغرف إخوتي . . أفتح باب غرفة عمر وسعد وفهد بلا إذن ، عمر يغط في النوم وسعد يسن سكينا صغيرا لطالما خبأها بجيبه ، وفهد يتحدث لسعد الذي لم يبدو مهتما جدا لما يقوله هذا الصغير ، يخرج الاثنان بحماسة الجائعين نحو الصالة الزرقاء بعدما أخبرتهم أن العشاء قد حان ، أمر على غرفة صقر وياسر . .أطرق الباب أنتظر رد أحدهم يأذن لي الدخول . . أفتحه بهدوء بعدما أجابني ياسر ، وجدته كما عهدته معتكفا على كراسته يرسم ويداه امتلأت بالسواد . . بينما صقر لم يكن في الغرفة وحسبما أعتقد كان

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

يستحم في الحمام الوحيد للأولاد التسعة خارج الغرفة

– العشاء جاهز . . .

ينظر لي بوجه صامت ويهز رأسه بالإيجاب . . . أتركه وأغلق الباب خلفي . . منذ أن أخبرت ياسر بمشكلتي صار يتهرب من الحديث معي أو الجلوس سوية كأنه يخاف على نفسه من أن يقتلني أو أن يصرخ في وجهي وتهربه يبعده عن ذلك ، في الحقيقة أرى تهربه مريحا جدا ولم أتضايق كثيراً سوى في بادئ الأمر . . لأني ظننت منه خيرا أن يقف معي ويساعدني وينقذني من مشكلتي! لكن ظني كان آثما .

***

يأكلني القلق . . الطريق إلى الجامعة طويل جداً ، ومع خردة سيارة صقر يخيل لي أن تطول المسافة أكثر . . تلهيني أحاديث أريج عادة عن طول الطريق فلا أحسب الوقت حتى أصل ، سيارتها التي نركب فيها يومياً إلى الجامعة سابقًا واسعة وتتيح لي التمدد على عكس الكراسيدا الخاصة بصقر المتأفف بعدما أجبرته أمي على أخذي للجامعة وغيابي عنها لعدة أيام كاف جداً . . لا أعلم إن كان قلقي لأني سوف أواجه أريج اليوم أو أني قلقة من قتلها أمام الجميع بلا استيعاب . . منذ بداية المشكلة وأنا في كل مرة يهزمني القهر أتخيل أريج أمامي مجردة من كل شيء إلا البكاء . . وفي يدي مسدس صغير أصوبه نحوها ، أنتظرها تنتهي من نوبة البكاء النادمة والمتحسرة على ما فعلته بي . . أستمتع بالشهقات وكأنها سمفونية من سمفونيات بيتهوفن . . تنطق اسمي وأطلق الرصاصة تتوسط

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

جبينها وتبقى عينها جاحظةً تعبر عن الدهشة . . عن الصدمة عن الألم . . والخذلان الذي اعتراها حين رأت الرصاصة تنطلق لتستقر بين عينيها . . وتموت على تعبير الصدمة ذاته! وأرد لها صاع الشعور صاعين ، لكني أستيقظ من خيالاتي كل مرة ولا أجد دماءً ولا رصاصة ولا صوت بكاء هناك إلا بكائي .

قبل موعد محاضرتي بعشر دقائق أنزلُ من سيارتنا أخي القديمة أكتشف أنّي كنت أغلقت الباب على طرف عباءتي واغبرّ أكثرها ، لا أهتمّ! أعدو الباب الأولي وتستوقفني فتاة بزي الأمن وتطلب مني بشكل روتيني «بطاقتك الجامعية» تنظر إليها بلا اكتراث وأمضي أنا في طريقي نحو اللقاء المتخيل منذ أيام . . أدخل المبنى الكبير أركض نحو المصعد المكتظ بالفتيات المكتوم بروائح العطور . . أصل الدور الثالث وأخرج منه متنفّسةً تنفس الصعداء بعدما خنقتني كميات العطور المهولة على هذا المصعد المسكين ، أتجه شمالا نحو قاعة المحاضرات الخاصة بي . . بقي دقيقتين وتبدأ المحاضرة . .أدخل وتدخل الدكتورة خلفي . . أريج هناك تجلس بجانب النافذة رافعة هاتفها الأنيق وتلتقط صورا لذاتها . . كان بودي الركض نحوها رمي الهاتف من النافذة ومسك شعرها المزين الجميل وضرب وجهها على الطاولة وتكرار ذلك حتى تسيل الدماء من أنفها ووجهها . . لكن الدكتورة خلفي وأعجز عن فعل ذلك ، أرقبها بعين متفحّصة . . متأنقة كأنّ شيئًا لم يحدث ، تبتسم كأنّ وجعًا لم يصبني ، أنا التي أتيتُ للجامعة بوجه خال من أيّة مساحيق هي تأتي بكامل أناقتها ، أنا التي لم أنمْ جيّدًا والهالاتُ تحيط

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بعينيّ تأتي هي وكأنّها نالت قسطًا من الراحة كبير، يكبر الحقد في داخلي عليها .. وأتعذّر لنفسي عن قتلها بدخول الدكتورة خلفي، بيدّ أنّي لا أطيق فعل هذا! .. اكتفيت بالوقوف حتى انتبهت لي وجلست في أقرب كرسي بعيدًا عنها . .بدأت الدكتورة بالسلام وتحضير الأسماء ولأن اسمها بحرف الألف فهي من الأسماء الأوائل التي تحضرهم الدكتورة .. نادت الدكتورة «أريج عبدالله صالح ...» ألتفت نحوها سريعا، أجابت بـ«نعم» وهي تنظر نحوي بشكل غريب .. مستعدة لأي ردة فعل مني، أشحت بوجهي عنها وتعمدت في البداية تجاهلها وهي التي تعرفني جيدا أني متمرسة جداً بفعل التجاهل والتهميش، لا أظنها نسيت ما فعلته بـ «شذا» مسبقا في أولى سنوات الجامعة، حين كنت بالكاد أستطيع تحمل الجلوس مع «شذا» وبقية الزميلات، ليس لأنها ثرثارة بلا فائدة فحسب، لأن كل ما فيها يدعوني لبغضها بداية من صغر عقلها سذاجة فكرها وتفاهة حركاتها نهاية لأن شعرها مستفز أيضا ولونه مصدر أساسي لسد الأنفس في بدايات الصباح، لا سيما وجهها، لكني أظن اني بالغت في الأمر لأني لا أحبها فحسب، بدأت بمحاولة تهميشها وتجاهلها تماما حتى تبادلني الكره ولا يجتمع لنا حديث سوية، ومن ثم بدأت بالخطة الأخرى حين كنت أتحدث عن موضوع معين مختلق يخص صديقتي الخيالية التي سميتها «جواهر» لكل واحدة من الزميلات دون أخوض بالموضوع بشكل جماعي، فأبدأ بها وأتحدث بالموضوع الخيالي

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

عن جواهر ، بعد يومين أمسك أفنان وأخبرها بالموضوع نفسه ، بعد أسبوع تأتيني ريناد ويدور بينا نقاش حول جواهر وموضوعها وأنتهي بزهرة وأعطيها الموضوع الخيالي كاملا ، حتى إذا ما اجتمعوا جميعاً في وقت واحد أريج ومها وأفنان وريناد وزهرة بحضور شذا . . يكون الجميع على علم مسبق بموضوع صديقتي «جواهر» عدى الحمقاء شذا . . أفتح الموضوع مرة أخرى يدور النقاش الجماعي بينهم جميعا فيما بينهم أريج التي تعلم عن الخطة مسبقا ونتحدث جميعا بموضوع واحد عن جواهر الخيالية ، وتبقى شذا تحدق نحونا لا تفهم شيئا مما نقول ولا أحد مكترث ليشرح لها . . وتصمت في كل مرة أكرر خطتي هذه حتى كرهت الجلوس معنا وانسحبت مع صديقات أخريات كان الله بعونهم .

أريج لم تنسَ أني أملك كيد نساء ساعدها مرارا للتخلص من بعض رجالها ، أظنها خائفة من ردة فعلي ولم تظهر لي شيئا سيئا حتى الآن ، وأني لا أكاد أصبر أكثر حتى تصمت هذه العجوز المتحدثة أمامي لأنقض على أريج قبل أن تهرب .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٣١-

- الأمر لا يستحق كل هذا!

قالتها لي حين خرج الجميع من القاعة وبقيت أنا واقفة عند الباب كي أمنعها من الخروج لكنها لم تقم حتّى ، بقيت جالسة في مكانها تنظر إلي بلا تعبير ، أنا التي تمنيت أن تظهر ولو بضع ندم بسيط يريح قلبي المخذول منها ، لكنها لم تفعل واكتفت بالتبرير حين هاجمتها بالأسئلة التي لطالما رددتها بيني وبين ذاتي :

- لا يستحق أن أموت خوفا وسط سيارة الأحمق ذاك وأنت على علم مسبق بمدى قرب سيف لأخوتي وكرهي له؟

- لم أكن أتصور أن سيف سيبدي ردة فعله المبالغ بها هذه!

- نعم بالتأكيد كان الأجدر به أن ينحني لي ويقبل يبدي ويمد الهدية بانصياع ويعود أدراج سيارته وأعود أنا للسيارة وننطلق وينتهي الأمر!

(تغضب من طريقة سخريتي في الكلام تعقد حاجبيها وتنظر إلى الشباك بغرور وغضب ، وأبتدرها بغضبٍ وصوتٍ مبحوح يحاول أن يكون حاداً ليعبّر عن حدّته) :

- ماذا ستتوقعين من ابن لحارة قديمة وشاب متهور وسط مجتمع غبيّ وفكر قديم أن يفعل؟

(تلتفت والتحقيق يكاد يخنقها)

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- غبية غبية ، «قرفتينا أنت وسيف ترى! الناس تطورت وصلت القمر وأنت للحين خايفة من ولد حارتكم؟»

(تجتمع الدماء في وجهي من أثر الغضب . . أود سحقها بقدمي . . بحذائي الرخيص . . أشد على أضراسي محاولة منع نفسي من لكمها ، ويبدو أنها فهمت من تعابير وجهي غضبي فاسترسلت قائلة) :

- «استريحي أنت وسيف» ، سيف صار يعلم بالموضوع كاملا . . أخبرته حين اتصل بي غاضبا منذ أيام ألاّ شأن لك بالأمر وأنها كانت مجرد لعبة مني وددت خوضها لكنك طفلة لم تتهيئي بعد لألعاب الكبار!

تجتمع الدموع في عيني ، أكاد أبتلع عبرتي لكني لا أقدر . . أرتجف من الغضب وعيناي تمتلئ دمعاً مقهورا ، أنظر إليها بوجه باكي . . وتشيح بوجهها نحو النافذة . . أجلس بعدما كنت واقفة أمامها وهي مستندة على الكرسي . . أغطي وجهي بكفي النحيلتين وأجهش بالبكاء ، وبقيت في مكانها متجمدة لا تفعل شيئا سوى السكوت ، أبكِي لأنّ غضبي خذلني . . لأنّ لياليّ الماضية كانت كلّها استعدادًا لهذه اللحظة ، حذرت نفسي من البكاء كثيرًا ، رسمتُ سيناريوهات كثيرة لكي لا أبكي ، أن أبقى جبلاً أمام إعصارها لا أهتز ، كنت أظنني استنفذت طاقة عيوني في البكاء لأجيء لهذه اللحظة مفعمةً بالغضب جافّة من كلّ دمعة ، تبًا لضعفي . . تبًا للدموع من أين أتت! كيف لي أن أتوقّفً عنها وأردّ الصاع صاعين! أشعر أنّي أحترق وأبكي بكاء الضعيفة التي لا تعرف

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

مـاذا تفعل ولا تدري بمن تلتجئ! طرأ ياسر ببالي حينها ثمّ أجهشتُ بالبكاء أكثر حدّ التفتت إليّ أريج! يا الله كيفَ تخذلني الحياةُ من كلِّ جانبٍ ، كيف لأخي أن يتجنبني ولا يلقي لأحاديثي بالاً! تبلّل وجهي بالدموع ، وبقيتُ أبكي . . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

لا يؤذيني خذلان الأصدقاء ، ما يوجع حقاً هي الأسئلة التي أواجهها من بعدهم

سنا البدر

لا أدري ما الذي اعتراني حين أفرغت ما في بقلبي أمام أريج ، بكائي المفاجئ في وجهها وصراخي عليها حين حاولت أن تربت على كتفي ، كل ذلك لم أكن أخطط له ، لكنني أشعر بالراحة نسبيا من هذا الموضوع ، أدخل المنزل الساعة تشير للثانية والربع ظهرا . . أرمي بثقلي على سريري الصغير وآخذ نفساً عميقا وأحاول تجاهل صداع رأسي من أثر البكاء ، يدق هاتفي البدائي ، فيصل يتصل في هذا الوقت المشابه للجحيم الحار جدا . . أجيب وأنا أضغط على جبيني المؤلم

- ألو

- أهلا وسهلا ، أخيرا حصلت عليك

(أبتسم)

- «هلا فيك»

- لو لم تردي لظننت أنك تتهربين مني

- وهل هنالك ما يستعدي الهرب؟

- اكتشفيني واهربي من اكتشافاتك التي لا تحبينها

- ههههه «بياع حكي»

- كنت سأخبرك بأمر مهم

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

(أعتدل في جلستي وما زلت مبتسمة)

- أتحفني بما لديك!

- أخبرت أمي عنك وتفاعلت معي جداً وودت لو تراك

(ينقبض قلبي)

- أخبرتها بماذا؟

- بأنك الفتاة المناسبة ، قالت لي كيف أعرفك

(أغمض عيناني استعدادا للخيبة الآتية)

- «أيوه»

- قلت لها أننا نتبادل الاحاديث والمكالمات كثيرا ، وأنك مثقفة ذكية وجميلة جدا

- لكنك لم تنظر إلى وجهي !

- أنا مؤمن بجماله

- ماذا لو كنت شيئا آخر

- يكفيني ذكاؤك

- ولو كان تصنعا

- تكفيني عيناك

- فيصل أنت متهور ، وهل علمت أمك بظروفي؟

- لم نطل الحديث لكنها لا تمانع أبدا ، أمي دكتورة مثقفة في أحد الجامعات ولا تقيدها عادات ولا ظروف ما دام أن الأمر يسعدني وباختياري

- آها . . وماذا عن أهلي؟

- لا أعتقد أنهم سيرفضونني! يمتلك والدي محلات ذهب وألماس عدة ، وأنا خريج هندسة ميكانيكية من جامعة أمريكية

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

عـريقـة ووظيـفـتي ذات دخل جـيـد ، وأعـمل في المسـاء في مـحـلات والدي ، وقـبـيلتي ذات صـيت وسـمـعـة . . . لم سيرفضونني عائلتك وهم سيجدون بي كل ما يحلمون؟

أصمت لأن صوتي اهترأ . . وتلجمني الخيبة ، أشياء كثيرة مـاتت داخل روحي ، وتكسـرت أشـيـاء أخـرى داخل جـوفي وأضل مـسـتـمـعـه لحـمـاسـه القـاتل ، وفي صـدري غـصـة حـزن شكلهـا فـيصل بخـيـلائه ولا أجـد لكـلامـه ردا سـوى الصـمت والهمهمة وكأني مهتمة بما يقول!

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أبدو أكثر تماسكا من الخارج، هشاشتي الداخلية لا تثير ريبة أحد!

أحلام النهدي

لا شيء حدث، سوى أن الحماسة التي كانت تعتريني في طريقي للسوق انطفأت، واللعبة التي كان يلعبها معي سيف عن طريق المرآة انتهت، روحي مثقلة وعقلي غائر جدا وسط أفكار كثيرة.. ما زلت في الطريق نحو السوق دون شيء يدفعني للذهاب سوى لقمة العيش، سيف يقود وبجانبه صقر يتحدث بطريقة سريعة ولا أهتم للذي يقول، رأسي يؤلمني وَأحاديث صقر مملة، أحاول النظر إلى الجانب المشرق، أتناسى تباهي فيصل وثقته الكاملة بذاته وقبيلته! سأعيش حياة أخرى بغض النظر عن نظرة فيصل لمجتمعي وأهلي واختلاف المجتمعات بيني وبينه، سينتشلني من هذه الحياة التي كرهتها منذ طفولتي، وسينقذني من الفقر، سيعالج ندوب حرماني وسيطبطب على ما فاتني من عمر ويعوضني عنه، سأعيش من جديد حياة أخرى تختلف عن حياتي، سأنسى السوق وسيف والجوع سأشتري فستانًا أنيقا بلون اللؤلؤ، سأفك شعري الغجري وألبس الحلي المزينة وأضع أحمر شفاة على شفتيّ وأمشي بجانب صقر عيناه تذوبان، وتظهر تجاعيده حول عينيه وأبتسم أنا بخجل، سأكون فتاة جديدة تحولت من بؤس الحياة

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

إلى جمال الدنيا ، أستقر في أحضان وسيم صار زوجي وكأنما القدر يعوضني عن كل نكساته ، سأتجاهل غروره بذاته . . .

- «يالله لمى وصلنا !»

أرفع رأسي . . صقر ليس هنا! وحدي مع سيف في السيارة يسبقنا صقر ليعد البضاعة! أنظر نحوه وهو معلق عيناه على المرآة بلا تعبير :

- ماذا هل كنت نائمة؟

- هاه؟ لا . . يمكن ، طيّب سأنزل

يبتسم وتصدر منه ضحكة خفيفة وينزل عينه من المرآة ، أتوتر بشكل لا إرادي أمسك حقيبتي الصغيرة وأحاول فتح الباب المقفل ولا يطيعني . . . ويتسلط غبائي أمام سيف ولا أفكر بسحب القفل من الأعلى وأعيد تكرار محاولة الفتح الحمقاء وكأني أحاول الهرب

- مقفول مقفول ، أعصابك

أنا أعلم أنه مقفل لكن أتميز بحماقة مثيرة بعض الشيء فلم أفكر بفتحه ، يضغط سيف زرا بجانب بابه فيفتح القفل وأفتح الباب بسرعة

- لمى

أتسمّر مكاني . . . وألتفت

- ماذا؟

- لا شيء ، لكن . . . وودت أن أقول

- ماذا؟

- كنت أود أن أقول لك أني . . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

أقاطعه :

- نعم نعم

أنزل وأهرب من السيارة أركض باتجاه صقر الواقف أمام محل الذهب ، أندهش من الموقف الغريب ، فيصل وصقر يتصافحان ويتبادلان السؤال عن الأحوال ، أجلس في مكاني وراء البضاعة أنظر لسلام الاثنين . . يعود صقر إلى السيارة ويمضي هو وسيف ، ويلتفت نحوي فيصل مبتسما بعينين غائرتين . . ويغمز بشكل مسرور!

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

-٣٢-

أرفض الحياة المفروضة ، ولا أرغب بالتعايش ، إنما رغبت العيش فقط!

تعيسة لأن التمرد أول وآخر خياراتي لممارسة الحياة . . . ، هذا التمرد ينمو في صدري يأكل طاقتي . . . لا أملك في يدي حيلة أكون مثل الجميع . . أن أتعايش بالعيش الملزوم عليّ كعقاب بلا خطيئة ، أن أكون اللون الأفتح في اللوحة الغامقة ، الحمامة الهاربة عن السرب ، النوتة ذات اللحن النشاز ، يرفض عقلي التأقلم حتى بعد هذه السنين ، فهمت مؤخرا أن التمرد ليس نبذاً وصراعَ أيدٍ مع مجموعة كاملة ضدك . . إنما لعنة تصيب فرداً واحداً وسط مجتمع كامل وتتركه للتيه بين الأسئلة ومحاولات الهروب بحثا عن شيء يشبع عطش روح مثقلة من الهرب! حين صرخت في وجهي أمي يوماً ما «على مين طالعة؟ ليش ما تصيرين مثل بنات خالاتك؟» لم أكن أملك إجابة . . لكن سؤال أمي ولّد لدي تساؤلات جديدة . .هل التمرد فطرة أم صفة؟ أم جين شاذ يرفض أي شيء لمجرد الرفض . . كيف اكتسبت ذلك؟ هل هو واجب فكري؟ ، علمت في الوقت المتأخر جداً أن لعنة التمرد أصابتني ولم تصب بنات خالاتي اللاتي ينعمن بالرضا دون أن يرفضن الحياة المفروضة عليهن فرضا . . ومستسلمات للحد

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

الذي يجعلهنّ يتعايشن من أجل العيش فقط ، ولأني ملعونة بالتمرد . . . لم أتعايش ولم أعش ، لكني أؤمن أن الحياة من حقي ، ومن حقي أيضا خوض الحياة . . . وظروفي المحكومة لن تمنعني من المناضلة ، لكني بأية حال ما زلت حية وأمارس الحياة بتمرد!

- سنهرب عن هنا بحثاً عن الحياة المختارة
- أين؟
- أي مكان لا يمت لهذا المكان بصلة ، سننسلخ من أنفسنا ونُخلق من جديد ، سنعيش كما لم نعش من قبل
- هل عشت من قبل؟
- عيناك وهبت لي حياة جديدة
- كانت لك حياة قديمة قبل عينيّ؟
- كنت ميتاً على قيد الحياة ، وأحيتني عيناك

(أبتسم)

- «بياع حكي»
- ههههههههههه أنا مجرد إنسان فاهم ولبق يعرف للكلام
- صحيح !
- لا تصدقين؟
- أصدقك ولست متأكدة من ذلك
- عليك التأكد من جمال عينك ، سأفقد لهفة النظر إليهما في السوق ، لكني سأعيش اللهفة كاملة حين أعود وأجدك في بيتي ، أقصد بيتنا
- وما خطب عينيّ داخل السوق؟

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- لن تتواجدي فيه ، حتماً لن تكون زوجتي بائعة في سوق شعبي

- بغض النظر عن وضع وظيفتي التي لا أحبها ، لكنك ترفض أمر بيعي وكأنك أحببتني في حفلة ملكية داخل قصر بكنغهام في لندن ، وليس في سوق شعبي ببسطة متهالكة وسط الرياض؟

- ههههههههه ، الأمر لا يستدعي كل هذه الحدة ، أقصد أننا سنكون بخير لا نحتاج لأن تتعبي نفسك في هذا المجال

أبتسم مع ضحكته العالية ذات البحة والنفس المقطوع ، أتخيل وجهه الضاحك حين تبين أسنانه البيضاء وتختفي عيناه الصغيرتان وتحمر وجنتاه السمراوتان وتظهر تجاعيد جبينة وهو عاقد حاجبية الحادين جداً ، أتخيله كأنه أمامي لستُ بحاجةٍ إلى أن يكون كذلك!

***

لم أكترث لتجاهل ياسر ، ولا أبدي اهتماما لصمته معي ، ما دام أن سيف لم يتكلم منذ أيام ، الحادثة مرت بسلام خصوصا بعد محاولته لخلق حديث معي البارحة ، وهروبي السريع منعه من ذلك! لا أعلم لم هربت لكني أعلم أني أملك حماقة كافية لأن توزع على أهل الارض جميعا وسيبقى لي منها الكثير ، لو أني صبرت قليلا وعرفت عما سيتحدث لكان أهنأ لي بالاً بدل الانشغال بالتفكير ووضع الافتراضات المحتملة

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

التي قد يقولها سيف ، وانتهى بي الحال أقنعت نفسي أني غير مهتمة بما يقول أو بما قد يقول في المستقبل القريب ، سأمارس الحماقة ذاتها حين يتحدث معي من جديد!

ياسر يجلس أمامي مجردا من أي كتاب وبلا كراسة يرسم بها يتأمل وليد وهو يتقلب أمامه ويداعبه فهد ، يحاول ألا تلتقي أعيننا وأحاول أن أبدي له أني غير مكترثة له بأية حال ما دام أنه غير واثق بما يقول وفضل الانسحاب عني في أول المشكلة ، أبدأ بالدندنة بأغنية قديمة إثباتا لياسر أن مزاجي عالي جدا ولا يقلقني صمته ، أسدل شعري الفاتح على كتفي وأجدله بطريقة خفيفة وأتمايل مع الدندنة التي أصدرها بصوت أقرب للخفوت ، عيني على الهاتف أنتظر اتصالاً مهما من أم فيصل الذي وعدني بأن أمه ستتصل على أمي في القريب العاجل لتتم أمور الخطبة الأولية ، وبعدها يأتي هو ووالده ليخطبني من والدي وأخوتي كما يفعل الجميع بشكل رسمي ، الحظ النائم وسط عمري عاد لوعيه أخيرا وبدأ يمارس عمله مبتسما كما لم يفعل من قبل . . .

يداهم الملل ياسر الهادئ جداً ويخرج بلا صوت ولا تعبير إلى الشارع بلا إذن كما المعتاد . . تتلقاه الطرقات ، أو يدرك أحد أصدقائه القدامى أمام دكان العم عوض ، لأن ياسر هادئ للحد الذي لا يملك أصدقاء فدكان العم عوض مكانه الوحيد حين يضايقه الملل . . يتبادل الحديث مع أبناء الحارة المعهودين ويعود مبكرا حين يتفرق الجميع ، يرن الهاتف أخيرا أقفز من مكاني ويقوم فهد يحاول سبقي ليرد قبلي . . . أسرع وأرد بطريقة

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

أثارت تعجب فهد الذي لطالما عهدني وقحة في حق المتصلين على هاتف المنزل حين يزعجني رنينه فأرفع السماعة وأغلقها دون أن أجيب ، لكن هذه المرة ركضت لأرد قبل أن يكمل رنته الثالثة ، أجيب بحماسة :

- ألو

- «السلام عليكم . . أم سلمان موجودة؟»

(إنها هي . . بالتأكيد هي ، لا أحد يعرف أمي إلا ويناديها أم سلوم)

- وعليكم السلام . . نعم من أقول لها؟

- أم فيصل

(أرقص رقصة داخلية تشبه رقصة الهيب هوب يمتلئ عقلي ألوانا زاهية أشعر بها تخرج من أذني ، ويتحول بؤبؤ عيني لشكل قلب نابض ، أستعيد توازني وأحاول أن أزيح الابتسامة الواسعة عن فمي)

- حسناً ، انتظري قليلا من فضلك

(ألتفت لفهد الذي ظهرَ مستغربا جدا لفرحتي العارمة ، وأنا أسد الهاتف بيدي مبتسمة)

- قل لأمي هنالك مكالمة ضرورية . . بسرعة بسرعة

(يركض فهد لأمي المشغولة في المطبخ وهو يصرخ ويتصنع الذعر)

- «يممه بنتك انهبلت تعالي بسرعة»

تجيء أمي مسرعة خارجة من باب المطبخ تنفض الطحين الأسمر عن يدها ، أمد لها الهاتف بلا تعبير وكأني لا أعرف

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

عن الأمـر شـيـئـا . . ترد أمي وهي تجلس بجـانبي وأعـتـدل بجلستي بحماس :

- السلام عليكم

***

زحام ، وهذا العالم لا يحبني . . ولا أكاد أجزم أني أنتسب إليه! لعلي ابنة غير شرعية لهذه الحياة ، أو أني قد جئت بغتة من خارج المجرة إلى هذا الكوكب ولم تتقبلني الأرض بعد ، لا شيء يحبني حتى أنا لا أحب نفسي ، أشعر أني كائن قزم بين الزحام لا صوت لي بين كل هذه الضحكات حوالي ، لا أبصر النور ولا أعهد الألوان ، نكرة تلفظني الحياة وكأنها متقززة من تقزمي! وسط الزحام أجلس على كرسي صغير موضوع بجانب النافذة الكبيرة في الجامعة ، الناس حولي كثر والمكان يكاد يصبح ضيقا من التجمع ، وحدي أجلس خافضة رأسي وشعري ينسدل على وجهي بطريقة فوضوية ، لا أحب أحد ولا أحد يحبني .

أرى أريج تمشي وسط الزحام بجانبها مها وزهرة يتبادلون حديثا شيقا دون أن تكترث لما يقولون ، صامته وشعرها مزين جداً ، تضع كحلا كما كانت تضعه لي وترتدي قميصا أبيضًا ضيقا يظهر جمال جسمها وحذاؤها جديد ، زينتها المبالغ بها تجعلها محور نظر الجميع ، ولا تنظر لأحد ووجها مغرور متجمد لا أظنها تراني من بين كل هذه الأعين المعلقة بها ، مرت من أمامي ومازلت أراقبها حتى تعدتني دون أن تشعر بوجودي ،

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

تلتفت زهرة نحوي فتراني بوضعية جلوسي المأساوية . . تشهق مبتسمة باسمي ، وأغمض عيني كما لو أنها لن تراني . . . تجيئني هي ومها وتلحقهم أريج لا تعلم أني هنا ، يضمونني مبتسمتين وخلفهم أريج . . نتبادل النظرات ببرود ، تمد يدها ذات «المناكير» الأحمر والمزينة بالخواتم الذهبية ، وأمد يدي ببرود كي لا تعلم كل من مها وزهرة أننا نمر بمشكلة وتخنقانا بالأسئلة ونحن لم نجهز كذبة نتفق عليها بعد ،

- «وحشتينا»

أبتسم بمجاملة ، تودعاني الاثنتان وتمضيان في طريقهما تكملان حديثهما الشيق ، بينما أريج بقيت واقفة كما الصنم لا تعبر ولا تتكلم ، أتجاهلها وأعود وأجلس في الكرسي الأبيض ، تجلس أمامي تتأملني ، أعود لتأمل الفتيات المارين أمامي متجاهلة أريج ووجهها الذي يكاد يلامس وجهي من فرط التأمل . . . تقطع تأملي

- ما بك؟

(ألتفت وأنا أود صفعها صفعة تسقطها من هذا الكرسي ، آخذ نفسا عميقا وأشيح بوجهي عنها)

- ما بي؟ . . . لست بخير

- أعلم

(تصمت . . . تضع يدها على كتفي ألتفت نحوها وفي عينها أسئلة كثيرة . . ألعب بأصابعي داخل حضني وأنظر إلى يدي) :

- كنت أظن أن الحظ قد ابتسم لي ، لكنه لم يبتسم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

فحسب بل مات من الضحك حتى وقع على ظهره ساخرا مني!

«تهز رأسها مظهرة لي الاهتمام، ألتفت لها وفي حلقي حشرجة بكاء وصوتي يغص بالحديث وتجتمع في عيني الفارغة دموعٌ كبحتها منذ الصباح»

- البارحة اتصلت أم فيصل لتخطبني من أمي !

(تتسع ملامحها مدهوشة)

- «أيوه؟»

- سألتها إن كنت أعمل في أحد المجالات، أو أمارس نشاطا معين وأخبرتها أمي عن كوني بائعة في السوق، أبدت رفضها واستنكارها وأغلقت بعدما قالت كلاما يشبه الرفض اللبق

(تنزل الدموع من عيني وأمسحها بيدي، يختفي صوتي وأنا أحاول إكمال الحديث)

- تخيلي أن فيصل لم يخبرها أني بائعة في السوق، أخبرها أني صاحبة تجارة وأملك مكانًا أبيع به . . . كان مستعيباً بي عند أمه الدكتورة!

أمسح دموعي بيدي وتحاول أريج الطبطبة على كتفي وإعطائي منديلا لمسح دموعي، أجهل كيف أخبرت أريج بمشكلتي بهذه السرعة لكني أعلم أن لا أحد سيفهمني مثل أريج حتى وإن كنت أود سحقها بقدمي! أصمت وأنا أستمع لشتائم أريج لفيصل ومحاولة تهدئتي وتحسين مزاجي عن طريق الدعاء على فيصل وأمه .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

-٣٣-

كم كانت الحياة رائعة بالنسبة للحالة التي أصبحت الآن ، حين كنت أبكي قهرا لأن «هديل» ابنة الجيران تغيظني بلعبتها الجديدة ولا أقدر على الحصول عليها وأكتفي بالنظر إليها ، حين كانت أقصى طبطبات أمي هي أن تصنع لي لعبة أخرى مجسمًا قطنيًا بلا وجه وتخيط عينيها بالأزرار وخيطاً كان هو الفم ، ثمّ بكلّ عطف الأمّها ورغم قلّة حيلتها تحيك لها فستاناً أحمرًا مزهرا أخذت قماشه من قميصها القديم ووضعت لها شعراً بالخيوط المتبقية فكان شعرها زاهياً ملونا وعينان ذات أزرار مختلفة ،لم أستطع أن أغيض «هديل» بلعبتي الجديدة ، لكنني رضيت بلعبتي التي أسميتها «لولو» ، «هديل» لم تكترث لا لي ولا للعبتي وفضلت أن تغيض أحداً غيري من بنات الحارة القديمة بما أني رضيت تمام الرضا بـ «لولو» ، لكن أمي ليست قادرة على أن تصنع لي رجلاً آخر غير «فيصل» ، ولا أستطيع أن أخبر أمي عن قهري هذه المرة كما كنت أفعل حين أبكي من هديل والأطفال الآخرين ، لأن أمي لن تفهم ما أقصده عن رغبتي القوية بفيصل ، وستظن أكثر الظنون سوءاً بي وبه أيضا ، لذلك اكتفيت بتبرير بكاء القهر أن عمل السوق يقطع رزقي ، وأني حزينة لأني أشعر بالاحتقار لمجرد أني أبيع تحت الشمس حتى آخر الليل ، من أينَ لأمّي قماشٌ قديم يشبه فيصل وهو

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الأنيق الذي إن مرّ يلتفت الجميعُ ، من أينَ لأمّي خيطٌ يكونُ فمه المهذّب واللبق الذي يسحَر ، من أينَ لي قوّة أخبرها أنّي عشتُ معه في أحلامِي كثيرًا ، وأنّ هذا الحلمَ يتهاوى أمام عينِي عليّ ولا أملك عنه هربًا!

عرف الجميع عن مكالمة أم فيصل وعن رفضها السريع مجرد أن أمي أخبرتها عن كوني بائعة بسيطة لا تاجرة كما كانت تعتقد ، أصبحت في عينها الفقيرة ذات العيون الواسعة على رزقهم الوفير وأن رضاي لابنها سيكون لأجل المال ، أو هكذا فسرت رفضها أنا ، غضب أخوتي يفسر لي رفضهم لمبدأ الاحتقار مع أنهم أجبروني جميعاً على مزاولة هذه المهنة الحزينة والسيئة جداً ، لكن الأمر يختلف حين أخبرهم صقر أنه يعرف فيصل وقد رآه في السوق عدة مرات وأن عين هذا المدلل بحد قولهم على أُختنا! ورفضوا أهله تزويجه إياها لأنها تبيع في السوق ، هل تذكروا أني أختهم حين اكتشفوا أني سبيل لأعين الرجال وسر اكتشافهم كانت وراءه أعين فيصل ، نظرات الرجال تتعلق بي يوميا من المراهق ذو الشارب الأخضر حين يبدأ بالتحديق فيّ فخورا برجولته الجديدة ، حتى الرجل المسن جداً وهو يحاول إثبات رجولته المتبقية في استراق النظرات لي ولأشياء أخرى ، لمَ غضب الجميع لأن فيصل عينه علي واختارني لأنه رآني وأعجبته؟ ولم يظهر غضب أحد وهم يعلمون أن الشمس تستقر في حضني في الصيف ، وتهتز عظامي برداً في الشتاء ، لم يستنكروا أنّي حينَ أشاهد أحدهم يمدّ لعامل النظافَة ماءً أو شايًا أو عصيرًا باردًا أغبطُه عليه ، لم

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يكترث أحدهم أنّي كلّ يوم عليّ أن أشاهد الفتيات في سنّي يدلفنَ محلّ الساعات الفخْمَة يقع أمام عيني في الشارع المقابل ويخرجن محمّلات بمقتنيات أتمنّاها ولم أتحدث عنها لهم! لماذا أصبحتُ محطّ الأنظار حين كان بإمكان فيصل أن يسلك طريقًا آخرًا دون علم أهلي ومن يدري عن ردّة فعلي!

استنكر أبي هذا الأمرَ أيضا واغتاظ من فكرة أني قد يُقطع رزقي لمجرد أني أبيع في سوق مختلط فأصدر أول قراراته الرهيبة «لا سوق بعد اليوم» كان من المفترض بي أن أرقص فرحاً وأتعلق بالسقف من هول السعادة لكن القرار جاء متأخرا جداً ولم يعد يهمني ذهابي أو غيابي ، لأن شيئا ما في قلبي انطفأ ، أنظر أبي بعينيّ الدامعة بروح مكسورة بطفلَة في يدها كوبُها الذي انكسر وتبكي تريده أنْ يلتمّ أخرى ، انكسر الحلم يا أبي . . تأخرت جداً ، اقترح فارضًا نفسه كأب بعد كل هذه السنين أن نعمل أنا وأمي عملاً نزاوله في المنزل وشارك الجميع بتأييد رأيه دون أن أنطق بكلمة ، جالسة بينهم أتأمل النقاش الطويل الذي يدور بين العائلة هذه وكأنه لا شأن لي بما يتحدثون ، أُصدر القرار الحاسم من أمي التي قالت بأنها على معرفة تامة بالخياطة وأنها ستبدأ بخياطة الملابس البسيطة لنساء الحارة بمساعدة مني ، لكن توقف النقاش حين علم الجميع أننا لا نملك آلة الخياطة أصلا . . . وختم ياسر حديثهم حين ضرب صدره معتداً بنفسه «أنا سأحضرها لكم»

ينظر إليّ ياسر ،

بوجه يشابه الحزن وأنظر إليه بلا تعبير . . يبتسم بشكل

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بسيط وأتصنع ابتسامة واضحة الافتعال وأعود للتجمد من جديد . . يهدأ الجميع ينتشرون في كل مكان ويستلقي أبي على الأريكة الزرقاء ويغمض عينه استعدادا لقيلولته ، هذا يعني أنهم أطفأوا المشكلة كاملة وحلوها بالطريقة الصحيحة بحد زعمهم ،لكن القهر الذي يشتعل في صدري لم يطفئه أحد والدمعة التي تسكن في عيني لم يمسحها أحد . . . خرج الجميع وبقيت أنا هادئة جداً بجوار أبي النائم وياسر ينظر نحوي فقط!

***

تنفيذ القرار جاء سريعاً . . . حين دخل ياسر بعد صلاة الجمعة حاملاً على كتفه آلة الخياطة الكحليّة ووضعها بالصالة أمامي مبتسما ، تجاهلته وأكملت انسجامي مع التلفاز دون أن أنطق ، جلس بجواري هادئا وظل ينظر إلى ما أنظر ، حتى جاء فاصل يقطع علي ما يشغلني عنه ، التفت نحوي ، أدرت رأسي أنظر نحوه بوجه ملول ، يبتسم ويحاول خلق حديث ما :

- إذن لا سوق بعد اليوم!

أهز رأسي بالإيجاب بلا اكتراث بما يقول ، وأمسك بهاتفي القديم ليعلم أني لا أود التحدث ، أجد رسالة جديدة وأعلم أنها من فيصل ، هو الذي بقيَ يتصل طوال لليل حتى نفذت بطارية هاتفي وأرسل سبعين رسالة تطالبني بالرد ، أفتح الرسالة :

«أنا قلق جداً هل أنت بخير؟ أود أن نتحدث لا أريد أن تفهمي الموضوع بشكل خاطئ . . . سأبرر لك»

وددت البصق على الهاتف لكنني أعلم أن هاتفي قديم وقد

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

يموت ببصقة واحدة فاكتفيت ببصقة معنوية داخلي ، «سأبرر لك»؟ أنا لا أحتاج تبريرا إنما رغبت بشيء ما يجبر كسر قلبي ورد كرامتي واسترجاع أشياء كثيرة هدرت منه . . . ولا يصلحها تبرير ، هل تبريرك سيعيدُ إليّ آمالي التي بنيتها ، القاهرة التي أخبرتني أنّا سنزورها لأنّي أتمنّى أن أجيء الدارَ التي كانت تصدح منها أمّ كلثوم ، فرحةَ الأطفال حينَ أخبرتني أنّا سنسافر! أيّ تبريرٍ يعيدني إلى ما قبل أحلامي الكثيرة . . . معك!

تدخل أمي تبارك وتشيد وتمجد بآلة الخياطة الجديدة وسط ابتسامة ياسر السعيد بنفسه وكأنه أحضر لها طقم ألماس ، يتوالى الجميع ويتبركون تقريباً بالآلة الجديدة فرحين بها . . هي التي ستنقذ أختهم من نظرات الرجال بعد كل هذا الوقت بالسوق خافوا علي من نظر الرجال ، أو بالأحرى خافوا على غيرتهم أن تمسها سوءات الرجال ، أقوم من مكاني متضايقة من هذا الفرح التعيس أمامي وأدخل غرفتي وأغلق الباب بغضب ، يلحقني ياسر يدق الباب ويفتحه قبل أن آذن له

- ممكن أدخل؟

- «يوم دخلت تستأذن؟»

يبتسم بوجه مرح يجلس بجانبي ، يتضاعف حزني وأنا أتذكر الخيبة الأولى حين أخبرته بمشكلتي مع سيف وهروبه وقتها وتخليه عني وعن حزني وعن بكائي وعن أماني الذي وضعته بين يديه ، يباغتني ويسحب يدي النحيلة . . يقبلها ويبتسم

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

- أنا آسف . . .

يضحك بصوت مرتفع وهو يرى دهشتي الواضحة في وجهي ، يعاود تقبيل يدي بشكل سريع عدة مرات ويبقى يمسكها على الابتسامة ذاتها :

- «يالله ارضي» ، لن أتركها حتى ترضين

«أبتسم وفي عيني ألف دمعة يحضنني مبتسما وأبكي بكاء العتاب في حضنه وهو يمسح على رأسي ، ويذكر اسم الله علي»

***

- يجب أن تتفهمي موقف أمي ، أنا ابنها الوحيد . . . تود لي شيئا أفضل بالطبع

- وأنا شيءٌ أسوأ بالنسبة لك ولأمك؟

(يحرك يديه)

- لا لا أنتِ فق . . .

«أستدير وأمضي في وسط حديثة . . يسبقني ويأتي من أمامي»

- لمى توقفي ، أقصد فقط أن أمي ذات منصب ومكانة عالية وبالتأكيد أبي كذلك وكلام مجتمع الاثنين لا يرحم

- آها تقصد مجتمع أمك الدكتورة والمثقفة التي لا تقيدها عادات ولا ظروف ما دام الأمر يخص سعادتك؟

(يخفض رأسه بخجل وأحاول الابتعاد عنه)

- انتظري ، صدقيني لمى أنا رغبت بك حقا والدليل أني

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

تقدمت خطوة للأمام محاولاً أن تكوني لي لكن الظروف لا تسمح لنا بذلك

(أنظر بسخرية)

- ههههه يا للبؤس

(يعقد حاجبيه الحادين وتتحول تعابيره إلى الاستغراب ، تجيئني أم مشعان غاضبة وهي تنظر لفيصل الذي يصد وجهه خجلا)

- أين كنت يا «بنية» ، لا نملك الوقت الكافي لشراء كل الأقمشة الآن وأَمك لم ترسلك إلى هنا لتتبادلي الحديث مع هذه الذئاب التي تلحق بنا منذ أن دخلنا السوق ، هيا الوقت تأخر!

أمضي بجانبها وأنا ألتفت على فيصل عيناه بعيني .. أعطيه ظهري ونخرج من محل الأقمشة في وسط السوق الذي أجبرتني أمي إلى الذهاب إليه للمرة الأخيرة مؤكدةً لي أن أم مشعان تعرف صاحب المحل وسيرخص لنا سعر الأقمشة التي سنبدأ بها تجارتنا الجديدة ، تسير أم مشعان بجانبي نحو مكان بضاعتها التي كانت بجانبي وهي غاضبه وهي توبخني بكلام لا أسمعه لأني على وشك البكاء ، وفي يدي أكياس كثيرة ثقيلة جداً ، أبتلع عبرتي وأحاول منع نفسي من الانهيار وسط السوق ، نجلس سويا في مكان أم مشعان المعتاد

- اجلسي بجانبي حتى يأتي أخويك ، تكفي هذه الأقمشة وسعرها مناسب جداً كنت أود أن آخذ ال . . . .

ينخفض صوت أم مشعان في أذني وهي تتحدث

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

بأحاديث لا أدركها لأن انتباهي متركز هناك، عيناي معلقة على الرجل الواقف هناك أمام محل الذهب كما المعتاد لكنه هذه المرة لا يبتسم، قلبي يخفق بشكل سريع وعيناي تمتلئ بالدموع.. وأكاد أختنق وأنا أرى عينيه لا تغوصان في وجهه ضاحكا كما عهدته، وجهه مملوءٌ بالخجل الحزين والخيبة التي أهداني اياها عن طريق أمه والحزن الذي يظهر من عينيه حين تأكد من خسارته لي.

ألتفت على سيارة سيف القادمة بشكل سريع ينزل منها صقر قادمًا نحوي ليحمل الأقمشة الجديدة، أرى عينَي صقر تخترق فيصل من الأعلى إلى الأسفل.. يصل إلي وأمد له أكياس الأقمشة الجديدة.. وأسبقه إلى السيارة بسرعة.. أغلق الباب خلفي وأجهش بالبكاء كما لو كنت طفلة الخامسة، يلتفت سيف بوجه مذعور نحوي ويركب صقر وهو ينظر لسيف مستغربا.. يصرخ صقر:

- ماذا بها؟

(يصرخ بذعر)

- لا أعلم أجهشت بالبكاء فجأة

يصمت الاثنان ويتركاني أبكي بعدما حاولا مرارا وتكرار سؤالي عن سبب بكائي ولا أجيب، يستمر بكائي العالي وسط ذعر الاثنين سيف يقود بشكل هادئ، ينخفض صوت بكائي بشكل تدريجي وأكتفي بالبكاء بصوت صامت يتخلله بعض الشهقات قهراً من تبرير فيصل وحزنا لانتهاء حلمي وبؤسا لآمالي وكرها لحالي وتعاسة لأفكاري البعيدة وبغضا

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

لظروفي وغضبا على فيصل وأم فيصل وأهل فيصل . . . يقطع بكائي يد سيف وهي تمد لي عصيرا محاولاً لتهدئتي ورغبة منه أن أكف عن البكاء . . .

أذكر في طفولتي أني بكيت حينما سحب مني سيف عُلبة العصير وركض هاربا خوفا من العم عوض . . ويجري وراءه أصدقاءه متضاحكين ، فيما استنجدت أختي متباكية في الوقت ذاته . . لكنه هرب مع الصبيان خوفاً من أن ينبذوه ، كان الأجدر بي ألا أبكي . . لأن بكائي كان غير مجدٍ لسيف خاصة . . ولا أحد يكترث به ، لا أحد .

لكن سيف الآن خاصة يكترث لبكائي ، وبدل أن يسحب مني علبة العصير فأبكي ، مدها لي لأنتهي عن البكاء مبتسما ابتسامة صغيرة ، وصقر ينظر إلى هاتفه بلا اكتراث بصديقه المهتم فعلا ، أمسك العصير بيدي كطفلة صغيرة وأنظر نحو ابتسامة سيف من خلف برقعي الملطخ بالدموع ، ويمضي وهو يدندن لحنا أعرفه جيداً أغنيته الخالدة في ذهني

«أم عيون يا أم عيون
أخذها واحد مجنون
أخذها برا الحارة
على ظهر حماره
والحمارة تبكي تبكي
من ثقلها تشتكي !
أم عيون الهبلة
دمعتها كانت سهله . . .»

telegram : iraqkt
المكتبة العراقية pdf

ينظر إليّ عبر المرآة . . أضحك ، ويبتسم ليعودَ الصمت يملأ الأجواء مرّة أخرى .

تمت بحمد الله . .

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

الحياة لا تليق بي هنا ، أنا غير مؤهلة للتصالح مع مجتمع ثائر لمجرد اللا شيء ، لدي كامل الاستعداد للتنازل عنها والهرب بعيداً ، لأن هذا المكان ليس لي. أنا غير صالحة للعيش هنا ...

telegram : iraqkt
pdf المكتبة العراقية

KALEMAT

9786030163892